بين

الحبشة والعرب

تأليف

عبد المجيد عابدين

مدرس اللغة الحبشية المنتدب بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بين

الحبشة والعرب

تأليف

عبد المجيد عابدين

مدرس اللغة الحبشية المنتدب بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مقدمة الكتاب

كانت فكرة إخراج هذا البحث للناس تتخالج فى نفسى منذ ثمانى سنوات ، حين كنت طالبا أدرس اللغة الحبشية القديمة وآدابها بمعهد اللغات الشرقية بكلية الآداب . فلما عقدت النية على إصداره ، آثرت أن يكون موجزا ، فتحاشيت سرد النصوص الكثيرة ، والنقوش التى تتعلق بالبحث ، والآراء المختلفة فى كثير من المسائل ، والإفاضة فى كثير من أجزاء البحث ، وألممت إلماما سريعا بأهم الصلات التى ربطت بين الحبشة والعرب منذ أقدم العصور حتى أوائل هذا القرن الذى نعيش فيه . وجعلت البحث قسمين : تحدثت فى القسم الأول عن تطور العلاقات منذ أن أسس العرب المهاجرون إلى الحبشة دولة أكسوم ، إلى عهد انحلال هذه الدولة ، الذى يقابل فى التاريخ الإسلامى آخر عصر الخلفاء الراشدين أو ما بعده بقليل . وتناولت فى القسم الثانى الحديث عن تلك العلاقات منذ أن أخذت الحبشة فى النهوض والازدهار على يد الأسرة السليمانية ، حتى أوائل هذا القرن .

وإنه لواجب على كل شرقى ، يدرس الشعوب السامية وحضاراتها ولغاتها دراسة عميقة واسعة ، أن ينير السبيل أولا وقبل كل شىء ، إلى تاريخ الأمة العربية وحضارتها ولغتها ، وأن

يوسع من آفاق الدراسات العربية بما يفيده من البحث والاطلاع فى سائر الدراسات .

لهذا عرضت لهذا البحث ، راجيا أن أكون قد أوضحت بعض ما استبهم من تلك الصلاة التى قامت بين الحبشة والعرب منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث .

وإنى لأشكر للدكتور مراد كامل مابذله معى من جهد مشكور ، كما أشكر للدكتور خليل يحيي نامى ماقدمه من معونة صادقة فى حل النقوش السبئية التى ورد مضمونها فى هذا الكتاب ؟

المؤلف

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الثانى :

«علاقه الحبشة ببلاد العرب فى القرن السادس الميلادى»

صفحة

صفحة

صفحة

الباب الرابع :

« الحبشة والثقافة العربية »

الكتاب الاول

تمهيد

١

يرى بعض الباحثين أن لفظ (عرب) كان يطلق أول الأمر على أهل البادية من شمال بلادالعرب وشرقيها[١] فهؤلاء هم العرب الصرحاء أوالعرب العاربة كما يقولون وهؤلاء هم الذين يزعمون بحق أنهم أصحاب هذه البلاد وذووالقدم الراسخة فيها ، ولهؤلاء طبائع وعادات وطقوس توارثوها وارتبطوا بها بحكم طبيعة بلادهم وظروف حياتهم .

إلى جانب هؤلاء ، قوم غرباء نزحوا إلى هذه البلاد فى أزمان سحيقة فى القدم إلا أنهم فى نظر أصحاب البلاد طارئون عليها ، دخلاء عليهم ، أولئك هم العرب المستعربة ، الذين ليسوا عربا خلصاً كالفريق الأول ، والراجح أنهم نزحوا من بلاد عريقة فى الحضارة ، لعلها ناحية الشمال ، أولعلها على وجه التحديد، منطقة العراق، وتعاقبت هجراتهم ، على فترات قاصدين

(١) Hartmann p. 3.

إلى الجنوب حيث البقاع الخصبة والمناطق المطلة على البحر التى تمكنهم من مزاولة التجارة والسيطرة على منافذها .

وربما قامت هذه الأفواج ، بعد أن استقروا فى الجنوب ، واشتدت شوكتهم، بتأسيس طرق ومستعمرات فى البقاع الشمالية ليضمنوا سلامة تجارتهم من غارات الأعراب وعدوان المنافسين .

والجنوب كلمة واسعة عامة وإنما المقصـــود هنا ذلك الجزء الجنوبى الغربى الذى يمتد من خليج عدن جنوبا حتى نجران شمالا ، ومن الحديدة ميناء صنعاء ، حاضرة اليمن ، غربا حتى حضرموت القديمة شرقا .

هذا الجزء، بوجه خاص ، كان مسرحا لحوادث جسام وآثار ضخام قام بها الأحباش فى هذه البلاد . لهذا كان طبيعيا أن نخصه دون سائر أجزاء الجزيرة العربية بالحديث فى هذا التمهيد .

وتختلف شعوب الجنوب عن شعوب الشمال بوجه عام فى العناصر الثلاثة . اللغة والجنس والدين . فلغات الجنوب ، على اختلاف بسيط فيما بينها ، تكون وحدة متماثلة فى خصائصها وكتابتها تختلف عن لغات الشمال اختلافا بينا . والجنس وإن كان قد تعرض فى الجنوب لاختلاط العناصر القريبة الآتية من الشرق والغرب والشمال ولاسيما العناصر الأفريقية السوداء ، إلا أنه مباين عن أجناس الشمال مباينة تامة . والدين كذلك يتأثر فى

الشمال بالوثنية البابلية بينما نجد هذا الأثر فى وثنية الجنوب قليلا محدودا .

وكانت شعوب الجنوب كثيرة متعددة يتخذ كل منها رقعة من الأرض لا يتعداها فإذا عظم نفوذ شعب منها ودفعته المنافسة وحب السيطرة إلى توسيع رقعة سلطانه والاستيلاء على زمام التجارة أخذ يشن الغارات ويشب القتال حتى يبسط سلطانه على غيره من الشعوب .

من هذه الشعوب الكبيرة فى الجنوب أربعة تحدث عنهم اليونان والرومان القدماء وأثبتت النقوش والآثار عظمتهم ومجدهم القديم .

هذه الشعوب هى معين وسبأ وحضرموت وقتبان ، وربما كان المعينيون أقدم هذه الشعوب ويقال إن أقدم ما وصلنا من نقوشهم يرتقى إلى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد ، أما حضرموت وقتبان فلم تلبثا أن انضوتا تحت لواء سبأ حول عام ٣٠٠ م ثم أدركت معين الشيخوخة وغلب عليها السبئيون .

وبذلك قدر لسبأ أن تنفرد آخر الأمر بالزعامة من بين شعوب الجنوب ، وأن تمتلك ناصية الحكم والشهرة منذ القرن الثامن ق. م حتى قام فى القرن الأول الميلادى بنو حمير وهم غالبا سلالة سبئة فاغتصبوا من سبأ الزعامة وأكملوا حلقات الحكم السبئى

السابق وبدأ نجمهم يتألق منـذ ذلك الحين حتى القرن السادس الميلادى . ولقد أطلق العرب كلمة حمير على كل عصور اليمن لأن عصر بنى حمير كانوا أقرب العصور إليهم ومن ثم كانوا أعرف شعوب الجنوب لديهم .

كان ملوك سبأ من قبل يتخذون مأرب عاصمة لملكهم ولكن الحميريين نقلوا حاضرتهم إلى ريدان (ظفار) حتى يكونوا أقرب إلى البحر ولا سيما بعد أن أصاب بعض مدن الجنوب من التخريب فى حملة القائد الرومانى اليوس جالوس سنة ٢٤ ق . م .

وأصبح ملوك حمير يلقبون أنفسهم (ملوك سبأ وذى ريدان) بعد أن كان السابقون منهم يلقبون أنفسهم (ملوك سبأ) فحسب .

٢

يروى التاريخ المصرى القديم أن رمسيس الثالث (ها كون) غزا بلاد العرب وبنى أسطولا أنزله البحر الأحمر وسافر فيه لارتياد الفنط (أى سواحل السومال [١]) وكان غرضه الرئيسى تذليل طرق التجارة البحرية بين مصر وبلاد الشرق وأنه استطاع أن ينشىء طريقا تجاريا بريا بين القصير وقفط وطريقا بحريا بين المحيط الهندى والنيل عن طريق بلاد العرب .

وفى عهد الأسرة (١٩) رأى سيتى الأول أن يصل بين النيل والبحر الأحمر بقناة تسهيلا للتجارة أو الحرب بين مصر وجزيرة العرب .

ولما سقطت مدينة صور واضطربت أحوال الفينيقيين الذين كانوا يحتكرون التجارة فى البحار وجد سليمان ملك أورشليم وحيرام ملك صور الفرصة سانحة لعقد اتفاق تجارى فأنشآ السفن . وسارت من العقبة الى سواحل بلاد اليمن .

وقد أشارت بعض أسفار التوراة الى شهرة سبأ فى التجارة فى الشرق الأدنى فيما بين القرنين العاشر والخامس قبل الميلاد .

ولما كانت اليمن طريقا هامة الى الهند فقد لفتت اليها أنظار الساسة والمؤرخين من اليونان والرومان منذ القرن الخامس

---

(١) Glascr pp.5,7

قبل الميلاد ، وتطلع الرومان الى السيطرة على هذا المنفذ الهام المؤدى الى الهند .

كان الرومان قد تطلعوا الى غزو النبطيين وكانوا سادة التجارة فى شمال بلاد العرب فمنذ القرن الرابع ق.م . جرد عليهم الرومان حملات وتمكنوا من إخضاعهم فى أوائل القرن الثانى ق.م. وتطلع الرومان إلى غزو جنوب بلاد العرب . وكانوا يجهلون المسالك المؤدية اليها فاستعانوا بالأنباط لإرشادهم وقادوا حملة فى سنة ٢٤ ق.م . تحت إمرة القائد الرومانى إليوس جالوس ولكن الوزير النبطى ذهب بهم فى مسالك وعرة أعجزهم النفاذ منها فقضوا أياما قاسوا فيها آلام المرض والجوع والعطش وربما كانت نية الأنباط فى تضليلهم ترمى إلى إحباط مسعى الرومان حتى لايضيع الاحتكار التجارى من أيديهم ويذكر استرابو (٦٦ ق.م - ٢٤م) أن إليوس وصل بحملته الى ماريابا (مأرب مدينة السبئيين) وكان يحكمهم إليزاروس (إليشرح يحضب ملك سبأ) وقد حاصروها ستة أيام ولكن العطش اضطرهم الى الانسحاب .

وبذلك فشل الرومان فى إخضاع الشعوب الغنية فى بلاد العرب والاستيلاء على مواطن تجارة التوابل والعطور وإيجاد الطريق المنشود الى الهند .

وكانت البواعث الاقتصاديه والسياسية غالبا هى التى دفعت الطامعين الى الاستيلاء عـلى بلاد اليمن . ولما انتشرت المسيحية اقترنت هذه البواعث بالتبشير وبسط النفوذ الدينى فى هذه البلاد وكانت دولة الأحباش من أهم الدول المستعمرة وهى التى سنتحدث عن آثارها فى شعوب بلاد العرب فى القرون الثمانية الأولى من حياتها .

٣

قد يرد لفظ إثيوبيا للدلالة على الحبشة وهو يونانى الأصل مركب من كلمتين بمعنى « الوجه المحترق » وقد أطلق الأحباش هذا اللفظ على بلادهم أسوة — أو تيمنا بذكره فى التوراة ، ولم تـكن تطلق قديما على مانعرفه الآن من بلاد الحبشة وإنما أطلقها قدماء اليونان على البلاد المتاخمة لحدود مصر الجنوبية مما يـلى الشلال الأول ، وهو ما كان يسميه الفراعنة مملكة (كوش)

واتسعت التسمية فى العصر الرومانى و فأطلقت إثيوبيا على البلاد الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وشملت أحيانا بعض المناطق فى غرب النيل كمنطقة مرو التى كان لها تاريخ حافل ودولة زاهرة عرق من تاريخ الحبشة وأعظم مدنية منها .

وربما دخل فى مدلولها بعض المناطق على الضفةالشرقيةللبحر الأحمر حتى عد القدماء اليمن جزءاً منهاوأطلقوا إثيوبيا الأسيوية على اليمن وضفاف خليج فارس .

أما كوش فكان يطلقها قدماء المصريين على حدود مصر الجنوبية وهى ما نسميه (بلاد النوبة) وقد ذكرها العبرانيون فى التوراة (تكوين ١٠ : ٦ ، ٧) [١] كولد من أولاد حام وذكرتها النقوش الحبشية بصيغة (كاسو) .[٢]

والكوشيون من العناصر التىاستوطنت الحبشة وهم يتكلمون لغات خاصة ، غير سامية ، يطلق عليها الباحثون (اللغات الكوشية) وهم أحد العناصر الثلاثة الرئيسية التى تتألف منها الشعوب الحبشية وقد يطلق عليها القبائل الحامية نسبة الى حام جدهم الأكبر ، كمايطلق عليها أيضاً القبائل النوبية ، ويرتبطون مع المصريين القدماء برباط القرابة ، لونهم ليس حالك السواد وشعرهم ليس شديد الفلفلة فى حين امتاز إخوانهم الأفريقيون الذين يكونون عنصرا آخر من سكان الحبشة بحلوكة سواد اللون وشدة فلفلة الشعر .

---

(١) وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان :وبنو كوش سبا وحويله وسبته ورعمة وسبتكا وبنو رعمة شبا وددان

(٢) Glaser P.6

أما الساميون فهم أرقى العناصر جميعا وهم حملة الحضارة إلى الحبشة وهم الذين أسسوا الدولة الأكسومية الزاهرة بعد أن استقروا فى الوطن الجديد وتأثروا بطابع البيئة الحبشية وتفاعلوا مع العناصر الافريقية والحامية .

ولكل من تلك العناصر لغاتها الخاصة فالكوشيون يتكلمون الكوشية وهى فرع من اللغات الحامية (البربرية) ويتكلمها فى الحبشة شعوب كثيرة كشعب البجة والأجاو والساهو والجلا والكافينو وغيرهم .

والأفريقيون يتكلمون لغات شتى منها لغات البانتو واللغات السودانية .

أما الساميون فيتكلمون لغات قريبة الشبه من العربية الجنوبية .

وأقدم لغة سامية تكلموها ، فيما نعلم ، هى التى يسمونها (الجعز) نسبة الى بعض القبائل السامية المهاجرة .

هذه اللغة كانت مستعملة فى الحديث والكتابة فى الثمانية القرون الأولى من تاريخ الحبشة التى هى موضوع هذا البحث . وظلت كذلك حتى القرن الثالث عشر الميلادى حيث غلبت عليها اللغة الأمهارية لغة الدولة السليمانية التى حكمت منذ ذلك الحين .

وتعتبر اللغه الأمهارية أصلا للغتين ساميتين من لغات الحبشة وهما الجوراجواى ولغة هرر . ومن اللغات السامية التى يتكلمها

كثير من الأحباش لغة التيجرى ولغة اليتجرينيا التى اشتقت من لغة الجعز .

والثابت من النقوش القديمة التى عثر عليها فى المناطق الحبشية أن هؤلاء كانوا يستخدمون فى الحبشة ، فى الدور الاول من تاريخهم اللغة والكتابة السبئية ، وعثر على أسماء أماكن فى الحبشة لها نظائر فى بلاد اليمن مثل (أوم) التى ذكرت فى النقوش السبئية للدلالة على حرم بلقيس أو أحد هيا كل القمر قد ظهرت مرة أخرى فى أفريقيا فى نقوش بحا وفى بعض المصادر اليونانية [١] وأوجد كونتى روسينى نظائر أخرى مثل مدرى وقلى وضهرم وسهرت وحوزين وغيرها .

بل وجد الباحثون تشابها بين سبأ والقبائل السامية المهاجرة فى العقيدة الدينية فان أقدم النقوش الجيشية كانت مقدمة الى (ألمقه) الإله السبىء . وكانت فكرة الثالوث شائعة فى عبادة اليمنيين فكانوا كثيرا مايذكرون آلهتهم فى نقوشهم ثلاثة ثلاثة بادئين بسيد الآلهة أو أعظمها فآلهة معين (عثرو ود ونكرح) وآلهة سبأ :(عثتر

---

(١) Glaser ص ١٢ وقد ذكر أماكن أخرى مثل ألوودأرو وصانت وهرر (انظر ص ١٧ — ١٨)

(٢) Journal Asiatique, Juill.- Sept. 1921 (Conti Rossini, Exped. et possess. des Habasàt en Arabie.

وألمقه وشمس) وكذلك ذكرت بعض النقوش الحبشية المنسوبة إلى عيزانا فى القرن الرابع الميلادى أنه أقام عرشا فى حماية ثلاثة آلهة . (عستر وبراص ومدر) ، والمفهوم أن براص هو إله الرعد ومدر إله الارض وهما إلهان أفريقيان أوجدهما الأحباش بمرور الزمن بدلا من إلهين يمنيين (أوسبئيين) آخرين .

فوجود هذه النظائر الدينية و اللغوية والأثرية فى كل من اليمن والحبشة قد جعل الباحثين يرجحون وجود قرابة أو صلة دموية بين الساميين الأحباش وبعض قبائل سبأ .

ولقد رجح الباحثون أن هذه القبائل نزحت إلى السواحل الأفريقية (الساحل الاريترى) منذ زمن بعيد لمزاولة التجارة أونحوها . وربما كانت هجرتهم من شرقى حضرموت (مهرة)[١] وليس من اليسير تحديد زمان أسبق هذه الهجرات ، لكن الراجح أنها حدثت قبل ميلاد المسيح بقرون عديدة .

وكانت الهجرة إلى الحبشة سهلة ميسورة لقرب الشقة بين الساحلين العربى والأفريقى ولا سيما عند مضيق باب المندب .

ومن المعروف أن القبائل التى هاجرت إلى الحبشة كانوا يسكنون قبل الهجرة على الساحل العربى أوقريبا منه .

---

(١) Glaser p.9.

فقبيلة سهرت (سحرت) كانت فيما يظهر . تسكن على رأس المضيق ، فى منطقة مخا الحالية .

وقبيلة حبشت وهى أشهرها ، قدورد ذكرها فى النقوش اليمنية (١) ، كانت تسكن على الساحل أيضا ، وقيل إنها اتخذت فى هجرتها الطريق البحرى الذى يصل من خليج مصوع وهضاب الحبشة ثم عرجوا منها على الجنوب فمروا بأكسوم وتكازه واحتلوا الجانب الشمالى من الحبشة .

ومادة (حبش) فى العربية تدل على الجمع والتحالف ومن هذه المادة ألفاظ شائعة عند العرب فنجد حباشة سوقاً من أسواق العرب فى الجاهلية ، ومن أسماء الأعلام العربية حبشى وحبيش ، والأحابيش قوم من قريش أو من عبيد مكة تحالفوا فسموا كذلك (٢) .

ولما سكنت قبيلة حبشت فى شمال الحبشة نسب الجزء الشمالى إليهم وسمى باسمهم ثم أطلق العرب الحبشة على جميع البلاد . ومنها أخذ الإفرنج لفظ Abyssinia.

---

(١) ورد لفظ حبش فى النقوش اليمنية بهذه الصيغ : حبشت ، ملك حبشتن مصوز أحبشن (أى قواد الحبشة) الخ . . . .

(٢) كتب الاستاذ لامانس بحثا عن الاحابيش فى كتابه :
L' Arabie Occidentale avant l'Hégire, Beyrouth 1928, p, 237 sqq.

أما قبيلة الأجاعز (أو الأجعازيان) فهى فيما يقال أقدم من هاجر إلى الحبشة من القبائل اليمنية . وكان موطنهم الأصلى على الساحل بين صنعاء وعدن ولهم نقوش تذكرهم فى اليمن والحبشة ، وقد انتقلت إلى الجانب الشمالى الشرقى من الحبشة ، وإليهم تنسب لغة الجعز أو (لسان جعز) كما يسميها الأحباش.

وكان الأجاعز شعبا قويا اشتغل بالتجارة واستطاع بحكم رسوخ قدمه فى البلاد واتساع نفوذه فيها أن يصبح على رأس الطبقة الحاكمة .

والمفهوم أن نزاعا حدث أول الأمر بين الغرباء الطارئين وأصحاب البلاد الحاكمين ثم لم يلبث الساميون أن تفوقوا عليهم بتفوق حضارتهم . واتسع نفوذهم تحت زعامة الأجاعز واستطاعوا أن يبسطوا عن طريق نفوذهم الاقتصادى سلطانهم السياسى على البلاد وأن يصبحوا سادة يملكون ناصية الحكم على الجزء الشمالى من الحبشة ، ثم على سائر البلاد .

كانت مدينة أكسوم حاضرة هذه الدولة الزاهرة القوية ، وهى مدينة تقع شمالى الحبشة لا نعرف من تاريخها قبل هذه الدولة إلا ما تزعمه الأساطير الحبشية القديمة من أن أثيوپيس أبا الأثيوبيين هو والد الملك أكسوماوى الذى حكم البلاد ولا نعرف أين كان مقر حكمه ،وربما كان هو الذى أسس هذه المدينة(١).

(١) Budge vol. 1. p. 129

وأقدم مانعرفه عن تاريخ هذه الدولة يرجع الى القرن الأول قبل الميلاد . وقد استخدمت الدولة لغة الجعز ، لغة الحكام الغالبين وكانت فى أول أمرها سبئية لغة وكتابة ثم لم تلبث أن تطورت فى شكلها وفى موضوعها فلم ينته القرن الرابع الميلادى حتى كانت لغة متميزة نوعا ما فى صور حروفها وطريقة كتابتها ، كما تأثرت بمجاورة اللغات الحامية والأفريقية المختلفة .

وقد جهد الباحثون فى استخلاص تاريخ دولة أكسوم مما كتبه الأحباش والأقباط واليونان والرومان وما ورد فى الوثائق الأثرية وحققوا تواريخ ملوكها ومدات حكمهم ما استطاعوا ومن هؤلاء الباحثين البارزين الأساتذة مللر وسالت وبروس وكونتى روسينى وليتمان وغيرهم .

وقد لوحظ أن أسماء الملوك الذين حكموا حوالى ميلاد المسيح حتى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى (٨ ق.م - ٢٧٤ م) مصدرة بالمقطع (za) كما نرى فى زابازين ، زازناتو ، وزاهكاليه . وهذا المقطع معناه سيد أو صاحب ويقابل ذو بالعربية الشمالية والجنوبية ويقال لأمثالهم فى حمير الأذواء مثل ذويزن وذوقفان وذوجدن . والمعروف أن مايلى هذا المقطع يدل على اسم القبيلة أو الشعب أو المكان الذى ينتمى إليه هذا الملك فبازين وزناتو وهكاليه كلها أسماء قبائل أو أماكن لهؤلاء الملوك كما أن يزن وقفان وجدن كذلك على الراجح .

ثم طائفة أخرى من الملوك تبدأ أسماؤهم بمقطع إل مع نطق اللام مفتوحة مشددة أو مفتوحة من غير تشديد كما يقال فى إل أسفح وإل سمرة وإل إسكندى وإل أبرهة ونجد هذا التركيب مطردا فى أسماء الملوك من عام ٢٧٥ قبل الميلاد حتى ٤٧٨ م ثم لانجد هذا الاطراد منذ هذا التاريخ حتى نهاية الدولة الأكسومية فى القرن السابع الميلادى .

وربما كان معنى إل الإله فيكون معنى التركيب إل أسفح له أسفح فقد جرت عادة اللغة الحبشية القديمة أن تجعل المضاف مبنيا على الفتح فيقال إل أسفح أى إله أسفح ، وربما كانت تقاليد الملوك لذلك العهد تنعتهم بصفات القداسة والتأليه(١) .

هذه الدولة الأكسومية التى لا نعرف دليلا على وجودها قبل القرن الأول ق . م. بدأت تضمحل ويخبو نورها فى أواخر القرن السابع الميلادى وهذه الفترة تقابل فى تاريخ العرب عصر الجاهلية ومايتجاوز الخمسين عاما بعد ظهور الإسلام .

فى هذه القرون الثمانية التى عاشتها هذه الدولة كانت العلاقات الودية تارة والعدائية تارة أخرى قائمة بينها وبين اليمن حيث استطاعوا أن يدعموا سلطانهم ويبثوا آثارهم ويغذوا هذه البلاد بما أفادوه فى أفريقيا من لغة ودين وحضارة لم يكن لها أثر على اليمن فحسب بل على بلاد العرب جمعاء .

(١ Kammerer p.24

٤

ولم تكن الحضارة السامية هى الحضارة الوحيدة التى تأثرت بها الحبشة بل هناك حضارات أخرى تسربت إلى هذه البلاد لعل من أهمها الثقافة اليهودية والحضارة الهيلنستية أو (السريانية - اليونانية) فمن المقرر أن بعض العناصر اليهودية كانت قد استوطنت فى البلاد بعد هجرات الساميين إليها عقب حلقة من الاضطهاد الذى كانوا يمنون به خلال أعصر التاريخ المتعاقبة ، وربما كان السواد الأعظم من يهود الحبشة من سلالة الهاربين من فلسطين قبيل الميلاد بعد اضطهاد الرومان وتنكيلهم بهذه الطائفة ويسمى يهود الحبشة (الفلشه) وكثير منهم يقيمون الآن بين أكسوم وغندار ويتكلمون لغة كوشية (لغة الأجاو) ويقرؤن كتبهم المقدسة بلغة الجعز وربما كانت العبرية هى اللغة الأصلية التى جاءوا بها الى هذه البلاد ثم تعاطوا لغة الحكومة الرسمية (لغة الجعز فى ذلك الحين) ولا سيما بعد أن ترجمت الكتب المقدسة إليها ، فنسوا العبرية شيئا فشيئا كما أنهم اندمجوا فى العناصر الحامية والافريقيه وأثروا فيها كما تأثرو بها .

ولليهود أثر كبير فى أفكار الأحباش السياسية والدينية فقد استطاعت قصة سليمان وملكة سبأ التى عرفناها فى التوراة والقرآن أن تنفذ إلى الحبشة وأن يلعب فيها خيال الأحباش (أو اليهود الأحباش) فنسجوا حول القصة أفكاراً عجيبة تتلخص فى أن

هذه الملكة (ويسميها الأحباش ماقدة) . بعد أن اتصلت بسليمان ، ولدت منه رجلا تسميه الأسطورة ابن حكيم (أى ابن الحكيم سليمان)، وكانت الملكة قدتعلمت اليهودية على يد سليمان حين ذهبت إلى بيت المقدس ، ثم أدخلتها فى بلدها أكسوم،(وهم يزعمون أنها كانت ملكة على أكسوم أيضا) ، وربط الأحباش بين ابن حكيم هذا وبين منيلك مؤسس الأسرة الملكية فى بلادهم وزعموا أنه هو نفسه وأنه مؤسس دولة أكسوم فى القرن العاشر قبل الميلاد [١]، ولا شك أن هذه أسطورة . والذى رجحه العلماء أن أكسوم لم تؤسس قبل القرن الأول قبل الميلاد [٢] . ولا شك أن اليهود كانوا جادين فى التبشير بدينهم والدعوة اليه بمختلف الطرق والوسائل ، وقد قرأ ليتمان فى بعض نقوش عيزانا أحد ملوك أكسوم عبارة (ملك صهيون) ، والمعروف أن عيزانا قد اعتنق المسيحية فى القرن الرابع الميلادى ، ومن ذلك استنتج البعض أنه ربما كان تجرى فى هذه البلاد ، فى تلك الفترة ، حركة تبشير باليهودية أو بمذهب يجمع بين المسيحية واليهودية . [٣]

---

(١) Budge, vol., 1, p. 193.

(٢) Id., p. 194.

(٣) Kammerer, p. 86.

وعلى كل حال ، فلا نعرف شاهداً تاريخيا يدلنا على أن دولة أكسوم كانت قد اعتنقت قبل المسيحية دينا غير الوثنية .

ومن الشواهد الدالة على أثر اليهود الدينى فى القبائل الحبشية وخاصة فى المسيحية ذاتها ، ما نجده من أن قبائل الجلا يعبدون إلاهة يسمونها سمبث ، وهو فى الواقع تشخيص ليوم السبت الذى يعظمه اليهود ، والذى يطلق عليه الفلشة سمبت أو سنبت ، وما نجده أيضا من تفريق المسيحيين الأحباش بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، ومن فكرة تدنس الأشخاص الذين يخالطون نساءهم أو النساء وهن فى زمن المحيض ، وغير ذلك من الأفكار التى أخذها المسيحيون أولا من اليهود .(١)

كذلك أثرت الحضارة اليونانية فى البلاد ، فقد كشفت لنا النقوش عن استخدام اللغة اليونانية فى الحبشة فيما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين .

ومن المعروف أن الساحل الاريترى كان حلقة اتصال بين الأحباش وكثير من الأمم الأخرى ، وأن تاريخ هذا الساحل أقدم فى الوجود من الدولة الأكسومية ، فقد يرجع تاريخه الى حوالى القرن الثالث قبل الميلاد ، وفى هذا الساحل كانت تقيم جاليات

---

(١) Encyc. of Religion and Ethics, art. Abyssinia.

يونانية تشتغل بالتجارة ، ولهم موانى ترسو فيها سفنهم . وكان لميناء عدول Adulis التى ذكرها بعض شعراء العرب فى العصر الجاهلى،[١] والتى قيل إنها تأسست فى زمن بطليموس فيلادلفيا فى القرن الثالث قبل الميلاد ، أهمية تجارية عظمى فكانت ميناء لتصدير أنواع العاج ، وقرون الكركدن ، وجلود الحيوان ، والأرقاء الذين كانت لهم فيها أسواق تجارية ، يردون اليها من بلاد أفريقية لتصديرها الى بلاد العرب وغيرها .

وقد كشفت أعمال الحفر التى قامت بها بعثة إيطالية سنة ١٩٠٦ برئاسة باريبينى Paribeni عن أطلال معبد يونانى فى نظامه وفنه ، ووجدوا فيه كتابات تثبت العلاقة الوثيقة بين عدول ودولة أكسوم . وهذا المعبد يرجع الى عصر استيطان الجاليات الإفريقية فى عدول . ويلى هذا العصر عصر كثر فيه البحارة الأغريق الآتون من مصر والإسكندرية . وفى أوائل العصر المسيحى بسطت دولة أكسوم نفوذها على عدول، وأصبحت عدول منذ ذلك الحين تابعة للحماية الحبشية ،فكان الأحباش يحشدون فيها أسلحتهم وعدتهم عند محاربة بلاد العرب ، وينصبون فيها الآثار تذكاراً لانتصاراتهم .

---

(١) قال طرفة بن العبد فى معلقته :

عدولية أو من سفين ابن يامن ∴ يجور بها الملاح طورا ويهتدى .

قوله عدولية نسبة الى عدول وكانت تصنع فيها السفن .

والمهم ان الآثار العدولية التى ترجع الى العصر الأكسومى تدلنا على أن بلاط الملك والحكومة الحبشية وربما الشعب الحبشى أيضا، كان متأثرا بالحضارة الأغريقية واللغة الأغريقية، وان كان استخدامها محدودا بين الشعب [١].

أضف الى ذلك أن المسيحية فى الحبشة قد أدخلت بدخولها بضعة تحسينات على اللغة الحبشية القديمة حتى أصبحت صالحة لنقل الكتب المقدسة اليها، وكان الفضل الأول فى ذلك راجعا الى أولئك المبشرين الذين رحلوا الى هذه البلاد.

كانت لغة الساميين المهاجرين كما ظهرت فى أقدم نقوشهم الحبشية خالية من الحركات، فإذا أريد كتابة صحافى (أى كاتب)، كتبوها (صحف) فلا يعرف القارىء المقصود على وجه التحقيق، هل هو صحاف أم صحيف أم صحف أم غير ذلك، وكانت تكتب أحيانا من اليمين الى الشمال، وأحيانا على الطريقة المتعرجة التى يسمونها طريقة المحراث (البوسطروفيدون)، وهى كتابة الأسطر مرة من اليمين الى الشمال، ومرة بالعكس، مع اتصال الأسطر من أول الكلام الى آخره.

فاستطاع المبشرون بالمسيحية ان يدخلوا إصلاحات على هذه اللغة، فاخترعوا حركات وصلوها بالحروف، وجعلوا الكتابة تبدأ

---

(١) Kammerer, pp. 29–38.

من الشمال إلى اليمين ، وأضافوا ثلاثة أحرف جديدة الى حروفها الستة والعشرين.

والراجح أن معظم ماطرأ على هذه اللغة من إصلاح إنماهو أثر من آثار السريان (وكانت لهم ثقافة يونانية بطبيعة الحال) ، كما أنه ازدادت ثروة اللغـة الحبشية بمـا أضيف اليها من ألفاظ وعبارات دينية، بعضهاسرياني ، ويقال إن في نهاية القرن الخامس الميلادي ، قدمت طائفة تتألف من تسعة رهبان من السريان ،[١] هاربين الى الحبشة ، [٢] بعد ان رفضوا قرارات مجمع أفزوس (٤٣١م)، ومجمع خلقدونية (٤٥١ م)، فدعموا المسيحية في البلاد ، وأعادوا ذلك النشاط الذي كان قد أظهره من قبل فرومنتيـوس أول أسقف على الحبشة في القرن الرابع الميلادي .

---

(١) Fell, ZDMG, vol. 35, 1881.

(٢) Budge, vol. 1, pp. 259-60.

الباب الأول

١

متى بدأت أول حملة حبشية على حمير ؟ هذا مثار خلاف بين الباحثين، فيرى البعض أن أقدم وثيقة تثبت لنا النشاط السياسى والحربى لهؤلاء الأكسوميين فى بلاد العرب ترجع الى القرن الأول قبل الميلاد ، حيث تدلنا قطعة اكتشفت على جدران هيكل وثنى فى أبا بنطليون الواقعة شرقى أكسوم ، وهى قطعة مكتوبة باللغة والحروف السبئية القديمة ، وهى تتفق تماما مع النقوش السبئية القديمة التى عثر عليها فى بلاد اليمن ، مما يدل على قدمها . وقد حفظت لنا فى القطعة الكلمات الآتية :

... ملكو دعمت مشرقـ ...

وذ تبعدن وأبـ ...

فان كانت (دعمت مشرق) هذه تدل على جهة فى اليمن لدلنا هذا النقش على حملة عسكرية سحيقة فى القدم. ولكن هذا التفسير لم يثبت بالدليل القاطع إذ من الممكن أن يكون المعنى أن هؤلاء القوم ملكوا هذا المكان المرتفع المدعم (الدعامة) فأقاموا عليه

معبدهم فى شرق أكسوم[١] .

وسواء أدل هذا النقش على حملة قديمة أم لم يدل ، فانه يعد من أقدم نقوش الدولة الأكسومية ، فنى خطه وكتابته ما يذكرنا بنقوش (خريبت سعود) التى ترتقى الى العهد الأول للنقوش السبئية فى اليمن .

٭ ٭ ٭

حملة أخرى فى (القرن الأول ق . م. أو الأول الميلادى) ترجع إلى قصة حرب بين بنى همدان من جهة ، وبنى ريدان وملوك سبأ من جهة أخرى .

وكان بنو همدان تابعين لملوك سبأ وكانوا ذوى منعة يسكنون الجبال بين الغائط وتهامة وجبال السراة ، واغتنم الهمدانيون فرصة ضعف ملوك سبأ ، فتطلعوا إلى انتزاع الملك من أيديهم . وقام أحد زعمائهم « علهان نهفان » وسيطر بالقوة ، وأعلن نفسه مع ابنيه شاعر أوتار ويريم أيمن ملكا على سبأ .

وكان لابد والحالة هذه ، أن يبحث عن حلفاء حتى يستطيع أن يصمد أمام عدوين عظيمين : ملك سبأ الشرعى الذى طرده الهمدانيون ظلما وبغير حق وبنو حمير الذين يحالفون ملك سبا

---

(١) Lidzbarski, Ephemeris, B. II, 1908, p. 397.

ويؤيدونه ضد الهمدانيين ، فلجأ الهمدانيون الى الأحباش وتحالفوا مع ملكهم جدرت كما تسميه النقوش . ويشك بعض الباحثين فى كون جدرت هذا ملكا إفريقيا ، زاعمين أنه ربما كان زعيم بعض الأحابيش الذين كانوا يقيمون فى بلاد العرب . غير أن الراجح أن جدرت[١] هذا ملك أكسومى، وأن الحليفتين كما يظهر من النقش قد تبادلتا معه الرسائل بالبر والبحر، [٢] فهو لم يشترك بشخصه فى هذه الحرب، وإنما أناب عنه قواده الذين ذكرهم النقش (مصور أحبشان أى قواد الحبشة) ، وهم يترسمون الخطة التى اختطها لهم من وراء البحر .

وكان هذا التحالف هجوميا ودفاعيا، ثم اتسع الحلف فشمل يدعأب غيلان ملك حضرموت . وانتصر بنو همدان أول الأمر ولكنهم انهزموا أخيراً ، ذلك أنهم تغلبوا أولا على الحميريين (بنى ريدان)، واستطاع ولدا يريم أيمن (الهمدانيان) أن يحرزا لقب (ملكى سبأ وذى ريدان) ، ولكن الملك الشرعى فارع ينهب وولديه إليشرح يحضب ويأزل بين وسائر عساكرهم ، لم يلقوا

---

(١) قيل ربما كان هو جدور الذى ذكرته الجداول الملكية ولكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك .

(٢) CIH, 308, 1-17.

السلاح ، وظلت حمير لاتلق السلاح كذلك ، ودافعوا طويلا ، ومع ذلك فقد استطاع بنو همدان أن يخضعوا بنى حمير وأن يتمتع الملكان الهمدانيان بلقب ملكى سبأ وذى ريدان ردحا من الزمن .

وظل الأحباش مخلصين لحلفائهم حتى نهاية الحرب ، وأخيرا استطاع ملك سبأ الشرعى ان ينتصر ، واتخذ الحبش لهم مدينة سحرت قاعدة فى بلاد اليمن ، وطالبوا الملك الأكسومى ببعض رغباتهم كالاحتفاظ بجيش بحرى كامل فى اليمن ، ولكنه لم يقبل.ه (١)

وعلى كل فقد تركت هذه الحملة آثارا هامة فى بلاد العرب ، منها تحول سبأ إلى مملكة سبأوريدان ، فانتقلت السلطة السياسية والعاصمة إلى ريدان ، كما أن هجرات القبائل قد ظهرت فى هذه الفترة تتجه من الجنوب إلى الشمال ، وربما كان هـــذا راجعا الى ما رأوه من اضطرابات وحروب داخلية وخارجية ؛ أضف الى ذلك أن دوله أكسوم قد ضمنت أملاكا فى بلاد العرب ، فقد استوطن الأحباش سحرت ، وجعلوها قاعدة حربية لهم ، واستقرت جاليات حبشية فى اليمن منذ ذلك الحين ، فبعد أكثر من قرن

---

(١) Conti Rossini, JA. Juill.—Sept., 1921.

(عام ١٣٠ م) نجد أحد السريان يلاحظ فى خلال رحلته الى بلاد العرب أن ملكاً عربياً ، لا يسكن فى الخيام ، شأن البدو ولكنه يعيش فى قصر مزين الجدران برسوم الآدميين، وأن هذا الملك أسود حبشى (كوشى)،فهل نستطيع أن نزعم أن هذا الملك كان فى جنوب بلاد العرب، وأن هذه المملكة الصغيرة التى يحكمها هى إحدى الجاليات الحبشية التى استقرت فى هذه المنطقة [١] ؟

٢

ولا نكاد نعرف من تاريخ أكسوم شيئا يذكر فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين الا ما ذكره بطليموس الجغرافى من مواقع بعض المدن الحبشية فى القرن الثانى الميلادى ، ومادلتنا عليه بعض النقوش الحبشية من أسماء ملوك ، وإشارة الى ديانة أصحابها .

ومن أهم أسماء هؤلاء الملوك عيزانا، وسمبروتس ،وإل عميدا، وأفيلاس ، وإن تحقيق أسماء ملوك الحبشة من الصعوبة بمكان لأن الملك منهم كان يلقب بألقاب كثيرة فضلا عن تعرض الأسماء للتحريف بحسب اختلاف النصوص . فمثلا عيزانا قيل

---

(١) ذكرت هذه الرحلة فى التلمود وتحدث عنها الاستاذ س . كراوس فى ZDMG عام ١٩١٦ ص ٣٢٥.

هو أذينة الذى يذكره العرب، وقيل هو إل أبرهة (٣١٧-٣٤٢م)، أو أبرهة الذى حكم مع أصبحة حوالى ٣٦٠ م .

أما سمبروتس فقد ذكر فى نقش يونانى قصير عثر عليه عام ١٩٠٦ فى مكان شمالى أسمرة ، فى مستعمرة أريتريا ، يسمى دقى محارى،[١] وربما يرتقى إلى القرن الثانى الميلادى ، وفيه يلقب الملك سمبروتس (بملك ملوك أكسوم ، الملك الأعظم) ، وربما كان هو إل سمرة (٣١٤ — ٣١٦ م) أو إل عميدا والد عيزانا . أما أفيلاس فهو اسبقهم جميعا كما سنرى . فيكون الترتيب الزمنى لهؤلاء الملوك : أفيلاس (٢٧٧ - ٢٩٠ م) ثم سمبروتس (إل عميدا) (٣١٤ - ٣١٦ م) ثم عيرانا (٣١٧ - ٣٤٢ م) .

وفى النصف الأول من القرن السادس الميلادى نسخ أحد التجار اليونان ، كوزماس ، من ميناء عدول ، بعض النقوش ، المكتوبة باللغة اليونانية، ومنها نقش طويل، وجده مكتوبا على عرش من المرمر ، باللغة اليونانية . ولم يتمكن الباحثون أن يعرفوا اسم الملك صاحب هذا النقش على وجه التحقيق .

يتحدث هـــذا النقش عن غزوات ملك أكسوم القاهر وفتوحاته ، وخلاصته أنه اتجه اولا نحو المشرق والجنوب فأخضع

---

١ — وربما كان سبب وجود النقش فى دقى محارى التى تبعد عن أكسوم بخمسة أيام أو ستة راجعا إلى حملة عسكرية أرسلها سمبروتس إلى هذه البقعة .

السكان فى اتجاه البحر الأحمر ، ثم سار نحو الشمال حتى بلغ الحدود المتاخمة لمصر ، ومر بنهر تكازه ، وفى طريقه أخضع قبائل البجه . ثم اتجه الى الجنوب الشرقى، فأخضع القبائل الساكنة فى الصومال ، وانتقل الى ماوراء البحر فى بلاد العرب فأخضع قبائل الأرابيين (لعلهم قبائل تسكن شمالى بنى حمير) ، والكنايدو كوليت (ولعلهم كنانة أو كندة على شاطىء بحر الحديدة الحالية) ثم زحف الملك الى قلب البلاد العربية ، فالتقى بمناطق مختلطة بالعرب الجنوبيين والأنباط ، ومنها وصل الى الحوراء الواقعة فى شمال بلاد العرب، تلك المدينة البنطية التى يسميها النقش لويكى كومى، وبسط نفوذه عليها .

والباحثون مختلفون فى تاريخ هذا النقش . ولعل أرجح الآراء فى ذلك ما أثبته كونتى روسينى فى المجلة الآسيوية فى بحثه عن حملات الأحباش وأملاكهم فى بلاد العرب [١] . ويستدل كونتى روسينى فى إرجاع هذا النقش إلى القرن الثالث الميلادى ـ لا إلى القرن الاول الميلادى كما زعم البعض ــ بأمور منها أن صاحب النقش، كما يفهم من عبارته ، ليس أول الملوك الذين حكموا فى أكسوم ، وأن إغفال النقش ذكر مملكة مرو التى ظلت قوية مزدهرة حتى دخول العصر المسيحى ربما كان دليلا على فنائها

---

(١) J.A, Juill-Sept., 1921.

أوضعفها فى وقت كتابة النقش ، ولم يتطرق إليها الضعف إلا بعد القرن الأول الميلادى بفترة من الزمن .

فمن يكون صاحب هذا النقش الذى غزا بلاد العرب ، وشق طريقه فيها متجها إلى الشمال ؟ كان المظنون منذ زمن أن صاحب النقش هو الملك (زو سكاليس) الذى ذكر فى كتاب رحلة فى البحر الأحمر المسمى (بريبلوس) وقال إنه سيطر على ساحل بربرة ، ووصفه بأنه ملك « بخيل شديد الحرص على تنمية ثروته » ، ولما قوبل بأسماء الملوك المدونة فى الجداول رجح أن يكون هو زا هكاليه الذى حكم (بين ٧٧ ، ٨٩ م) .

ولكن الأستاذ رايمر الذى كان عضوا فى بعثة حفائر أكسوم ١٩٠٦ يرى من الأنسب أن يكون مؤلف نقش عدول سابقا لعهد زو سكاليس هذا[١] .

أما كونتى روسينى فقد رجح أن يكون صاحب النقش هو أفيلاس (حول نهاية القرن الثالث الميلادى) ، وقد أثبت ذلك بما أورده من بعض الحوادث والظروف التى وقعت فى تاريخ اليمن ومن مقارنته بين النقود الأكسومية واليمنية .

وقد كانت مجموعات النقود الأكسومية مثار خلاف فى تحقيقها وقد تبين أن من الممكن أن نميز بين مجموعتين كبيرتين من

---

(١) D.A.E., vol. 1,pp.43. 45.

النقود الأكسومية [١]، إحداهما تحمل على أحد وجهيها صورة آدمية دون الوجه الآخر والأخرى تحمل صورة آدمية على كل من الوجه والظهر . والطراز من المجموعة الأولى كان معروفا لدى الأحباش منذ القدم فى حين نجد الطراز من المجموعة الثانية دخيلا على العملة الحبشية . ولما كان هذا الطراز الدخيل يشبه العملة اليمنية من حيث نقش صورة على كل من الوجه والظهر ، فقد ترجح أنه قد جاء من أصل يمنى ، وربما حدث هذا التأثير بعد أن غزا الحبش بلاد اليمن ، فتمكنوا بذلك من نقل نظام عملتهم إلى بلادهم .

ثم إن هذه النقود من المجموعة الثانية، كما ظهرت من دراستها، قد عاصرت عهدين : الوثنية المنصرمة والمسيحية الطارئة : فمن المعلوم أن الوثنية الرسمية كانت موجودة حتى عصر إل عميدا والد عيزانا الذى كان أول ملك حبشى تنصر وقد عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى .

وإذا رجعنا الى أقدم ملك استخدم هذا الطراز الجديد المتأثر بالعملة اليمنية وجدناه الملك أفيلاس . وإلى عهده ترجع قطعة من النقود تعتبر تقليداً رومانياً للملك نصفى الوجه يرتدى

---

(١) راجع ما كتبه الاستاذ بريدو Prideau عن النقود الاكسومية فى المجلد الرابع من كتابه :

The Coins of the axumite Dynasty, London, 1884.

حلة رومانية (توج) ، وعلى رأسه قلنسوة مزينة بأشرطة ، وعلى ظهر القطعة رسم لشجرة أوسنبلة ، وعلى وجهها مكتوب (أفيلاس ملك الأكسوميين) ونقش عل ظهرها (من قبيلة ديميلى) وفيها بعض العلامات التى تميز النقود الوثنية وفيما عـــدا هذه القطعة فان هناك مجموعة أخرى ، ترجع الى الملك نفسه ولـكنها تمتـاز بالطراز ذى الصورتين . ولعل السر فى ذلك أن هذا الملك قد عاش فى فترتين فترة لم يتأثر فيها الحبش بالعملة اليمنية واليها ترجع العملة السابقة ، وفترة تأثروا فيها بالطراز اليمنى وقلدوه ، وربما كان ذلك نتيجة غزوة أرسلها هذا الملك الى بلاد اليمن ، فكأن القطعة الأولى كانت أسبق من اخواتها إذ ضربت قبل أن يغزو الملك بلاد اليمن، أى قبل أن تتأثر العملة الحبشية بطريقة اليمن فى صك النقود .

ومن ذلك رجح أن يكون أفيلاس هو أول ملك أدخل هذه العملة الجديدة إلى بـلاد الحبشة ، وان على يديه حدثت غزوة لبلاد اليمن ، وأنه اتجه نحو الشمال حتى وصل إلى مدينة الحوراء .

والراجح أن أفيلاس هـذا لقب لهذا الملك وأن من القابه أيضا إل أسفح (٢٧٧ - ٢٩٠م) ، ولفظ أفيلاس مختلف فى أصل اشتقاقه ومعناه ، وهو مكتوب على الطريقة اليونانية ، أى بزيادة مقطع as فى آخرها ، وربما كان أصل اسمه أفئيل أى فم الله ، [١]

---

(١) الاحباش يسمون أف كرستوس أى فم المسيح وأف ورق أى فم الذهب .

وقيل إن الاسم يذكرنا بالاسم الوارد فى النقوش اليمنية (هوفئيل) وقيل غير ذلك [١]

أضف الى ذلك دليلا آخر يثبت أن صاحب النقش كان فى النصف الثانى من القرن الثالث ،وهو أن مملكة سبأ وذى ريدان عادت تجتمع فى نهاية هذا القرن ،تحت لواء أمراء وطنيين ،منهم ياسر يهنعم ملك سبأ وذى ريدان الذى ترجع نقوشه الى ٢٧٠ ، ٢٧٤ م ، وشمر يهر عش ملك سبأ وذى ريدان الذى يرجع نقشه الى ٢٨١ م .

وبعد قليل ، نجد لقب شمر يهر عش يصبح ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت مما يدل على أن شمر قد استولى على حضرموت وأضافها الى ملكه ، وأن الحرب امتدت حينئذ من الحدود الشمالية لبلاد سبأ أعنى من نجران (مدينة شمر كما يسميها نقش النمارة) حتى المحيط الهندى، حيث حضرموت التى تقع فى الجنوب الشرقى. ولم تقف حروب شمر عند حضرموت ، بل تحدثنا بعض النقوش عن حوادث أخرى ؛ ففى نقش آخر [٢] يجد شمر يهر عش فى إخضاع القبائل التى لم تعترف له بالزعامة وكانت إحدى حملاته

---

(١) راجع ما كتبه كونتى روسينى فى المجلة الاسيوية عدد يوليو ــ سبتمبر عام ١٩٢١ .

(٢) CIH, 407.

موجهة الى سحرت وحلفائها لإخضاعها ، وسحرت هى قاعدة الحبش فى بلاد العرب ، وتقع فى الزاوية الجنوبية الغربية منها ، واستعان شمر بقبيلة سردود (ويظهر أن اسمها لا يزال باقيا حتى الآن فى وادى سردود شمالى الحديدة فى اتجاه سحرت) فوقفت بجانبه ضد سحرت . وكان من أثر ذلك أن تقهقر أهل سحرت الى البحر، وطردوا الى الشمال فى اتجاه جبلين متفرقين يسميان (عكوتان) فى أرض زبيد [١] ولا يذكر النقش اسم الحبشة ولا الجهة التى لجأ اليها أهل سحرت ، وربما لجأوا الى البحر ليستنصروا أحباش إفريقية .

حدثت هذه الحملة وشمر لا يزال ملك سبأ وذى ريدان . ويظهر أنها كانت سببا فى تدخل الأكسوميين مرة أخرى فى شئون بلاد العرب ؛ ولكن النقوش لا تدلنا على شىء فى هذا الأمر . وإنما دلتنا دراسة النقود ، كما رأيت ، على تأييد هذا الزعم .

وبهذا نرجح حدوث هذه الغزوة فى نهاية القرن الثالث الميلادى لتخليص أهل سحرت من يد شمر ، والضرب على يد هذا الملك الثائر الذى أراد التوسع فى الفتوح فضم بلاد العرب الجنوبية إلى ملكه .

---

(١) معجم البلدان لياقوت حـ ٣ ص ٧٠٧

وظل الحبش سادة على بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادى حتى القرن الرابع الميلادى، ومما يؤيد ذلك، سكوت النقوش العربية فى هذه الفترة عن ذكر أى خبر عن حكام اليمن. ثم كان أول ذكر بعد ذلك فى النقوش سنة ٣٧٨ م حين حكم ملكى كرب يهنعم فى بلاد حمير.

وفى النقوش الحبشية مايؤيد وقوع اليمن تحت حكم الأحباش فى هذه الفترة، فلدينا نقش يرجع الى عهد أحد الملوك الأحباش وكان سابقا لعهد الملك عيزانا (اى قبل سنة ٣١٧م) ويلقب هذا الملك بملك الاكسوميين والحميريين.. ثم كان لقب عيزانا (ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين وصيامو [1] ويحه وكاسو) وكل الأمم أو البقاع المذكورة كائنة فى بلاد العرب ما عدا أكسوم ويحه وكاسو.

وفى عام ٣١٦م توفى إل عميدا والد عيزانا فأصاب البلاد بعد موته انحلال حين تولى العرش عيزانا وكان طفلا تحت وصاية مؤقته ظلت حتى بلغ عيزانا أشده، ومن المعروف ان عهود الوصايات تنطوى على ضعف سياسى غالباً فسرى الضعف فى مستعمراتهم، وساءت إدارة الأحباش، وبدأ تألب القبائل الجنوبية، وطمع

---

(١) قيل سلحين هى مارب، صيامو هى تهامة اليمن.

عرب الشمال فيهم . واستغلوا ضعفهم للاستيلاء على اليمن. فنى حوالى ٣٢٨ م ، كما يدلنا نقش النمارة ، الذى اكتشفه ديسو . وهو نقش عربى قديم ، رأينا ملكا عربيا اسمه امرؤ القيس ، يلقب نفسه بملك العرب جميعا ،[1] ليس غسانيا ولكنه كان من ملوك الحيرة الذين كانت دولتهم على حدود العراق ، واستطاع بنفوذه أن يكون حاكما من قبل الرومان أيضاً . وهو فى نقشه يشير إلى أنه أحرز التاج ، وملك الأسدين (أسد وطىء قبيلتان فى بلاد العرب بجوار جبل شمر) ونزاراً وملوكهم (وكانت نزار تقع فى الشمال الغرب من الجزيرة العربية) . وتوسع فى الفتوح حتى بلغ نجران مدينة شمر (شمر يهرعش) .

كان الملك عيزانا مولعاً بالقتال إلا أنه لم يعبر البحر لإخضاع العرب بالرغم من أن العرب كانوا قد أحدثوا بعض القلاقل وأحسوا بضغط الحكم الحبشى، ولا ندرى هل كان هذا الإغفال راجعاً الى ضعف هذا العهد ، أم إلى أن البلاد المحيطة بدولته بدأت تتمرد عليه من ذلك الحين فانشغل بها عن محاربة اليمن ، أم أنه اكتفى بحكمه الصورى على اليمن وفوض الادارة الحبشية فيها أمر إخضاع هذه البلاد وحكمها .

---

(١) اكتشف فى حدود حوران الصحراوية .

٣

دخلت المسيحية فى بلاد الحبشة على يد أحد رجال الدين الإسكندريين ، ويدعى فرومنتيوس[١] حوالى ٣٣٠ م أى فى حكم عيزانا وقد اعتنق عيزانا المسيحية على يديه ، فهو أول ملك حبشى اعتنقها على الراجح . وكان معاصر القسطنطين الأكبر ، وبعض الباحثين يسمون عيزانا قسطنطين الحبشة تشبيها له بالأول ، إذ أنه جعل المسيحية دينا رسميا فى الحبشة ، وفى بعض نقوشه أنه حارب مملكة مرو وهى الأرض التى كان يسكنها أهل النوبة والكوش ،[٢] وكانت لاتزال على دينها الوثنى حين هاجمها عيزانا فهدم مافيهامن الأصنام .

ومنذ أن دخلت المسيحية فى الحبشة لم نسمع عن ملوك أكسوم حتى نهاية القرن الخامس الميلادى حيث وجدنا الملك تازينا (ويسمى إل عميدا وهو غير إل عميدا والد عيزانا) يتمثل فى بعض نقوشه وثنى العقيدة وفى بعضها مسيحيا .

وفى ذلك الحين ، كما سبقت الإشارة ، وفد تسعة رهبان من السريان ، من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة Monophysites وبشروا بالمسيحية فى البلاد . والظاهر أن المسيحية لم تنتشر وتتأكد دعائمها إلا بعد قدوم هؤلاء الرهبان ، وأن تبشير فرومنتيوس وإن

---

(١) عين فرومنتيوس مطرانا على الحبشة وسماه الاحباش (أباسلامة) .

(٢) سكن أهل النوبة فى المجرى الاوسط لنهر عطبرة ، ويسمى مجراه الاعلى نهر تكازه . وسكن الكوش فى المجرى الادنى لعطبرة عند اجتماعه بالنيل أى فى منطقة مرو .

كان قد ترك آثارا . إلا أنه لم يصادف نجاحا كبيرا فى البلاط الأكسومى ،وربما كان هذاراجعا إلى ضعف المطارنة الذين تولوا من بعده كرسى الحبشة ، ووقوف أصحاب المذاهب الأخرى فى وجه انتشار الارثوذكسية فى الحبشة .

وقد اكتشف الباحثون قطعا من النقود الحبشية تحمل أسماء ملوك جديدة ، قد تبلغ العشرة . لم يذكرها الباحثون القدماء ، ولا نكاد نجد منهم فى جداول الملوك إلا اسمين: إل جبز وأرماح . ويقال إن أرماح هذا حكم بعد إل عميدا (تازينا) فيكون حكمه من ٤٨٩--٥٠٣م ،[١] ويسمى أرماح الأول تميزا له عن أرماح الثانى الذى يظن أنه عاش فى القرن السابع وكان معاصر اللنبى عليه السلام .

وبعد بعثة فرومنتيوس بسنين (أى بين ٣٤١ ، ٣٤٦ م) ذهبت إلى اليمن بعثة على رأسها ثيوفيلوس الهندى[٢]. وكانت اليمن

---

(١) Budge vol,1.p, 261

(٢) قيل سمى الهندى نسبة إلى جزيرة هندية اسمها ديبوس ولكن جلازر أثبت (Abessinier.p.167) أن هذه الجزيرة تقع على الساحل العربي بالبحر الاحمر قرب أنفودا ، فلو صح ذلك لساعدنا على معرفة لماذا أرسل ثيوفيلوس على رأس هذه البعثة الى تلك البلاد ، اذ يكون فى هذه الحالة أجدر من غيره برئاسة هذه البعثة لكونه أكثر خبرة بأهل اليمن ، وكثيرا ما يطلق الرومان واليونان على اليمن كلمة الهند ، وأصل هذه التسمية أن الفرس كانوا يطلقون كلمة السود على الاحباش الذين تحالفوا معهم فى جنوب بلاد العرب أسوة بالشعوب ذوى الجلود السوداء الذين عاشوا قريبا منهم وهم الهنود

فى ذلك الحين قد استردت استقلالها وحريتها . وكان ثيوفيلوس آريوسيا [١] . أرسله قسطنطين مصحوباً بهدايا إلى حمير للتبشير بالمسيحية على مذهب آريوس فى بلاد اليمن .

وكان الخلاف على أشده بين آريوس ممثل مذهب كانت تعده كنيسة الإسكندرية إلحاداً وبين أثناسيوس بطريق الإسكندرية وممثل كنيستها ، وكان فرومنتيوس موفدا إلى الحبشة من قبل أثناسيوس هذا ، لهذا كانت المنافسة شديدة بين ثيوفيلوس فى اليمن وفرومنتيوس فى الحبشة .

والظاهر أنه كان من أغراض بعثة ثيوفيلوس ضمان حرية العبادة للرومان المسيحيين القاطنين بهذه البلاد ، والحصول على فوز للمذهب الآريوسى يضاهىء ما حصل عليه الأرثوذكس فى الحبشة . ولما كانت الحروب ناشبة فى ذلك الحين بين الروم والفرس

ثم انتقلت هذه التسمية الى الغرب عن طريق السريان ، لهذا كان من الصعب أن نعرف دلالة (الهند) حين تطلقها هذه الشعوب (راجع ما كتبه رتيشاردبل فى كتابه Origin of Islam in its Christian environment, p. 34. London 1928,

(١) نسبة الى آريوس ، عالم مسيحى ، نشأ فى افريقية وترك وطنه الى الاسكندرية ، وعاش فى القرن الرابع الميلادى ، وكان يرى أن المسيح مخلوق كسائر البشر ، وأنه لم يكن منذ البدء ، بل أنه مخلوق أخرجه الله من العدم لكى يخلق به بقية الخلائق .

وكان الفرس قد ملكوا ناصية الطرق التجارية البرية مع الهند فربما كان من أغراض هذه البعثة أيضا ، أن يطلبوا الى أمراء اليمن المفاوضة فى ضمان حسن نيتهم إزاء تجار الرومان الذين كانوا يعبرون ببضائعهم عن طريق اليمن [١] ، ولكن يظهر أن بعثة ثيوفيلوس لم تصادف نجاحا كبيرا فى بلاد اليمن .

وكان ثيوفيلوس مزوداً بخطاب من الأمبراطور إلى عيزانا وأخيه سيزانا وهو يلقبهما فى خطابه (بالشقيقين العزيزين) ، وقد سعى ثيوفيلوس للذهاب إلى الحبشة وإقناع فرومنتيوس بالتخلى عن أثناسيوس واعتناق مذهب آريوس فلم يفلح .

وكان طبيعيا ألا يحصل ثيوفيلوس على فوز دينى أو سياسى فى اليمن لسبب ظاهر : هو تدخل الفرس فى شئون اليمن وتحريضها على مقاومة نفوذ الرومان فى هذه البلاد .

(١) Conti Rossini, JA, Juill.—Sept. 1921.

الباب الثانى

والقرن السادس الميلادى حافل بأخبار الحبشة وعلاقتها باليمن ، وان كانت هذه الأخبار لاتخلو من فجوات غامضة . فقد دونها الرومان ، واليونان ، والعرب ، وعثر على نقوش قيمة ترجع الى هذا القرن . ولعل أهم مادونوه من تلك الكتب :

١ — كتاب أعمال القديس الحارث Acta Si. Aretae وهو من أقدم النصوص التى قصت لنا الحوادث التى جرت فى اليمن من تهود ملك حمير وقتله المسيحيين وعلى رأسهم الحارث زعيم نجران وتدخل الحبشة وقتلهم للملك اليهودى.

والراجح أن هذا الكتاب منقول من أصل يونانى غير معروف، وإن كثيرا مما ورد فى الروايات العربية ، مما رواه ابن إسحق وهشام من هذه القصة قريب مما ورد فى هذا الكتاب [١] .

٢ — كتاب الحميريين (كثافادحميريا) وهو عبارة عن أوراق قديمة جدا باللغة السريانية وفيها أجزاء تالفة وأخرى ضائعة تتناول

---

(١) راجع مقدمة اكسل موبرج فى كتاب The Book of the Himyarites, Lund 1924

نفس موضوع الـكتاب الأول وقد نشره الاستاذ أكسل موبرج في لند سنة ١٩٢٤ واثبت أنه من أقدم النصوص التي ذكرت هذه الحوادث . ورجح أن تـكون هي المصدر الاصلي لبعض المصادر السريانية الأخرى، وأنه كتب في زمن معاصر تقريبا لشهداء نجران أي حوالى ٥٢٥ م .

ومن النصوص السريانية التي كان الباحثون يعتمدون عليها قبل نشر هذا الـكتاب ولا يزالون . خطاب سمعان أسقف بيت أرشام وهو معاصر أيضا. فقد سمع في العراق خبر القصة من شهود عيان فدونها في هذا الخطاب. وأرسله الى سمعان رئيس دير جابول، وقد نشر هذا الخطاب في روما ١٧١٩ في رسالة نشرها السمعاني في المـكتبة الشرقية [١]

كذلك ليعقوب الرهاوي وصف لهذه القصة في بعض ميامره (منشوراته التعليمية) أرسله إلى المسيحيين من بني حمير [٢].

وهناك ترنيمة ليوحنا بسالتي تشيد بهؤلاء الشهداء ، ترجمت من اليونانية الى اللسان الرهاوي (السرياني) [٣] .

---

(١) ١ : ٣٦٤ ـ ٣٧٩

(٢،٣) راجع ما كتبه شرتر Schroeter في مجلة ZDMG مجلد ٣١ عام ١٨٧٧ .

ويلاحظ أن هذه الكتب والرسائل (١ ، ٢) تمتاز بروح دينية متعصبة للمسيحية ساخطة على جور اليهود .

٣ — ما كتبه المؤرخون الرومان مثل بروكوبيوس، وكوزماس، ومالالاس وغيرهم وهؤلاء عرفوا ما حدث فى بلاد اليمن فى ذلك الحين من قلاقل دينية ، وعرفوا المعارك الناشبة بين اليمن والحبشة، وتحدثوا عن تدخل الامبراطور البيزنطى . فيتحدث كوزماس عما شاهده بنفسه فى عدول ، حوالى ٥٢٥ م من استعداد لحملة حبشية يقوم بها الملك إل أصبحه ملك أكسوم على بلاد حمير . ويمدنا بروكوبيوس بمعلومات صحيحة عن البحر الاحمر والملاحة فيه . ويرسل الامبراطور البيزنطى رسوله نونوزوس الى ملك أكسوم فيكتب تقريرا عن هذه البعثة ، ولكن مالالاس يخبرنا أن هذا التقرير مع الاسف لم يعثر منه إلا على جذاذات ذكرها فوتيوس فى مجموعة بون للكتاب البيزنطيين .

١

قيل إن سلالة من اليهود كانت قد لجأت الى بلاد العرب هرباً من اضطهاد أباطرة الرومان ، ولاسيما عقب تخريب بيت المقدس (٧٠ م) ، حيث ذبح منهم مئات ،وفر عدد كبير الى حدود العالم القديم ، وأسسوا جماعات قوية ولاسيما فى بابل . من هؤلاء من

لجئوا إلى بلاد العرب وانتشروا فيها من طورسيناء حتى عمان شرقا وعدن جنوبا . وكانت هذه الجماعات ، إذا اتفق نزولها بين شعوب بدائية ، أوقبائل همجية ، تغلبت عليهم بمالها من حضارة قديمة ، وتحولت الى مستعمرات مستقلة. وهذا ماحدث فى بعض المناطق العربية .

ولقد أولع اليهود فى التاريخ بحب الانتقام ، وإشعال الثورات كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا. فقد فعلوا ذلك على حدود الامبراطورية فى الشرق فأشعلوا الثورات، وحرضوا الفارثين والفرس والعرب وقبائل الشرق المتوحشة . وربما ترجع هذه النزعة الانتقامية إلى (رد فعل) ما كان يحدث من اضطهادهم المتواصل بالسبى والإهانة والتشريد [١] .

وقد حدث أن استقرت فى اليمن طائفة منهم، ووجدوا أنفسهم فى حماية الفرس أصحاب الدعاية القوية فى حمير ، ولا سيما وقد كانوا لاجئين من اضطهاد الرومان أعداء الفرس ، فما كاد اليهود يملكون ناصية الحكم فى أرض حمير حتى ظهرت فيهم روح الانتقام من النصارى الرومان العابرين ببضائعهم الهندية فى طريقهم إلى الحبشة ومصر .

---

(١) Kammerer, 112.

وتذكر الكتب العربية قصة تهود بعض ملوك حمير ، فتقول إن تبان أسعد أبا كرب ملك حمير هو أول ملك متهود من ملوكهم ، وكان له بنون ثلاثة : حسن وعمرو وزرعة . ويقال إن زرعة هذا هو ذو نواس[1] آخر ملوك حمير الذى حكم فى رواية من ٤٩٠ — ٥٣٠ م وكانت عاصمته ظفار (ريدان) .

والمفهوم أن المسيحية كانت تربط الدول المتنصرة بالدولة الرومانية ربطا قويا . وبعبارة أخرى كان اعتناق المسيحية سبيلا إلى بسط النفوذ الرومانى . فقد كسبت الدولة الرومانية صداقة الأحباش بعد أن صادفت دعوة فرومنتيوس نجاحا فيهم ، وفشلت بعثة ثيوفيلوس فى اليمن لأن الحركات المناوئة كانت عنيفة لم يستطع مقاومتها . فقد كان للفرس فيها صولة وجولة ،

---

(١) اختلف فى أصل تسميته : ذكر ابن هشام (ص ١٩) أنه زرعة ، ويروى ابن خلدون (جـ ٢ ص ٥٩) أنه لما تغلب على ملك آبائه تسمى يوسف ، وقيل ان ذا نواس لقب منسوب الى أسرته أو عشيرته كما يقال ذو يزن وذو جدن وذو قفان ، وأن نواس قبيلة سبئية ذكرت فى النقوش وربما كان ذو نواس هذا منسوبا اليها (هارتمان) . واسمه (مسروق) فى كتاب الحميريين ، ويرى شروتر أن مسروق ترجمة لذى نواس باللغة السريانية ، ذلك أن العرب يقولون أنه سمى ذا نواس لان ذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقه (ابن قتيبة ص ٢١١) وأن (سرق) فى السريانية معناها سرح أو رجل أو مشط الشعر . لهذا سماه السريان مسروقا بصيغة مفعول العربية الشمالية . ثم جاء العرب وأخذوا القصة من السريان فترجموا مسروقا بذى نواس .

من هذا نفهم لماذا مكن الفرس لليهود فى بلاد اليمن ، ولماذا لجأ بعض ملوك حمير إلى اليهودية . الغالب أنهم صنعوا ذلك ليحاربوا المسيحية بدين مثلها من جهة ولأن اليهودية كانت تعتمد على تأييد الفرس فى حين كانت المسيحية تستند إلى الدولة الرومانية الشرقية الطامعة فى غزو بلادهم .

٢

ومن الممكن أن نفهم مما ذكره بعض المؤرخين (كيوحنا الأفزوسى ومالالا وغيرهما) أن تنكيل اليهود بالمسيحيين فى بلاد اليمن كان سببا فى نشوب حربين ، فرووا أن دميانوس أودمنوس ملك حمير اليهودى كان قد أمر بقتل قافلة أو أكثر من قوافل التجار الرومان الذين كانوا يجتازون مملكته إلى بلاد الحبشة ، فأوغر ذلك صدر ملك الحبشة إيدوج Aidog (كما يسميه يوحنا الأفزوسى[١]) وامبراطور الروم واتفقا على قتالهم ، وجردوا على الملك اليهودى حملة انتهت بانهزام دميانوس وقتله ، وولى الأحباش والرومان أميرا نصرانيا على حمير ولكنه لم يعش طويلا ، فوجد اليهود الفرصة سانحة لإقامة يهودى آخر عليهم ،

(١) ورد اسم هذا النجاشى فى كتب القدماء بصيغ مختلفة مثل
Adad, Aiga, Adadas, Andas, Anda etc (Kammerer, 109.)

وكانوا قد استعادوا شيئا من قوتهم ، فولوا ذا نواس[١] اليهودى ملكا على حمير . وكان التجار قد انقطعوا عن طريق اليمن خوفا على حياتهم ، فاتجه بنو حمير إلى معاكسة المسيحيين الذين يقيمون بين ظهرانيهم ،وكان من أهم معاقل المسيحيين مدينة نجران فدخلها ذو نواس عنوة ونكل بأهلها ومثل بجثث القتلى ، وهذا ما حفز ملك الحبشة ، واسمه فى هذه المرة إل أصبحه[٢]، على القيام بحرب أخرى ضد بلاد اليمن للقضاء على هذا الملك اليهودى الثائر .

فظاهر من هذه الروايات أن هناك حربين حدثتا بعد تهود ملوك حمير ، إحداهما نشبت بين دميان الحميرى وأيدوج الحبشى ، والأخرى بين ذى نواس الحميرى وإل أصبحه الحبشى ، ولكن الباحثين ينكرون وجود حربين ويزعمون أن النصوص الموثوق بها لا تذكر إلا حربا واحدة حدثت بين إل أصبحه وذى نواس فى القرن السادس الميلادى ، ويعدون ما ذكره القدماء

---

(١) ذكره المؤرخون القدماء بأسماء مختلفة فمثلا أطلقوا عليه: Dunaan, Dunaas, phineas etc.

(٢) ويذكر القدماء هذا الاسم أيضا بصور مختلفة منها : Elletzbaas Ellesboas, Elesbaan, Kaleb, etc.

وقد حكم إل أصبحه هذا حول عام ٥٢٢ م . وقد تحقق الباحثون من أن كالب هو إل أصبحه نفسه وذلك مما عثر عليه من النقود التى ترجع الى عهده (Kammerer, 117.)

متعلقا بنشوب حرب بين خلطاً منهم فى الأسماء وسرد الحوادث ، ويزعمون أن دميانوس تحريف لاسم ذى نواس نفسه إلى غير ذلك من المزاعم. ولكننا نرى أن ما أوردوه من الأدلة لا يكفى لتدعيم ما يزعمون، فليس من اليسير أن يكون دميانوس أو دمنوس تحريفا لذى نواس ، كما أننا لا نستطيع أن نوجد الصلة بين إيدوج وإل أصبحة .أضف إلى ذلك أن الأستاذ فل Fell قد رجح فى بحث كتبه فى مجلة المستشرقين الألمان[1] أن إيدوج هذا هو الملك تازينا (أوإل عميدا) والد إل أصبحه، وأرجع تاريخه إلى حوالى ٤٨٠م. وفى رواية حبشية أن اضطهادا قد حدث بين النصارى واليهود فى بلاد اليمن فى زمن الملك شرحبيل يقف الذى عاش حول عام ٤٦٧م(٢). ثم إن الروايات السابقة قد دلتنا على أن الملك اليهودى دميان ، كان سابقا لذى نواس وأنه كانت بين دميان وذى نواس فترة تولى فى أثنائها على بلاد اليمن ملك نصرانى لم يعش طويلا ، فكأن ذانواس لم يل عرش حمير بعد دميان مباشرة . فاذا فرضنا أن الفترة التى كانت بين الملكين اليهوديين حوالى الأربعين عاما ، كان من المعقول أن يكون دميان معاصرا لإيدوج ومعاصرا

---

(١) ZDMG, 35, 1881.

(٢) راجع مقدمة اكسل موبرج لكتاب الحميريين .

لشرحبيل يقف. وإذا كان ذو نواس قد ولى العرش حول ٥٢٠م كما عرفنا من قبل فاننا نستطيع أن نحدد زمن الحرب الأولى بالتقريب حول ٤٨٠ م .

٣

تتلخص رواية ابن إسحق ، المؤرخ العربى ، مما نقله عنه ابن هشام والطبرى فى أن المسيحية فى بلاد اليمن دخلت على يد فيميون أو عبد الله بن الثامر وقد تلقاها عن رجل أجنبى . وكان آخر ملوك حمير ذو نواس الذى اعتنق مع شعبه دين اليهودية واتخذ عاصمته صنعاء . وحدث أن زحف على نجران بجيشه ليحمل أهلها على دين يهود ، ولكنهم رفضوا فعذبهم بأن حفر لهم أخدودا وملأها نارا وأحرق من أحرق وقتل بالسيف من قتل وكان عدد ضحاياه زهاء عشرين ألفا . وكان من بين القتلى عبد الله بن الثامر أو قتل قبلهم على رواية أخرى. وذهب دوس ذو ثعلبان إلى ملك الروم وقيل إن الذى ذهب هو حيان أو جبار بن فيض، واستنصره على ذى نواس . ولم تسمح طول الشقة أن يتدخل ملك الروم تدخلا مباشرا. فبعث مع الرجل العربى بتوصية إلى ملك الحبشة، فلبى النجاشى الدعوة، وأرسل جيشاً بقيادة أرياط، وكان فى الجيش أبرهة الأشرم ، وانتهت المعركة بهزيمة الحميريين

والقاء ذى نواس بنفسه فى البحر وهو راكب فرسه ، وحكم أرياط اليمن .

أما رواية ابن الكلبى، فانها تتلخص فى أن ذا نواس سار إلى نجران، وكان متعصبا لليهودية، ودخلها، وعذب أهلها بسبب تعذيبهم رجلا يهوديا يقال له دوس ذو ثعلبان . ففر رجل (لم يذكر ابن الكلبى اسمه) من نجران إلى ملك الحبشة مباشرة وطلب معونته ، وتلبث النجاشى فى الأمر، ثم قبل ، وكان ملك الروم قد أرسل سفنا تساعد النجاشى ، وأرسل النجاشى جيشا تحت لواء قائدين ، أحدهما أبرهة الأشرم . وانهزم بنو حمير وألقى ذو نواس بنفسه فى اليم، وتولى أبرهة الملك فى صنعاء .أما أرياط فقد ذكر المؤرخ أنه قد ظهر بعد ذلك .

ويلاحظ أن كثيرا من هذه الروايات العربية قريب من النصوص التى ذكرها كتاب أعمال القديس الحارث، ولعل وفاة الملك اليهودى هو الخبر الوحيد الذى يمكن إرجاعه إلى كتاب الحميريين[١]، على حين يذكر كتاب أعمال الحارث أن القائد الحبشى قد أخذ الملك اليهودى أسيرا ثم قتله . كذلك تجعل الرواية العربية عاصمة الحميريين صنعاء ، والمعروف فى التاريخ وفى سائر الكتب

---

(١) مقدمة أكسل موبرج لكتاب الحميريين . VIiii

الموثوق بها أن ظفار (ريدان) كانت هى العاصمة .

ويعتقد الاستاذ جويدى أن المؤرخين المسلمين قد تعودوا أن يستقوا الاخبار المسيحية والرومانية فى العصر الجاهلى من المصادر (السريانية ـ اليونانية) التى جاءت غالبا عن طريق السريان[١]. والرواية العربية تخلط أيضا حين تشير إلى بدء دخول المسيحية فى اليمن ، وفى هذا الخبر أيضا نجد أثر الأفكار السريانية ـ اليونانية مشوبة إلى حد كبير بالخيال والأساطير ، فمن المعلوم فى آداب الكنيسة السريانية أن تاجرا من نجران ، يقال له حيان ، كان أول من أدخل المسيحية فى هذه المدينة . فاذا قارناهذا بما ذكرته الرواية العربية من أن حيان رجل استنصر ملك الروم على ذى نواس نجد اسم حيان يمثل فى كل من الروايتين السريانيةوالعربية دورا خاصا ، ولكن هذا لاينفى تأثر العرب بالسريان فى هذه الرواية ، لأن من المعلوم أن أبطال الأساطير أو الأسماء البارزة فيها كثيرا ما يكونون عرضة لتبادل الأدوار ، وأقرب مثل لدينا دوس ذو ثعلبان ؛ فرواية تجعله رجلا مسيحيا هرب إلى ملك الروم يطلب مساعدته ؛ ورواية تجعله يهوديا يقتل أولاده على يد المسيحيين فيكون بذلك سببا لماحدث من اضطهاد .[٢]

---

(١) نفس المرجع .Xiii

(٢) مقدمة اكسل موبرج .XIV

ثم إن الرواية العربية تذكر أن الشهداء المسيحيين كانوا زهاء عشرين ألفاً . ولكن ترنيمة يوحنا تذكر أن عدد القتلى يربو على المائتين، وهذا معقول، وربما كان ذلك ، فى الوقت نفسه ، دليلا على صحة هذه الترنيمة ومعاصرتها للحادثة .[١] كذلك مما لا يتمشى مع المعقول ما تزعمه الرواية العربية من أن ذا نواس بعد هزيمته قد ألقى بنفسه فى البحر، فليس من اليسير تصور اجتياز ذى نواس تلك الطريق الطويلة التى تمتد من نجران الى الساحل ليلقى بنفسه فى البحر . وانما الراجح أنه أخذ أسيرا ثم قتل . أضف إلى ذلك أن الرواية العربية تذكر أن ذا نواس قد عذب أهل نجران بأن حفر لهم أخدودا وملأها نارا ، ولكن الروايات الأخرى لم تبين لنا أن التعذيب كان على هذه الصورة ، وربما كانت الرواية العربية متأثرة بما جاء فى تفسير قوله تعالى:(قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود . . الخ) سورة ٨٥ .وأرى أن نناقش ما ذكره المفسرون فى تفسير هذه الآيات معتمدين على تفسير ابن جرير الطبرى (٢٢٤ - ٣١٠هـ) الذى يعد من أقدم المفسرين ، لنعرف مدى العلاقة بين مدلول هذه السورة وبين قصة تعذيب المسيحيين فى نجران ، وما هو المقصود من السورة الكريمة .

---

(١) R.Bell, P. 38.

يروى الطبرى تفسيرات شتى لهذه السورة : أحدها أن السورة تشير إلى قصة الحميريين وشهداء نجران ، نقله عن قتادة عن على بن أبى طالب ، وفيه يقول (إن أصحاب الأخدود هم ناس بمذارع اليمن اقتتل مؤمنوها وكفارها فظهر مؤمنوها على كفارها) . وروى مجاهد مثل هذا التفسير ولكنه كان أشد إيجازاً، فلم يزد على أن قال (إن الأخدود شقوق فى الأرض بنجران كانوا يعذبون فيها الناس) . وهذا كما يظهر ليس بالكلام الصريح الذى يفيدنا فى أمر هذه القصة ، فقد سكتت الرواية عن ذكر ذى نواس وأمر نصارى نجران معه فلم توضح لنا من هم هؤلاء المؤمنون والكفار الذين اقتتلوا ، ومن هم هؤلاء الناس الذين عذبوا فى أخاديد نجران، ويرجح الاستاذ لوث[1] أن السورة لا تشير الى هذه القصة . وان ما رواه قتادة إنما هو من عنده ، استقاه من بعض نصارى نجران الذين أمرهم عمر أن يهاجروا الى العراق عام ١٣هـ ،ولاسيما إذا عرفنا أن قتادة (٦٠ -١١٧ هـ) عالم عراقى نشأ فى البصرة ، وعاش قريبا من المنطقة التى رحل اليها هؤلاء النجرانيون بعد نصف قرن من مولد قتادة . فلما جاء ابن اسحق فى القرن الثانى الهجرى ، وذكر تفصيل هذه القصة ، رأينا المفسرين بعد ذلك، وقد عرفوا تفاصيل

---

(١) ZDMG, vol. 35, 1881, pp. 619, 48, 63.

القصة من ابن اسحق وغيره ، يوضحون ما أوجزت رواية قتادة ، بل وجدنا أحاديث تنسب الى النبي، يرويها الترمذى ومسلم، تشير إلى قصة أهل نجران ومانزل فيهم من القرآن، على حين لم يذكر الطبرى عن النبي حديثا واحداً يثبت الصلة بين قصة أهل نجران والسورة الـكريمة . ويعجبنى ياقوت (+ ٦٢٦ ﻫ) فى تعليقه على ما روى عن ابن اسحق والترمذى ومسلم فى هـذا الصدد بقوله : (خبر الترمذى ومسلم أعجب إلى من خبر ابن إسحق ، لأن فى خبر ابن اسحق أن الذى قتـل النصارى ذو نواس وكان يهوديا صحيح الدين . . . ودين عيسى انما جاء مؤيدا ومسددا للعمل بالتوراة ، فيـكون القاتل والمقتول من أهل التوحيد ، والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود ، فبعد إذاً ماذكره ابن اسحق . وليس لقائل أن يقول إن ذا نواس بدل أو غير دين موسى عليه السلام لأن الأخبار غير شاهدة بصحة ذلك . وأما خبر الترمذى أن الملك كان كافرا وأصحاب الأخدود مؤمنين فصح إذا والله أعلم)[١]

لهذا ـ كما ترى ـ نستبعد هذا الرأى و ننظر فى غيره من الأقوال :

ب ـ رواية أخرى يرويها صهيب عن النبي (ص) تتلخص فى أن بعض الملوك قد عذب المؤمنين بالله من قومه بأن خدلهم

---

(١) معجم البلدان لياقوت ﺣ ٧ ص ٢٦٢

أخدودا وملأها نارا فمن لم يرجع عن دينه طرحه فيها وهى قصة لم يصرح فيها باسم ولازمان ولامكان . ويرى الاستاذ لوث أن هذه الرواية ، وهى التى تنسب الى النبى (ص) من بين ما رواه الطبرى فى تفسير هذه السورة ، تعبر لنا عن مضمون قصة استشهاد جرجيس Saint George . والعرب يعرفون هذه القصة من قديم وقد أشار الطبرى إليها وذكر أخبارا منها فى الجزء الأول من تاريخه ص ٧٩٥ وهى سريانية الأصل .

جـ - ورواية ثالثة ذكرها ابن عباس ترى أن السورة تشير الى رجال دانيال الذين عذبوا فى أتون متقد ، ويرى الاستاذ جيجر Geiger أن هناك تشابها بين العبارات التى وردت فى قصة تعذيب أصحاب دانيال فى التوراة وما ورد فى هذه السورة القرآنية . فكما نجد فى السفر (فى الاصحاح الثالث) عبارة (أتون نورا ياقدتا) أى أتون النار المتقدة ، ولفظ قطل أى قتل مستعملا بمعنى الإحراق (فى الآية ٢٢ الاصحاح الثالث) ، فكذلك نجد القرآن يعبر عن أتون النار المتقدة بقوله (الأخدود النار ذات الوقود) ويعبر عن الإحراق بقوله (قتل أصحاب الأخدود).

وسواء أكان المقصود من هذه السورة قصة جرجيس أو قصة أصحاب دانيال فمن الراجح أن تكون القصة قد عرفها العرب عن طريق الحبشة - اليمن وربما كان دليلنا فى ذلك كلمة

أخدود ، فسنرى فيما بعد أنها ليست عربية الأصل وإنما دخلت إلى العرب عن طريق اليمن أو الحبشة . وربما كان صدور هذه القصة من هذه الجهة قد جعل المفسرين والرواة يظنون أن حوادث القصة قد وقعت فى بلاد اليمن . ومن الروايات التى نجدها فى كتب التفاسير المتأخرة ما يزعم أن القصة وقعت حوادثها فى الحبشة (١) . وربما ساعد على هذا التصور تشابه هذه القصص ، واشتراكها فى مسألة تعذيب المؤمنين واستشهادهم فى سبيل عقيدتهم .

٤

وصلت بعثة من اليمن إلى المنذر الثالث ملك الحيرة تنبىء بما صنعه ملك اليمن الجديد من تعذيب المسيحيين والتمثيل بهم . وكان الغرض من هذه البعثة إغراء المنذر لتقديم معونة الى المسيحيين فى اليمن . والمنذر هو ممثل الفرس الذين كانوا يناصرون اليهود ويمكنون لهم فى بلاد اليمن ، لهذا كان طبيعيا أن يرفض مطالب البعثة . وعرفت الدولة الرومانية خبر ذى نواس من خطاب أرسله الاسقف سمعان إلى ملك الروم يستحثه ويستعطفه ، كما عرف الخبر من دوس

---

(١) الحبشان ص ٩٤

ذى ثعلبان ، هذا النصرانى الذى ذكرت الرواية العربية أنه فر من نجران إلى القسطنطينية وطير الخبر الى الأمبراطور لاجئا اليه مستعينا به . ويقال إن الأمر الذى زاد فى تحمس ملكى الروم والحبشة ، وأكد عزمهما على قتال ذى نواس ، هو مابلغهما من تعذيبه الحارث النصرانى ، زعيم النجرانيين ، وكان عظيما فى قومه ، وقورا ، قد بلغ من العمر أرذله ، ولم يمنع ذا نواس كبر سنه ومركزه فى قومه من تعذيبه وتعذيب زوجته وبناته .

وحول سنة ٥٢٣ م انزل النجاشى جنوده فى البحر استعدادا لقتال حمير ، وساعده الرومان بأسطول بحرى ، وعلى شاطىء ميناء جبزة (قرب عدول) رابط عشرون ألف جندى من رجال إل أصبحه ، واحتلت قوة من عشرة آلاف رجل أرضا على ساحل مهجور من بلاد العرب (وربما كان فى منطقة موزا ـ مخا الحالية ـ) وتقدموا سريعا نحو نجران ، وانتهت المعركة بهزيمة ذى نواس وسقطت ظفار عاصمة ملكه وقتله الأحباش .

واذا كان الأحباش قد أفلحوا فى قمع الثورة الدينية التى كانت متأججة بين اليهود والنصارى فى اليمن بقتل ذى نواس ، وتدعيم المسيحية ، والقضاء على آثار الحكم اليهودى فى اليمن ، إلا أن ثورات من نوع آخر قد بدأت تندلع بعد فراغ الأحباش من هذه الحرب ، ذلك أن الاحباش قد أتاحوا للنفوذ الرومانى أن يقوى

ويشتد فى اليمن باستيلائهم عليها ، وهذا مالم يرضه الفرس الذين عملوا جادين على بث روح الحرية وتنميتها فى نفوس السكان المواطنين . ولقد أفلحوا فى خلق شعور النفور من الاحباش المستعمرين فى نفوس أهل اليمن ، ولا أدل على ذلك مما وجده الهمدانى منقوشاً على بعض الجدران فى بلادحمير « لمن ملك ذمار؟ لحمير الأخيار ، لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار ، لمن ملك ذمار؟ لفارس الأحرار ، لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار .[١] »

ثم لم يلبث أن دب الخلاف بين أحباش اليمن وأحباش أفريقية وأراد الأولون أن ينتزعوا الحكم ويستقلوا عن سادتهم فى أفريقية وكان على رأس الثائرين أبرهة الأشرم ، ولكن ملك أكسوم يريد أن تظل اليمن ولاية تابعة لدولته ويولى عليها من يدين له بالولاء . وقامت ثورة الأمراء الوطنيين فى ذلك الحين وعلى رأسهم سميفع أشوع يريدون أن ينتزعوا السلطة من أيدى الغاصبين ويطردوهم من بلادهم .

والمؤرخون الرومان يعرفون السميفيع هذا ويسمونه إسيميفايوس ويذكرون أنه كان مسيحيا تولى أمر الحميريين بعد غزوة إل أصبحه ، ولكن مدة حكمه لم تطل فقد ثاروا عليه ،

---

(١) الاكليل للهمداني نشر نبيه فارس ص ١٥٦

وخلعوه ، وأرسل ملك الحبشة جنوداً لإخضاعهم ، فانضم الجنود إلى العصاة . فلما يئس الملك من إذلالهم قنـع بعقد الصـلح بينه وبينهم . والنقوش تؤيد ماذكره الرومان ، فقد عثر على نقش فى حصن الغراب بحضرموت يرجع تاريخه إلى ٥٢٥ م يقـول إن سميفع أشوع وولديه : شرحبيل يكمل ومعديكرب بن يعفر . . . كتبوا هذه الوثيقة : فى حصن مويت (حصن الغراب) حين رمموا أسواره ، وبابه ، وصهاريجه ، ودروبه فى الجبال ، وتحصنوا فيه لما تقهقروا من أرض الحبشة ، وأرسل الأحباش حملة بأرض حمير ، عند ماقتلوا ملك حمير وأقياله الحميريين والأرحبيين (١) .

وربما يدلنا هذا النقش على أن الأحباش كانوا قد ولوا من قبلهم حاكما على حمير ، فحاربه السميفع وبعض أمراء اليمن ، وربما قتلوه ، واستولوا على ملك حمير ، فأرسل ملك الحبشة حملة اليهم فأفلحت فى إخضاعهم ، وهرب السميفع وحاشيته من وجه الأحباش وتحصنوا فى الجبال . ولا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق من هذا القائد الذى كان قد ولاه الأحباش على حمير ثم قتل ، وربما

---

(١) Repretoire d'epigraphie Semitique, tome, 5, Inscr. No, 2633

كان هو أرياط [١] الذى كان قائدا فى حملة إل أصبحه .والظاهر أن ثورة السميفع وسائر الأمراء لم تقمع نهائيا فى عام ٥٢٥ م الذى كتب فيه هذا النقش، بل ظلت بعد ذلك فترة من الوقت ، فلقد ذكر النقش أنهم تحصنوا فى الجبال ، وأن ملك الحبشة أرسل اليهم جيشا لمحاربتهم ، ولم يذكر لنا نتيجة هذه الحرب ، والظاهر أن أبرهة [٢] كان فى هذا الجيش الذى طارد السمفيع وأمراء حمير، وربما وجد الفرصة سانحة ، بعد أن قمع الثورة وهزم السميفع، أن يعلن نفسه حا كما على حمير (ربما حول عام ٥٣٠ م). ويقص لنا أبرهة فى بعض نقوشه أنه تابع للملك الحبشى رحيس أو رماحس الذى باليمن (زبيمان) وذلك فى عام ٥٤٢ أو ٥٤٣ م وربما كان رحيس هذا لقبا للملك بيت إسرائيل بن إل أصبحه الذى تولى بعد أبيه حكم البلاد وربما كان هو الذى اعترف بأبرهة الأشرم ملكا على اليمن وأقر بمطالبه فيها [١] .

---

(١) أرياط نقل محرف للكلمة الحبشية حواريات أى الحوارى، والطبرى (ج ١ ص ٩١٣) يذكر اسمه (أرياط أبا صحم) فيكون معنى اسمه الحوارى اباصحم ، والحوارى عندهم كلمة تدل على القداسة والتدين .

(٢) الغالب ان ابرهة هذا كان من رجال الدين المسيحى فى الحبشة ، والعرب تسميه الاشرم ، وبروكوبيوس يسميه ابراموس ، وهو بلغة الاحباش أبراهام.

(١) Budge, vol. 1 p, 264 — 5.

وقيل ان بيت إسرائيل هذا قد حكم بنفسه بلاد اليمن وأقام فيها، ومن ثم ذكر النقش كلمة زبيمان أى الذى باليمن . ثم تولى بعد بيت إسرائيل أخوه الأصغر جبر مسقل (أى عبد الصليب) على عرش أكسوم حول ٥٥٠ م وقيل بين ٥٧٠ ، ٥٨٠م [١].

وكان أبرهة مسيحيا وقد بدأ بعض نقوشه بقوله : « بقدرة الرحمن ومعونته ورحمته وبمسيحه وبالروح القدس » [٢] وروى أنه بنى كنيسة صنعاء وأنه قدس من فى الكنيسة قبل البدء بترميم سد مأرب .

وكان أبرهة يصبو الى استقلال اليمن وانفصاله عن دولة أكسوم لهذا كان يغتنم الفرص للتألب على النجاشى ؛ فثار فى أيام إل أصبحه ولكنه أرغم على دفع الجزية والخضوع للدولة الأكسومية . فلما تولى الملك الجديد (بيت إسرائيل) ثار مرة أخرى، وأفلح فى أن يعترف له الملك بسيادته على اليمن، وأن تكون تبعيته لدولة أكسوم اسمية فحسب . وفى بعض نقوش سد مأرب يلقب أبرهة نفسه بالأمير التابع للملك الحبشة. ملك سبأ ، وريدان، وحضرموت ، ويمنات ، وعرب النجاد وعرب تهامة .

---

(١) Id, p. 265.

(٢) Handbueh der Altarab. Altertum, Kopenagen, 1927 p. 103

وقد وصف العرب كنيسة صنعاء التى تسمى (القليس) [١] وذكروا أن الذى بناها أبرهة ، ويلوح أنه بالغ فى بنائها وزخرفتها حتى تكون قبلة العرب ومتوجه أنظارهم ، وحتى يكون لها أبلغ أثر فى نفوسهم ، قال المؤرخون العرب فى وصفها (ويدخل من باب الكنيسة الى بيت طوله ثمانون ذراعا، وعرضه أربعون ذراعا، مسقف بالساج المنقوش، مسمر بمسامير الذهب والفضة ، وفى صدر القبة منبر من الآبنوس المرصع بالعاج، المصفح بالذهب والفضة . .)

ورمم أبرهة سد مأرب عام ٥٤٢ م وكان قد تهدم قبل ذلك أكثر من مرة ، وفى هذه المرة بعث أبرهة الى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والأخشاب ورصاص الصب لترميم السد ، وقد نبشت الأنقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه . وقد قدم احتفال ترميمه وفود من الروم والفرس كما حضر المنذر ، ملك الحيرة ، والحارث بن جبلة ، وأبو كرب ابن جبلة .

ونظر أبرهة فوجد ولايات الجنوب التابعة له تحتاج الى

---

(١) كلمة مشتقة من اللفظ اليوناني Ekklesia ومعناه الاجتماع العام أو الكنيسة.

إدارة حازمة وتنظيم يكفل لها الأمن والسلام ، ولاسيما بعد تلك الثورات الداخلية التي اشتعلت في هذه البلاد فترة من الزمن .فولى يزيد بن كبشة أمر القيادة والإدارة على كندة بدلا من ولاتها السابقين ، وأسند اليه إمارة الولايات الأخرى وقيادتها بمساعدة بعض أقيال سبأ الأسحار (أو الأساحر) وهم مرة وثمامة وحنش ومرثد وحنيف ذو خليل ، كما استعان يزيد ببني أزأن (يزأن) الأقيال، وهم معديكرب بن سميفع وهعان وأخوته بنوسلم ، لكي يعينوه في إرسال بعض العصاة اليه الذين كانوا لايزالون في طاعة ملك المشرق ، فأرسلوا اليه جاروه ذا زنبار، وقتلوه ، وهدموا قلعة كدار، وجمع يزيد من أطاعه من كندة وحارب حضرموت، وأسر مازن هجن الأذمرى أحد زعماء حضرموت ، وحاصر عبران ، وهناك استغاثت جموع كبيرة بيزيد وأعوانه فانبروا لاغاثتهم ، وجمعوا هناك جيوشا كثيرة العدد من الأحباش والحميريين عام ٥٤١ م وتقدمت الجيوش شمالا من صروح الى نابط التي توجد في عبران وهناك سلم له قائد جيوش الأعداء .

وظل يزيد يخضع العصاة في سبأ ويرسل من يؤدب العرب الذين لم يذعنوا له ويأخذ منهم الرهائن حتى تمت له الغلبة ، واستتب له الأمر ، ورجع أبرهة الى مدينة مأرب بعد أن رمم السد في موكب

من الآقيال الذين كانوا فى سلم معه ، وهم ذومعاهر ابن الملك ومر جزف أمير ذرانح وعادل أمير فياش وذو شولمان وذو شعبان وذو رعن وذو همدان وغيرهم [١] . .

وسعى الروم الى ايجاد وحدة بين القبائل العربية لتقف جبهة واحدة فى وجه الفرس ، فتضافرت القبائل المعدية مع بنى حمير ، وجردوا حملة كبيرة على أرض فارس .

ويظهر أن الروم كانوا قد طلبوا إلى أبرهة أن يعمل على مساعدتهم فى هذا السبيل . ويذكر بروكوبيوس أيضا أن أبراموس (أبرهة) عند ما بسط نفوذه ، وأمن ملكه ، وعد الامبراطور جستينان أن يغزو الفرس ، وقد بدأ غزوه بالفعل ، ولكنه قفل راجعا فى الحال . وربما مهدت هذه الحملة السبيل إلى حملة أخرى قام بها لغزو مكة ، وهى التى يسميها العرب غزوة الفيل . والظاهر أن نية أبرهة فى غزو مكة كانت متجهة إلى بسط نفوذه على بلاد العرب ، وصرف العرب عن الوثنية وزيارة الكعبة

---

(١) هذا مضمون ما ذكر فى نقش أبرهة الذى ورد فى كتاب
Conti Rossini, Chrestomathia, Glaser, 618 — CIH 541 — Conti Rossini 64 (Roma ,1931.)

إلى كعبة نجران وإلى كنيسة صنعاء . ويروى العرب أن أبرهة أراد بغزوته غسل الإهانة التى تعرضت لها كنيسته من جراء ما صنعه نفيل الخثعمى الوثنى من أنه جاء بعذرة فلطخ بها قبلة كنيسته ، وجمع جيفا فألقاها فيها .[١] تقول الرواية العربية (فلما حل أبرهة على باب الكعبة، أتاها عبد المطلب،وقدتهيأ أبرهة للدخول ، وهيأ جيشه ، وهيأ فيله ، وكان فيلا لم ير مثله فى العظم والقوة) وأقبل نفيل الخثعمى[٢] إلى الفيل ثم أخذ بأذنه وقال له : أبرك محمود ، وارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك ببلد الله الحرام ، فبرك الفيل ، وأصيب جيش أبرهة بأن أرسل الله عليهم طيراً من البحر . . . ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا) . وحدث أن أصاب الحبش إبلا لعبد المطلب ، فأغضبه ذلك ، فقال لأبرهة : (أردد على أبلى ودونك البيت فإن له ربا يحميه)[٣]

---

(١) الطبرى حـ ١ ص ٩٤٤

(٢) تحتاج قبيلة خثعم إلى دراسة خاصة من حيث علاقتها بالحبشه ، اذ أن اسمها كثيرا مايقترن بالحبشة في الاثار والاخبار التى ذكرها المؤرخون العرب .

(٣) الطبرى حـ ١ ص ٩٣٢ ـ ٩٤٥ .

على أن أبرهة قد فشل فى هذه الحملة ، وكاد يهلك هو وجيشه مما لقيه من وعورة المسالك ، وتفشى الأمراض التى وصفها المؤرخون بقولهم : (إن أول مارؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام) [١].

والعرب يضعون هذه الغزوة فى عام ٥٧٠ م ، ويسمونه عام الفيل ، والراجح عندهم أنها السنة التى ولد فيها النبى (ص) ، ولكن الباحثين يرجعون تاريخها الى حوالى ٥٤٠ م ، كما يرجعون استيلاء الفرس على بلاد اليمن إلى عام ٥٧٠ م . فيدعون بذلك ما بين الفترة ٥٤٠ ، ٥٧٠ م لحكم يكسوم ومسروق الحبشيين اللذين حكما بعد أبرهة . والعرب أنفسهم لا يجزمون بأن عام الفيل هو عام مولد النبى (ص) ، فقد قيل إن هذا العام كان قبل مولد النبى بأربعين عاما ، وقيل بثلاث وعشرين عاما .

على أن بعض الباحثين ، كونتى روسينى ، لم يقبل ما ذكرته الرواية العربية فى غزوة الفيل [٢] ، فزعم أن القصة قد خلطت أو أدرجت غزوة أبرهة بغزوة أخرى قبلها ، هى غزوة أفثيل (أفيلاس) فى نهاية القرن الثالث الميلادى ، تلك التى تحدثنا عنها فيما سبق .

---

(١) الطبرى ج ١ ص ٩٤٥ .

(٢) J. A. Juill-Sept, 1921

وقد حاول كونتي روسيني إثبات هذه النظرية بقوله إن أول من ذكر غزوة الفيل من المؤرخين هو ابن إسحق (ت ١٥١ هـ) أى بعد حدوثها بحوالى قرنين ، فلاشك أن عوامل الزمن والنقل الشفوى وخيال المؤرخين قد أثرت إلى حد كبير فى تشويه حقيقة هذه القصة . ورأى هذا الباحث أن استخدام الفيلة فى حملة تجوب المسالك الوعرة ، وتقطع الفيافى المترامية ، فى قلب الجزيرة العربية ليس بالأمر السهل ولا المقبول عقلا ، ورجح أن تكون غزوة الملك أفثيل لبلاد العرب قد تنقلت بين أفواه العرب ، ووصلت إلى الحجازيين بعد قرنين من الزمان بعيدة عن حقيقتها ، وانقطعت العلاقة بين اسم الملك ومسماه ، وصار لقربه من لفظ الفيل علما على الحيوان المعروف ، وسمى هذا الحيوان باسم انسان ، فسمى محمودا ، ولعب الخيال فى أذهان الرواة ، فاندمجت هذه القصة القديمة فى قصة أبرهة التى هى أحدث عهدا منها ، والتى حدثت بعدها بثلاثة قرون ، وجعل الفيل هذا مطية لأبرهة فى هذه الغزوة .

ولعل الذى قرب هذا التصور إلى ذهن الباحث ما رآه من الروح الأسطورية فى سرد القصة العربية . وشك المؤرخين العرب فى عدد الفيلة ، هل كانت واحدا أم أكثر ، فقد زعموا أنه كان مع أصحاب الفيلة فيل واحد ، وقيل كانوا فيلة ثمانية ، وقيل

اثنى عشر فيلا ، وإنما ذكره الله [١] موحدا لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم الذى كان يقال له محمود ، وقيل إنما وحده لوفاق الآى [٢].
ثم إن ما ورد فى القرآن لا يدلنا صراحة على أن الفيل هذا هو الحيوان المعروف، بل ربما قصد بقوله (أصحاب الفيل) أصحاب الملك الذى كان يسمى الفيل .

هذا رأى كونتى روسينى ، وهو وإن كان لا يخلو من طرافة إلا أنه لا يخلو من تخيل أيضا . وعلى كل فنحن لا ننكر أن فى الرواية العربية روح الأسطورة ، ولكن نخشى أن يكون الخيال قد لعب بذهن الباحث الإيطالى كما لعب فى الرواية العربية .

٥

وانتهى حكم أبرهة حوالى (٥٤٤م) وتولى بعده ولده يكسوم ، وقد حكم تسعة عشر عاما ، ثم خلفه مسروق أخوه ، وحكم اثنى عشر عاما ولكن عصر الأول كان غامضا لم تصلنا منه أخبار ذات غناء . وفى عصر الثانى بلغ ضيق حمير بالأحباش مبلغه ، ووجد الفرس الفرصة سانحة لغزو اليمن .

---

(١) أى فى قوله تعالى فى سورة الفيل : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الخ ...
(٢) تفسير الخازن ج ٤ ص ٥٣٨

وكان سيف بن ذى يزن ممن لعبوا دوراً هاما فى هذه الآونة ، وهو رجل من أذواء حمير من أسرة عريقة فى اليمن ، سمعنا عن بعض أفرادها منذ عهد ذى نواس[١]. وأبرهة الأشرم. وكان للأسرة اتجاه سياسى واحد ، هو التمسك باستقلال اليمن وانفصالها عن السلطان الأجنبى .

تقول الرواية العربية إن ذايزن كان يسمى أبا مرة الفياض ، وكان أحد أشراف اليمن فى عهد أبرهة الأشرم ، وكان تحته ريحانة ابنة ذى جدن . فولدت له غلاما سماه معديكرب ، وكانت ذات جمال، فانتزعها الأشرم من أبى مرة ، وتزوجها ، وولدت له غلاما سماه مسروقا ، ونشأ معد يكرب بن ذى يزن مع أمه ريحانة فى حجر أبرهة .

وعرف الفتى معديكرب ، بعد حين ، أنه ليس ابنا لابرهة الذى مات هو وابنه يكسوم ، فخرج ابن[٢] ذى يزن قاصدا إلى ملك الروم فلم يجد عنده مايحب ووجده يحامى على الحبشة لموافقتهم إياه على الدين[٣] .

---

(١) مقدمة أكسل موبرج لكتاب الحميريين .

(٢) يقول ابن اسحق إن الذى خرج يستنصر ملكى الروم والفرس هو سيف بن ذى يزن ، ولكن ابن الكلبي يزعم أن الذى خرج هو معديكرب ابن ذى يزن (طبرى حـ ١ ص ٩٤٥) .

(٣) طبرى حـ ١ ص ٩٥٢ .

فلجأ إلى كسرى . وأقنعه . فأرسل معه قوة من الجيش بقيادة وهرز ، وركبوا البحر فى ثمانى سفائن ، فخرجوا بساحل حضرموت وسار إليهم مسروق فى مائة ألف من الحبشة وحمير والأعراب . ولحق بابن ذى يزن بشر كثير . ونزل وهرز على سيف البحر ، وجعل البحر وراء ظهره . وقاتل الحبشة . وكان ملكهم راكبا فيله ، عاقدا تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ، ثم ظل يتنقل على فرسه ، ثم على بغلته ، فأوتر وهرز قوسه ، ثم أمر بحاجبيه فعصبا له ، ثم وضع فى قوسه نشابة فغط فيها ، حتى إذا ملأها أرسلها فصك بها الياقوتة التى بين عينيه . فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه . وتنكس عن دابته . واستدارت الحبشة ، ولاثت به . وحملت عليهم الفرس ، وانهزمت الحبشة ، فقتلوا ، وهرب شريدهم فى كل وجه .

فلما ملك وهرز على اليمن ، ونفى عنها الحبشة . كتب إلى كسرى بذلك . قال ابن إسحق : « فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها . وفرض كسرى على سيف جزية وخرجا يؤديه إليه فى كل عام معلوم ، وكتب إلى وهرز أن ينصرف إليه [١] » .

---

(١) طبرى ﺣ ١ ص ٩٥٠ .

« فلما انصرف وهرز إلى كسرى ، وملك سيف على اليمن ، عدا على الحبشة فجعل يقتلها ويبقر النساء عما فى بطونها ، حتى إذا أفناها إلا بقايا ذليلة قليلة ، اتخذهم خولا ، واتخذ منهم جمازين يسعون بين يديه بحرابهم ، فمكث بذلك وقتا قصيرا » .

« ثم إنه خرج يوما والحبشة تسعى بين يديه بحرابهم حتى إذا كان فى وسط منهم . وجئوه بالحراب حتى قتلوه ، ووثب بهم رجل من الحبشة فقتل باليمن وأوعث وأفسد . فلما بلغ ذلك كسرى ، بعث إليهم وهرز فى أربعة آلاف من الفرس وأمره ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله صغيرا أو كبيرا ، ولا يدع رجلا جعدا قططا قد شرك فيه السودان إلا قتله ، فأقبل وهرز حتى دخل اليمن ففعل ذلك لم يترك بها حبشيا إلا قتله[1] » .

وهكذا تمكن الفرس وبنو حمير من طرد الحبشة المستعمرين وطغى الساسانيون على الشرق ، واستمر الفرس بعد قتال اليمن فى غزو سواحل البحر حتى خضعت تحت سلطتهم .

أما دولة أكسوم فى الفترة ما بين ٥٧٠ ، ٦٣٠م فتاريخها مثار خلاف بين الباحثين ، فالعرب يتحدثون عن ملكين من ملوك الحبشة أحدهما كان سابقا لعصر النبى (ص) ويسمونه أبحر ، والآخر

---

(١) طبرى حـ ١ ص ٩٥٧ — ٩٥٨ .

عاصر النبي، وكان بينه و بين المسلمين علاقة ودية، ويسمونه أصحمة[١]
والعرب يقولون إن الحبش قتلوا أبحر وولوا أخاه الذى هو عم أصحمة . وأبعدوا أصحمة عن الحبشة حتى يأمنوا جانبه فلا يطالب بحقه فى العرش ، فأتوا به إلى بلاد العرب ، وباعوه لرجل عربى من بنى ضمرة . وظل أصحمة فى بلاد العرب ، يرعى الغنم لسيده حتى مات النجاشى عمه ، وبحثوا عمن يخلفه ، فلم يجدوا من يصلح من بعده غير الفتى الطريد ، فبحثوا عنه، وأحضروه، وملكوه عليهم[١] إلى أن توفى فى السنة التاسعة من هجرة النبى عليه السلام .

أما الباحثون المحدثون فيرجحون أن الملك الحبشى المعاصر للنبي (ص) هو أرماح الثانى[٣] (أو أرمحة) وترجع إلى عهده قطع من النقود النحاسية ، نقش على بعضها .

(نجوش أرماح ، فشحا ليكون لأحزاب) .

ومعناه : الملك أرماح ، ليسعد شعبه .

---

(١) ويروى اسمه برسوم مختلفة : أصحمة ، وأصمحة ، وصحمة ، وأصبحة ، وأصخمة ، والصحيح عندهم هو النطق الاول .

(٢) الحبشان ص ١٥٨ — ١٦٢ .

(٣) Budge, vol.1, pp.137, 270, 271 . وقيل ان الملك المعاصر كان يسمى مليخ الثاني وقيل غير ذلك .

وعلى بعضها الآخر :

(نجوش أرماح ، شهل وسلام) .

ومعناه : الملك أرماح ، رحمة وسلاما .

وليس من اليسير التوفيق بين أصحمة الذى عرفه المسلمون وأرماح (أو أرمحة) الذى يذكره المحدثون . ولا يبعد أن يكون أصحمة هذا ملكا على أقليم من الأقاليم الحبشية .

وقد سئل أحد علماء الأحباش فى العصر الحديث عن أصحمة هذا فأجاب بأنه كان حاكمافى أقليم يقع فى جوار مايسمونه الآن (تيحكى دنسا) [1]

---

(١) رحلة صادق باشا ص ١٨٦

الباب الثالث

١

تساءل كثير من الباحثين لماذا كانت الحبشة وجهة المسلمين حين ضاقت بهم سبل الحياة بين قومهم . والواقع أن النبي (ص) لم يأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة إلا بعد تفكير طويل ، ووفق سياسة محكمة .

كان لميناء عدول - كما رأينا - الفضل الأول فى تسهيل سبل التجارة بين مكة وبلاد الحبشة، « فقد كانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجراً حسنا[١] »، فلم تكن الحبشة إذن بلدا غريبا على قريش ، ولاشك ، من جهة أخرى، أنه كان قد ترامى الى المسلمين أن الأحباش قد قاموا بحماية المسيحية فى اليمن من عدوان اليهود ، وأنهم جردوا حملة للقضاء على الوثنية فى الحجاز . لهذا آثر المسلمون اللجوء إلى بلاد الحبشة لعل الأحباش يستطيعون أن يقوموا بحمايتهم من عبدة الأوثان ومن اليهود كما حموا المسيحية وجردوا على الوثنية حملة من قبل.

---

(١) الطبرى حـ ١ ص ١١٨١ .

هذه كلها أسباب دفعت النبي (ص)، حين لاقى قومه فى مكة العنت، إلى التفكير فى هجرة أتباعه الى بلاد الحبشة، على أنه ليس من المعقول أن تكون فكرة الهجرة قد تمت دون أن يمهد المسلمون لهجرتهم فى بلاد الحبشة، وأن يتعرفوا نية القوم الذين سيهاجرون اليهم، ذلك أن ما أضمره المسلمون نحو الاحباش من حسن الظن، والاعتقاد بانهم سيلقون منهم فى هذه البلاد النائية وسيفسح الأحباش لهم صدورهم، لم يكن كافيا - فيما أعتقد - لأن يلقى أتباع النبي (ص) بأنفسهم، وكلهم ذوو نظر ثاقب، فى بلاد بعيدة نازحة، محفوفة بالأخطار، دين أصحابها يخالف دينهم، وطباعهم تخالف طباعهم، قوم جبلوا على النضال، وأولعوا بسفك الدماء.

وهذا ما أغفل الباحثون التنبيه عليه، والإشارة اليه، وفيما يلى سنناقش ماقاله المؤرخون العرب عن هذه الهجرة، ونخلص منها إلى مايفسر لنا ما قام به المسلمون من خطى لتحقيق فكرة الهجرة.

قال المؤرخون إن الهجرة إلى الحبشة كانت دفعتين: ففى الدفعة الأولى كانوا أحد عشر أو اثنى عشر شخصا وأربع نسوة أو خمساً، خرجوا خفية فى شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة فوصلوا الى ساحل البحر حيث ركبوا سفينتين من سفن التجار الى أرض الحبشة. وما كادوا يستقرون فى تلك البلاد حتى أشيع بينهم أن كفار قريش

فى مكة قد آمنوا بالنبى (ص)، فعاد المهاجرون ثانية الى مكة فى شوال من نفس السنة . فكأنهم لم يمكثوا فى الحبشة إلا شهرين أو ثلاثة ، ثم قفلوا راجعين الى مكة .

قالوا : وفى هذه السنة ذاتها بدأت هجرة ثانية إلى بلاد الحبشة ، هاجر فيها عدد كبير من الصحابة . وكان فيهم معظم من كان قدم من الهجرة الأولى وجماعة ممن شهدوا بدرا (وقد حدثت غزوة بدر فى السنة الثانية لهجرة النبى إلى المدينة) .

ولكن المؤرخين يذكرون أن أصحاب الهجرة الثانية قد قدموا جميعا عام افتتاح خيبر أى فى السنة السابعة للهجرة . فكيف يكون من المهاجرين من شهدوا بدرا على حين لم يقدموا من الحبشة إلا بعد وقوع غزوة بدر بخمسة أعوام . وقد نبه ابن القيم الجوزية على هذا الخلط فقال (فاما أن يكون هذا وهما وإما أن تكون لهم قدمة أخرى قبل بدر فيكون لهم ثلاث قدمات : قدمة قبل الهجرة وقدمة قبل بدر وقدمة عام خيبر [١]) .

وبينما نجدهم يجعلون الهجرة دفعتين ، نراهم يذكرون أن المهاجرين لم يهاجروا جميعا من مكة بل إن منهم فوجاً قد هاجروا من اليمن برئاسة أبى موسى الأشعرى ، قال أبو موسى « بلغنا مخرج

---

(١) زاد المعاد حـ ٢ ص ٤٥ (طبعة ١٩٢٨م) .

النبي (ص)، ونحن باليمن، فخرجت مهاجرا، أنا وأخوان لي. أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، في بضع وخمسين رجلا من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا إلى أرض النجاشي، فاجتمعنا بجعفر بن أبي طالب ومن معه من الصحابة بها (وكان جعفر ممن هاجر، على زعمهم، في الهجرة الثانية) فأقمنا معهم حتى قدمنا جميعا عليه (ص) عام افتتاح خيبر». ويختلف العلماء في معنى قول أبي موسى (بلغنا مخرج النبي (ص) ونحن باليمن) هل يريد مبعث النبي أم خروجه إلى المدينة. ويجمع ابن حجر بين المعنيين بقوله (ويمكن الجمع بأن أبا موسى قد هاجر أولا الى مكة فأسلم وبقي بها الى أن أذن رسول الله (ص) لأصحابه في الهجرة الثانية الى أرض الحبش، فتوجه معهم الى بلاد قومه الكائنة في مقابلة بلاد الحبش من الجانب الشرقي للبحر، فمكث بها إلى أن تحقق استقرار النبي (ص) وأصحابه بالمدينة المنورة، فخرج منها مهاجرا هو وأخواه ومن أسلم بدعايته من قومه الى المدينة المنورة، فركبوا سفينة في البحر، فألقتهم السفينة لهيجان البحر بالرياح الى أرض الحبش المقابلة لبلادهم من الجانب الغربي للبحر، فاجتمعوا بجعفر ومن معه... وعلى هذا فيكون قول أبي موسى الأشعري بلغنا مخرج النبي أي الى المدينة المنورة لا مبعثه بالرسالة الخ[1] ...)

(١) الحبشان ص ٢٠٥

وظاهر أن ابن حجر يضع لحل هذا الاشكال فروضا تحتاج إلى إثبات . فرض إسلام أبي موسى بمكة والبقاء بها الى أن أذن الرسول بالهجرة الثانية ، وسفر أبي موسى الى اليمن ، وعزمه فى الهجرة إلى المدينة بعداستقرار النبي فيها .

ويتضح من مناقشة الروايات السابقة أن هناك خلطامن الرواة فى ذكر حقيقة هذه الحادثة ، ونرى أنهم قد كيفوا وضع هذه الهجرة أو هذه الهجرات على وجه مجانب قليلا عن الحقيقة . والوضع فيما نعتقد هو أن الفوج الأول لم يكن فى واقع الأمر قوما قدفروا بأنفسهم الى الحبشة ،وانما كانوا بعثةإسلامية ، أرسلها النبي (ص)إلى ملك الحبشة لتتعرف مدى رغبة النجاشي واستعداده لقبول المهاجرين ، ولتمهد للمسلمين فى البلاط الأكسومى ، وكان من أفراد البعثة التاجر، والمتكلم،وصاحب النفوذ ، والخبير بالحبشة وأهلها، ومكثوا فى الحبشة فترة قصيرة ، شهرين أو ثلاثة . يفاوضون الملك فى أمر إخوانهم . ولابدأنهم قد وجدوا من الملك استعدادا للقبول ، ولكى يتثبت الملك من حقيقة هؤلاء المسلمين،يخبرنا الرواة أنه أرسل وفدامن الحبشة الى النبي وهو بمكة ، وأغلب الظن أنه قدم قبل أن يؤذن للمسلمين بالقيام بهجرة ، اوبهجرات اخرى ؛ فقدأخرج الحافظ بن كثير فى تفسيره عن سعيدبن جبير والسدى وغيرهما أن النجاشى بعث وفدامن الحبشة الى النبى(ص)ليسمعوا كلامه ، ويروا صفاته ، وكان

عدده اثنى عشر، وقيل خمسون. وقيل بضع وستون. وقيل سبعون رجلا. سبعة منهم قساوسة وخمسة رهابين. فلما رأوا رسول الله (ص) وقرأ عليهم شيئا من القرآن أسلموا. وبكوا وخشعوا. ثم رجعوا الى النجاشي وأخبروه بما شاهدوه [1] ». ويرى ابن إسحق أن عشرين رجلا أوقريبا من ذلك من نصارى الحبشة قدموا وهو بمكة (ص) وذلك حينما بلغهم خبره فوجدوه فى المسجد، فجلسوا اليه، وتكلموا معه، وسألوه عما عندهم من المسائل. ورجال من أكابر قريش فى أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من سؤالهم رسول الله (ص) عما أرادوا دعاهم النبى (ص) إلى الايمان بالله تعالى وحده، وتلا عليهم شيئا من القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله تعالى وآمنوا به (ص) وصدقوه. وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره. فلما قاموا من عنده تعرض لهم أبو جهل فى نفر من كفار قريش الذين كانوا جالسين حوالى الكعبة، وناظرين لما وقع منهم، وقالوا لهم، خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم، فتأتونهم بخبر الرجل، يعنون النبى (ص)، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه، ما نعلم ركبا أحمق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم، لانجاهلكم؛ لنا

---

(١) الحبشان ص ٤٢ .

أعمالنا ، ولكم أعمالكم [١] .

ولا شك أن هذا الوفد قد رجع الى النجاشي كما رأينا في رواية الحافظ أنهم (رجعوا الى الحبشة ليخبروا النجاشي بما شاهدوه) ، ولا شك أنهم أخبروا النجاشي بروح تنطوي على الإعجاب وتنم عن الود ، وبذلك صادف المسلمون قبولا لدى النجاشي فأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة ليكونوا فى حماه وتحت رعايته . وتكلل مسعى البعثة الإسلامية بالنجاح . ولم يكن رجوعها لإشاعة سرت بينهم ، أن أهل مكة قد أسلموا . كما زعم الرواة ، ولكنهم رجعوا بعد أن أدوا مهمتهم وفاوضوا الملك فى أمر إخوانهم .

وأذن النبي للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اطمأن الى حماية النجاشي إياهم وإفساح صدره لهم . فتدفق المسلمون إلى بلاد الحبشة آمنين مطمئنين ، وهناك استقر النساء والرجال من المسلمين مع أولادهم ، ونسموا الحرية بعد أن مسهم فى ديارهم الضر والجزع ، ونظم شعراؤهم فى الحبشة الشعر يهجون قريشا الكفار ، ويذكرون أن الله خلصهم من شرهم بالمهاجرة الى بلاد واسعة ، وهجا بعضهم أشخاصاً من الكفار كانوا يعذبونهم فى مكة ، وكان من أشهر شعراء هذا المهجر عبدالله بن الحارث ، وعثمان بن مظعون [٢] .

---

(١) الحبشان ص ٤٤ (٢) الحبشان ص ٢١٤ — ٢١٥

وأغلب الظن أن المهاجرين لم يرحلوا جمعا واحدا إلى الحبشة ، بل هاجروا على دفعات ، وليس فى وسعنا أن نعرف متى بدأت كل دفعة منها بالهجرة ، ولا متى قدموا من الحبشة ، فان قدومهم قد حدث غالبا على دفعات كذلك ، وربما كان آخر قدمة لهم عام افتتاح خيبر فى السنة السابعة للهجرة .

ولم يطب لقريش أن ترى هؤلاء المهاجرين يفلتون من أيديهم ويلجئون الى سند قوى يظاهرونهم به « فائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى ، بعد أن حدثت غزوة بدر [1] ، رجلين جلدين منهم ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له كثيرا ، ولم يتركوا له من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية . ثم بعثوا عمرو ابن العاص مع عبد الله بن أبى ربيعة (وقيل عمارة بن الوليد) وكان عمرو معروفا بدهائه وسعة حيله ، كما كان عبد الله ابن أبى ربيعة تاجرا موسرا ، خبيرا بالحبشة ، عارفا بأهلها .

كان الغرض من بعثة قريش إحباط أعمال المسلمين فى الحبشة وإقناع النجاشى بالتخلى عنهم . وكان محامى المسلمين بين يدى النجاشى جعفر بن أبى طالب ، وقد حاول عرض قضية الإسلام بين يدى النجاشى ، وتقريبها إلى ذهن رجل مسيحى مثله .

---

(١) الطراز المنقوش ص ١٩ ب .

وكان قصارى عمرو بن العاص أن يتحين الفرص للإيقاع بالمسلمين ، فمن ذلك قوله يخاطب النجاشي : « إنهم مستكبرون عليك، ولذالم يحيوك بتحيتك التي يحييك بها الناس وهى السجود » « إنا كنا نحن وهم على دين واحد ، فخالفونا ، وأتوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولاأنتم، فنريد أن نردهم إليه » ، « إنهم يخالفونك فى ابن مريم العذراء »[١] .

ولكن جعفراً استطاع أن يفند ماوجه إلى قومه من التهم ، ويجيب على ماخوطب فيه من الأسئلة بوضوح وجراءة ، مماجعل النجاشي يحكم لهم بقوله : « أبشروا ولا تخافوا فإنه لا دَهْبوت اليوم على حزب إبراهيم[٢] » .

☆ ☆ ☆

كان رسول النبي إلى النجاشي رجلا من بني ضمرة ، يقال له عمرو بن أمية ، ولا نعرف عن بنى ضمرة شيئا كثيرا ، وأعتقد أن

---

(١) قيل ومن حيل عمرو فى الحبشة ، حين رأى فشله فى قضيته التي جاء من أجلها، أن أوعز إلى عمارة بن الوليد ، وكان جميلا ، أن يتعرض لزوجة النجاشى ، لعلها أن تشفع لهم عنده ، فيقضى لهم ما لاجله جاءوا ، ولما مالت إليه ، وأهدت اليه شيئا من عطرها كشف النجاشى العلاقة بين العربي وزوجته فأنزل به أشد العذاب .

(٢) الحبشان ص ٢٠٦ — ٢١٠ .

لهذه القبيلة أهمية خاصة لتوضيح جانب من العلاقة بين الحبشة وبلاد العرب ، ويروى أن أصحمة النجاشي كان قد بيع فى شبابه إلى رجل من بنى ضمرة فى بلاد العرب .

والظاهر أن عمرو بن أمية كان ذا مواهب خاصة تؤهله لهذا العمل ، لذلك كان النبي كثيراً مايبعثه فى أموره الهامة ، فقد بعثه عينا إلى قريش كما أرسله إلى النجاشي بكتبه فى كل مرة .

كان أول كتب النبي إلى النجاشي فى السنة السادسة للهجرة ، فأرسل إليه عمرو بن أمية الضمرى بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، ويذكر له أنه بعث إليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب ومعه نفر من المسلمين . وقيل إن النجاشي حين قرأ الكتاب كتب إلى النبي أنه اعتنق الإسلام ، وبايع ابن عمه جعفر . وينكر بعض المحدثين رسالة النبي إلى النجاشي واعتناقه للإسلام(١) .

وفى السنة السابعة للهجرة بعث النبي عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشي بكتاب يطلب إليه أن يخطب له السيدة أم حبيبة ، واسمها رملة بنت أبي سفيان ، وكان عبيد الله بن جحش بعلها قد تنصر فى الحبشة ومات وثبتت هي على الإسلام . فرد أصحمة عليه بأنه زوجه

---

(١) جويدى فى دائرة المعارف الاسلامية — 'Abyssinia'
Budge, vol. 1, p. 273.

إياها ، وأهدى إليه قميصا ، وسراويل . وعطافا (أى طيلسانا) ، وخفين ساذجين (غيرمنقوشين) وبعث إليه أم حبيبة .

وفى نفس هذه السنة ، أرسل النبي عمرو بن أمية بكتاب يطلب فيه إلى النجاشي أن يرسل من بقى عنده من مهاجرى الصحابة بأرض الحبشة ، فجهزهم النجاشي ، وأنزلهم فى سفينة أوسفينتين مع عمرو بن أمية ، وكان فيهم جعفر بن أبى طالب ، ووفد من الحبشة ، وقدموا جميعا على النبي (ص) عام فتح خيبر فى السنة السابعة للهجرة (٦٢٩ م) .

وفى السنة التاسعة للهجرة ، كان النبي قد أرسل إلى النجاشي هدايا : حلة ، وأواقى من مسك ، فردت إليه لموت النجاشي ، قيل فلما عرف بموته أرسل عمرو بن أمية بكتاب إلى النجاشي الجديد يدعوه إلى الاسلام .

٢

ظل حكم الفرس على اليمن قائما حتى انتزع المسلمون سيادتهم عليها . وكان باذان آخر وال فارسى من قبل كسرى پرويز (خسرو الثانى) وقد اعتنق باذان الإسلام بعد وفاة خسرو ٦٢٨ م .

وانتشر الإسلام فى بلاد العرب ، وأتت وفادات اليمن إلى النبي (ص) تدخل فى دين الله . وقدم وفد نجران إلى النبي ، وهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، وكانوا نصارى ، فيهم الرئيس ، وصاحب

مشورتهم واسمه العاقب ، وأسقفهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، أبو الحارث بن علقمة ، وهو رجل من بنى ربيعة . والسيد ، وهو صاحب رحلتهم . قيل إنهم دخلوا على النبي وعليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحرير، فأعرض عنهم النبي لزيهم فانصرفوا وأتوه بزى الرهبان فسلموا عليه ، فرد عليهم، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وكثر الكلام والحجاج بينهم ، ولم يقتنعوا، فصالحوا النبي على ألفى حلة، ألف فى رجب وألف فى صفر ،وكل حلة أوقية من الأواقى، كما صالحوه على عارية ثلاثين درعا، وثلاثين رمحا، وثلاثين بعيرا، وثلاثين فرسا ، إن كان باليمن كسيد ، ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد . ولم يلبث السيد والعاقب إلا يسيرا حتى أسلما[١] .

وفى عام ١٣ هـ كتب عمر إليهم أن يسيروا إلى العراق فنزلوا بالنجرانية قرب الكوفة .

« * »

كانت الصلة وثيقة بين الحبشة وبطارقة الاسكندرية منذ أن اعتنقت الحبشة المسيحية على يد (فرومنتيوس) فى القرن الرابع الميلادى. وظلت العلاقة حتى بعد أن فتح عمرو بن العاص الإسكندرية فى ٦٣٨ م . فقد ذكرت إشارة فى عهد إسحق بطريق الإسكندرية

---

(١) ابن سعد القسم الثاني من المجلد الاول ص ٨٥ .

٦٨٦ — ٦٨٨ م، تنبىء بوقوع حرب بين الحبشة والنوبيين. فكتب هذا البطريق إلى ملك الحبشة وإلى ملك النوبة فى الصلح بينهما حتى لا يحدثا قلاقل فى بلادهما، ولا يشعلا نار الخصومة بينهما [١].

ومنذ ذلك الحين، لم نعد نسمع شيئا عن الحبشة يستحق الذكر، ولم تعد تلعب فى السياسة الخارجية دورا ما، وظلت منطوية فى نطاق بلادها. ولعل السبب فى ذلك راجع الى تلك الشيخوخة التى أدركت هذه الدولة بعد خراب ميناء عدول، همزة الوصل بينها وبين العالم المتحضر.

ففيما بين ٦٣٠، ٦٤٠ م تم خراب عدول من جراء غارات العرب وغيرهم. فانقطعت الصلة بين الحبشة والعالم الخارجى، وتوقفت سوق أكسوم، ولم نعد نرى فيها الأجانب التجار، وتعطل بناء الكنائس، وهجرت دراسة الأدب القديم [٢].

ولم نسمع بعد موت الرسول (ص) ٦٣٤ م أن أحدا من المسلمين قد وطئت قدماه تلك البلاد الا ما كان من حملة بحرية صغيرة أرسلها عمر بن الخطاب ٢٠ هـ (٦٤١ م) إلى الساحل الحبشى ولكنها لم تكلل بالنجاح.

---

(١) Budge, vol. 1, p. 274.

(٢) Id. passim.

ومنذ ذلك الحين ظل المؤرخون والجغرافيون من العرب يجهلون جغرافية الحبشة وأخبارها حتى جاء المقريزى (+٨٤٥هـ) فكان أول مؤرخ ذكر أخباراً صحيحة عن ولايات الحبشة وتاريخها فى عصره [١].

وهكذا انطوت الدولة الأكسومية، وسكت هذا الصوت الجهير الذى ظل مدويا فى أرجاء العالم زهاء ثمانية قرون.

٣

وكانت هذه المعاملة التى لقيها النبى وأصحابه من النجاشى خاصة والحبش بوجه عام، باعثا قويا على توثيق العلاقات بين نصارى الحبشة وبين الإسلام، وكان طبعيا أن ينوه القرآن الكريم والنبى الحكيم بالحبش ويثنيا عليهم، ولقد روى عن عطاء بن أبى رباح أن ما ذكر الله به النصارى من الخير فى القرآن فإنما يراد بهم النجاشى وأصحابه؛ [٢] ومن هذه الآيات قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إليهم، خاشعين لله)، (ولتجدن أقربهم مودة للذين

---

(١) جويدى — Abyssinia

(٢) الحبشان ص ٤٤

آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لايستكبرون) (سورة المائدة آية ٨٢).وقدقيل إن المقصود بقوله تعالى : (وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) (سورة المائدة آية ٨٣) إنما هم قوم من الحبش [١].

وكان طبعيا كذلك أن يمدح النبي الحبش ، وأن يمحو النظرة العربية القديمة التي كانت تنكر العبيد ، وتفرق بين الناس باللون والنسب ، فجعل التفرقة بينهم على أساس التقوى ، فقال : « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً »وحبب الناس إلى الحبش ، وقربهم إليهم، فجعل البركة على أيديهم بقوله : « من أدخل بيته حبشيا أو حبشية أدخل الله بيته بركة » ، وقوله: « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن . وقيل لقمان ، وبلال ، ومهجع » (٢)

وأرسل النجاشي إلى النبي هدايا كثيرة ، فأهدى إليه مرة بغلا، وخفين أسودين ساذجين ، وزبرجدا ،وثلاث عنزات (اى رماح)

---

(١) الطراز المنقوش ص١٧ ب،١٨ ا ،ب

(٢) نفس المرجع ص١١ ويعني بالسودان الحبش.

وأهدى اليه مرة أخرى حلة فيها خاتم من ذهب ، فيه فص حبشى، فأعطاه لأمامة بنت العاص . والفص الحبشى صنف من الزبرجد ببلاد الحبش لونه إلى الخضرة أقرب [١]. وأهدى إليه مرة أخرى قارورة غالية ، وهى نوع من الطيب مركب من مسك ، وعنبر ، وعود ، ودهن، كما أهدى اليه بغلا حبشيا. [٢]

وكان بينهما مراسلات ودية كما رأينا ، وقيل إن النجاشى زوج النبي أم حبيبة التى كانت تقيم، فى جملة المهاجرين، فى الحبشة ، وأدى إليها مهرا قدره ٤٠٠ دينار (أى حوالى مائتى جنيه) ،وأرسلها إليه . ولما قدم وفد النجاشى على النبي قام النبي (ص) يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه: نحن نكفيك يارسول الله ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « إنهم كانوا لأصحابى مكرمين فأحب أن أكافئهم». [٣]
ولما بلغ النبي وفاة النجاشي أمر صحابته بالصلاة عليه بقوله: (اخرجوا فصلوا على أخ لكم) فقال المنافقون عند ذلك ، انظروا إلى هذا الذى يصلى على علج لم يره قط ، ولم يكن على دينه [٤].

---

(١) الطرز المنقوش ص ٢٩ ا،ب

(٢) نفس المرجع . الكلمتان (بغل) و (عنبر) حبشيتا الاصل . الاولى أصلها (بقل) والثانية (عنبر).

(٣) الطراز المنقوش ص ١٨ ب

(٤) الحبشان ص ٤١

ولا شك أن النبي نفسه ، فضلا عن المسلمين والعرب بوجه عام ، قد تأثروا بالحبش فى لغتهـــم وحضارتهم . والرواة يذكرون أنه (ص) قد نطق ببعض الألفاظ الحبشية فى بعض المناسبات ، كقوله وهو يصف أشراط الساعة : (إن بين يديها فتنة وهرجا).ولم يعرف الصحابة معنى الهرج ، فسألوه فقال : هوالقتل بلسان الحبش ، وكقوله لأم خالد عندماقدمت من أرض الحبشة فكساها خميصة (كساء له أعلام) وجعل يمسح الأعلام بيده ويقول : (سناه سناه) أى حسن حسن بلغة الحبش [1] .

وقد أفسح الإسلام بهذه العلاقات الطيبة مجالا للمؤثرات الحبشية لكى تعمل فى جو أكثر طلاقة وحرية فى عرب الشمال وأهالى الحجاز بوجه خاص، كماعملت من قبل فى أهل الجنوب . وكانت هذه المؤثرات الحبشية قوية فعالة ، لأنها كانت تتغذى من جهات كثيرة ، فكانت تنمو وتزداد من تلك الصلات المباشرة بين العرب ووفود الحبشة التى قدمت على النبي ، وبين العرب وهؤلاء العبيد من الحبشة الذين كانوا يعيشون فى الحجاز وغيره فى أكناف سادتهم ، وبين المسلمين وبلاد الحبشة التى اتصلوا بها وهاجروا

---

(٣) الطراز المنقوش ص ١٤ ا،ب . وفى الحبشية هرج بمعنى قتل ، وشناى بمعنى جميل .

إليها وعاشوا فيها فترة من الزمان . ثم من تلك الصلات غير المباشرة التى جاءت عن طريق اليمن ، ذلك الصقع الذى كان مسرحا للمؤثرات الحبشية ثمانية قرون ، على الأقل ، قبل عصر الرسول عليه السلام .

الباب الرابع

آثار الحبش فى بلاد العرب

عنى القدماء بتصنيف الكتب والرسائل الجامعة لفضل الحبش وآثارهم فى الإسلام .

ولعل أول من كتب فى ذلك أبو عثمان الجاحظ (+٢٥٥هـ) فقد ألف رسالة فى فخر السودان على البيضان، ذكر مناقب السودان ومنهم الحبش ، وهى مطبوعة فى مجموعة من رسائله [١].

وفى القرن السادس الهجرى ألف ابن الجوزى (+٥٩٧هـ) كتابا سماه «تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش» ، وتوجد منه نسخ خطية فى مكتبة جوتا وأسكوريال ورامپور (٢) .

ثم جاء أبو حيان النحوى (+ ٧٤٥ هـ) وكان من أصل بربرى، ويقال إنه شرع فى تأليف رسالة فى اللغة الحبشية ولم يتمها (٣).

---

(١) ثلاث رسائل ـ ط ليدن ١٩٠٣

(٢) Brockelmann, vol. 1, p.505

(٣) دائرة المعارف الاسلامية — أبو حيان النحوى

وكان القرن العاشر أكثر القرون عناية بهذا الموضوع ، فألف السيوطى (+ ٩١١ هـ) ثلاث رسائل ، إحداهما «رفع شأن الحبشان» وهى توسيع لرسالة ابن الجوزى السالفة الذكر ؛ وتوجد منها نسخ خطية فى باريس والمتحف البريطانى ، والثانية سماها «أزهار العروش فى أخبار الحبوش» ؛ وتوجد منها نسخ خطية فى جوتا وأسكوريال . والثالثة «نزهة العمر فى التفضيل بين البيض والسود والسمر» وتوجد منها نسخ خطيه فى برلين وليدن [١] .

وفى هذا القرن ، وضع محمد بن عبدالباقى البخارى الذى كان خطيبا بالمدينة المنورة (+ ٩٩١ هـ) رسالة سماها « الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش » اعتمد فيها على رسالة السيوطى «أزهار العروش» وغيرها ، ويوجد منها نسخ خطية فى جوتا وبرلين وباريس والمتحف البريطانى ورامپور ودار الكتب المصرية وغيرها . وقد ترجمها إلى الألمانية الاستاذ ڤيز ڤيلر وطبعت فى هانوڤر سنة ١٩٢٤ (٢) وقد اختصر الطراز على بن إبراهيم الحلبى الشافعى وسماه « إعلام الطراز المنقوش » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وفى العصر الحديث ألف الشيخ محمد الحفنى القنائى كتابا (المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٠ هـ) سماه «الجواهر الحسان

Brockelmann, vol II, p.158 (١)

Id. (Suppl.), vol II, p, 519, (٢)

بما جاء عن الله والرسول وعلماء التاريخ فى الحبشان » وذكر فى مقدمته أنه استفاد مما فى رسالتى السيوطى «رفع شأن الحبشان» ، و« أزهار العروش » ورسالة البخارى السالفة الذكر .

١

هؤلاء الحبش الذين هاجروا إلى بلاد العرب أحرارا وأرقاء ، وهؤلاء العرب الذين كانوا يهاجرون إلى الحبشة للمتاجرة أو المهاجرة - هؤلاء جميعا كانوا قد حملوا معهم كثيرا من ثقافة الحبشة وعاداتها وحضارتها ، فتركوا فى المجتمع العربى آثارا قوية فى الجنوب والشمال .

وعن طريق اليمن وصلتنا ثروة عظيمة من الآثار لاشك أنه كان للحبشة منها نصيب كبير ، وليس من اليسير أن نحقق أصول كثير من هذه الآثار ، فقد انصهرت فى البيئات اليمنية . وأصبح من العسير تحليلها ، وردها الى عناصرها .

ولعلك تعجب أيضا حين تجد اختلاط آثار الحبشة واليمن بالأخبار اليهودية والنصرانية وغيرها مما جاءنا عن طريق الحبشة أواليمن ، مثال ذلك قولهم إن لقمان كان عبدا حبشيا ، وفى رواية أنه كان قاضيا فى بنى إسرائيل . وقولهم إن طفلا من بنى إسرائيل كان يسمى صاحب الحبشة ، كان قد نطق فى المهد . وقولهم إن

أصحاب الأخدود كانوا قوما من بنى إسرائيل، أوقوما من الحبشة ، أو قوما من اليمن أوغير ذلك .

يرى الأستاذ هارناك أن الكتاب المقدس لم يترجم إلى العربية فى عصر ما قبل الاسلام . وهذا دليل على أن المسيحية كانت ضعيفة الأثر فى العرب فى هذا الوقت المبكر (١) .

والواقع أنه لا دليل على أن كنيسة مسيحية كانت تستخدم اللغة العربية فى بلاد العرب وربما كانت السريانية أو العبرية من اللغات المستخدمة فى بعض الكنائس المسيحية فى هذه البلاد .

ويروى أن ورقة بن نوفل النصرانى (كان يكتب الكتاب العربى ، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء أن يكتب) ومنه استنتج هامر أن ورقة ترجم الإنجيل أو قطعا منه من العبرية إلى العربية (٢) . والراجح أن القراءة الصحيحة لهذا النص هى أنه « كان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ماشاء أن يكتب » وقد ذكر مصححاً فى الأغانى (مط التقدم ٣/١٤)

ومع هذا فإننا لا ننكر أثر المسيحية فى اليمن ، وفى شمال الجزيرة العربية ، ولقد أثرت الحبشة فى العرب من هذه الناحية تأثيرا لا ينكر .

---

(١) R.Bell, p. 16.

(٢) Renan, Hist, gener. des langues semit., p. 363 . (paris, 1878,)

ولقد سمعنا عن كنيسة يمانية ، تدين بمذهب الطبيعة الواحدة الذى بثه فرومنتيوس فى الحبشة منذ القرن الرابع ، ورأيناذلك الخطاب السريانى الذى أرسله يعقوب السروجى إلى نصارى نجران ، مما يدل على أن اللغة السريانية كانت مفهومة هناك .

ومع هذا فلم تكن للمسيحية كنيسة واحدة ولا مذهب واحد فى اليمن ، فيرى البعض أن نصارى الشمال من أهل العراق كانوا يترددون إلى اليمن [1]، وذكر السمعانى فى المكتبة الشرقية (٣/٢) بعض أخبار تثبت أنه كان فى دولة حمير أربع أسقفيات : فى ظفار ، وعدن ، وعلى مدخل الخليج الفارسى ، وفى نجران .

ومهما يكن ، فإن آثار المسيحية الحبشية تظهر واضحة قوية فى نجران ، ومن الآثار المدونة . ما كتبه الأحباش عن دخول النصرانية فى نجران فى نسخة خطية بالحبشة [2] تتحدث عن أعمال القديس (أزقير) وخلاصتها أن أزقير هذا كان كاهنا نصرانيا دعا إلى دينه أهل نجران ، فأمر الملك شرحبيل يقف بحبسه ، لكنه نجا من الحبس ، وعمد كثيرين ، وتبعه رجل يدعونه قرياقوس ، واجتمعت

---

(١) لويس شيخو ، النصرانيه وآدابها ص ٥٨ طبعة بيروت ١٩١٢

(٢) نفسه ص ٦١

عليه اليهود ففند أقوالهم جهاراً وقضى لمحاولته آخرا بقطع الرأس مع ثمانية وثلاثين آخرين، وله عيد فى التقويم الحبشى[١].

ثم إن الأحباش بعد غزوتهم الأخيرة بنوا فى نجران مزارا (وقيل بناه نصارى نجران) ليكون قبلة العرب، ويسمى كعبة نجران أو كعبة اليمن، وفيها يقول الأعشى:

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيدا وعبد المسيح وقيسا، هم خير أربابها

ويصف العرب كعبة نجران بأنها قبة من أدم من ثلثمائة جلد كانت على نهر بنجران[٢].

وكان الحارث زعيم نجران فى زمن ذى نواس، ويسميه الفرنجة أريتاس، وهو الحارث بن كعب الذى عرف أبناؤه فى نجران فى عهد النبى (ص)، وكانوا من بين الوفود التى جاءت تعلن إسلامها. وقد لفتوا نظر النبى (ص) بضخامة أجسامهم. وسواد لونهم، فقال حين رآهم مقبلين: «من هؤلاء الذين كأنهم رجال الهند» [٣] وكان الحارث هذا مسيحيا متعصبا. يستمد سلطته من معونة الأحباش، حتى إنه لجأ إليهم حين تحرش ذو نواس

---

(١) لويس شيخو ص ٦١
(٢) معجم البلدان لياقوت ــ نجران
(٣) ابن سعد، الطبقات الكبير القسم الثانى من الجزء الاول ص ٢٠٧

به وبقومه، وقيل إن تعذيب الحارث كان السبب المباشر فى غزوة الأحباش الأخيرة .

وممن اشتهر فى الجاهلية من أساقفة نجران قس بن ساعدة الإيادى ، ومن عظمائها يزيد بن عبد المدان ، وكلاهما أديبان ، لهما فى الأدب العربى أثر يذكر .

وتجلت آثار المسيحية الحبشية فى صنعاء أيضا، ولا سيما بعد أن بنى أبرهة فيها كنيسة يصفها العرب ويبالغون فى عظمتها وفخامتها ، ويقال إن كثيراً من قبائل العرب حجها سنين ومكث فيها رجال يتعبدون ويتألهون ونسكوا لها .[١]

وكذلك فى ظفار، بنى الأحباش كنيسة، كان المتولى تدبيرها أسقفاً يدعى جرجنتيوس. اتخذه ملك الحبشة مستشارا ومساعدا لتنصير حمير، فما ألى جهدا فى ذلك. وقد ترك لنا من آثاره كتاباً فى شرائع الحميريين التى ترى ترجمتها اليونانية فى مجموع الآباء لمينى، وكان يجادل اليهود ويرد على مزاعمهم وله جدال مع هربان الربانى[٢] .

وناحية أخرى تأثر بها المجتمع العربى ، تلك هى الخرافة والسحر. ولا شك أن هناك أفكاراً مشتركة هنا وهناك ، كالجن والرقية والتطير وغيرهما .

---

(١) الطبرى حـ ١ ص ٩٤٢
(٢) لويس شيخون ص ٤٦

غير أن هناك أفكارا أخذها العرب عن الأحباش، وما كانوا يعرفونها من قبل، كالزار وكان — كما حقق دى غويه — معروفا فى زمانه فى مكة يديره نساؤها، وأنه من أصل حبشى واللفظة فى الأمهرية معناها (الروح الشريرة [١]) ويستقدم المصريون بعض أفراد من السود للقيام ببعض المراسم فى حلقة الزار كالرقص والغناء.

٢

لعل أجدر الآثار بالذكر تلك الاصطلاحات والألفاظ التى استعارتها من الحبشية اللغة العربية والقرآن بنوع خاص.

ومن المعروف حتى لعلماء المسلمين، أن القرآن قد استعار كثيرا من الألفاظ الحبشية. فقد أورد السيوطى فى الإتقان بابا ذكر فيه ماورد فى القرآن من الألفاظ بغير لغة العرب، ذكر منها قرابة ستة وعشرين لفظا أرجعها إلى اللغة الحبشية، ولكن أكثرها لم يثبت اشتقاقه منها.

وقد اجتهد الأستاذ نلدكه [٢] فى إيراد ما استطاع الاهتداء إليه من الألفاظ الحبشية التى استعملها القرآن واللغة العربية

---

(١) نلدكه ص ٥٠ والزار هو مرض الشياطين الذى تتلبس به النساء الجاهلات.

(٢) Th. Noeldeke, Neue Beitrage Zur semit. Sprachwissenschaft, Strassburg, 1910.

وقد ألقى الأستاذ برجشتراسر بالعربية محاضرات مطبوعة الآن[١] ذكر فيها طائفة من الألفاظ العربية الدينية التي ترجع إلى أصل حبشي. وقد اعتمدنا في أكثر ما ذكرناه في هذا الفصل على ما كتبه هذان العالمان الجليلان في هذين الكتابين .

وقد فطن الباحثون بعد جمع هذه الألفاظ إلى أن كثيرا منها يعود إلى أمور دينية ، كالحواريين ومنافق وفطر ومنبر ومحراب ومصحف وبرهان الخ ..

ورب سائل يقول : إن اللغات السامية ترجع كلها إلى أصل واحد، هي لغة الأم، كما يسميها العلماء ، وفيها جميعا ألفاظ كثيرة مشتركة ، كالأب والأم واليد والدم والهن والسنة والشفة والأمة وغيرها. فهذه كلها مشتركة في جميع اللغات السامية أو في أكثرها. فلأي سبب يجوز أن نقول إن بعض الألفاظ التي تشارك العربية فيها الحبشية ليست بأصلية في كلتا اللغتين بل هي حبشية الأصل ، واللغة العربية استعارتها من الحبشية ؟ الجواب أنا نستنتج ذلك من تحقيق لفظ الكلمة ومعناها وكيفية استعمالها في اللغتين والعلاقة بينها وبين سائر اشتقاقاتها . فمن الممكن أن

---

(١) التطور النحوى للغة العربية ص١٣٦ وما يليها (مصر ١٢٩٩) م .

نعد الكلمة حبشية الأصل إذا حققنا فيها صفة من الصفات الآتيـــة :

ا ـ وجود اشتقاق للكلمة فى الحبشية أظهر وأبين منه فى العربية مثل حواريون ومنافق وفطر ومنبر . فكلمة حوارى مع كون بنائها غير مألوف فى العربية، لا يمكن اشتقاقها من حار لأن ماهو أقرب إلى معنى الحواريين من معانى هذه المادة وهو الرجوع أبعد عنه بكثير من معناها فى الحبشية وهو السير والسفر. والحواريون فى لغة الكنيسة رسل المسيح ومنافق مأخوذ من نافق الحبشية أى شك وداهن وخالف . ولا علاقة فى العربية بين النفاق وسائر معانى مادة نفق فيها ، وهى فى الحبشية تدل على المخالفة والانفصال ، فالمنافق هو الذى يخالف ظاهره باطنه . وفطر لم تؤد معنى الخلق فى العربية قبل مجيئها فى القرآن الكريم ، وأصل معناها العربى الشق ، وهى فى الحبشية مألوفة فى معنى الخلق . كذلك منبر فعلها فى الحبشية نبر أى جلس ، ولا اشتقاق للمنبر فى العربية .

ب ـ نقل الكلمة من الحبشية محرفة أو مغايرة للأصل مثل محراب ، فربما كان أصلها محرام فى الحبشية أى المعبد ، فأبدلت الميم باء . أو ربما كان أصلها مكراب أى المكان المقدس فابدلت الكاف حاء ، ومن ذلك كلمة بغل وقد وردت فى القرآن، وهى لفظة حبشية

أصلها بقل بالقاف . فقد تبين أن تغير الكلمة فى حرف من حروفها قد يكون دليلا على عدم أصالة الكلمة فى اللغة المنقولة إليها .

جـ - انفراد الكلمة فى العربية بحيث لا يكون لها قرابة إلا ما اشتق منها، مثل برهان ومائدة . فبرهان مشتق من مادة (بره) فى الحبشية وهى تقابل (بهر) أى أنار وأضاء فى العربية . فأصل معنى برهان النور والتنوير، فهو لفظ منفرد فى العربية لا قرابة له فيها إلا ما اشتق منها كبرهن . وكذلك مائدة فهى فى الحبشية (مائد) وليس لها فى العربية اشتقاقات من مادتها . (١)

ومن هذا النوع الفاظ أخذتها العربية من الحبشية ، وهى ليست حبشية الأصل، وإنما سبقت الحبشية إلى أخذها من لغات أخرى ثم استعارتها العربية منها . من ذلك إنجيل وجهنم وتابوت ، فهذه الفاظ أجنبية بعضها يونانى ، وبعضها عبرانى (٢).

د - ورود نص موثوق به يؤيد أن اللفظة حبشية الأصل. من ذلك ماذكره القدماء فى مشكاة من أن أصلها حبشى فاذا رجعنا إلى الكلمة فى الحبشية نجد أن Maskōt معناها الكوة . وفى القرآن يرسم المقطع الثانى بالواو، مما يدل على أن حركته لم تكن فتحة

---

(١) راجع التطور النحوي فى باب المفردات .

(٢) نلدكه ٣٤ ، ٤٧

ممدودة فى الأصل بل كانت ō كما فى الحبشية تماما .

ومثلها كلمة مصحف . فيروى أن سالما مولى ابى حذيفة جمع القرآن بين دفتين ، ثم ائتمروا على أن يسموه باسم، فقال البعض منهم سموه السفر ،فقال لهم إن ذلك تسمية اليهود لكتبهم، فكرهوا ذلك، فقال إنى رأيت مثله فى الحبشة يسمى المصحف فأجمع رأيهم على أن يسموه المصحف فسمى به [١] .

وإذا رجعنا إلى الحبشية نجد كلمة Maṣḥaf مشتقه من صحف أى كتب . ومصحف فى العربية تروى ميمها محركة بالحركات الثلاث .

هـ ـ وهناك دليل آخر على أن مصحف حبشية الأصل وهو أن العرب لما أخذوا الكتابة من جيرانهم الذين سبقوهم إلى التمدن، يحتمل أن يكونوا قد أخذوا منهم الأسماء الدالة على هذا التمدن . فكان ينتظر إذن أن تكون المصحف آرامية كما أن الخط العربى آرامى الأصل ، غير أنا لا نجد فى الآرامية كلمة تقابل مصحف ، فاتجه العرب إلى اليمن وإلى الحبشة لأن الكتابة كانت معروفة ومستعملة هناك كذلك (٢) وكان بعض العرب يكتب بالحروف اليمانية قبل أن يألفوا الحروف الآرامية. [٣]

---

(١) الحبشان ٩٣ (٢) والقلم كلمة يونانية ، جاءت عن طريق الحبشة (قلم) وقد ورد ذكره فى القرآن (نلدكه ص ٥٠)

(٣) برجشتراسر ، باب المفردات .

كذلك مما أدخلته الحضارة الحبشية من الألفاظ فى بلاد العرب طائفة تدل على الأبنية وتأسيس الطرق، مثل الخوخة(١)، والسكة(٢)، والمشكاة ، والصرح (٣) ؛ وفى الملابس والزينة ، كالجلباب والوقف ، والدملج، والزربية ، والحنبل ؛ وفى التوقيت كالتاريخ والساعة ، والزمن ؛ وفى الأوانى كالشواصين ، والصواع ؛ وفى الحيوان كالحريش ، والزرافة ، والهرماس ، والدمة، والبغل(٤) .

و ـ ندرة معنى من معانى الأوزان فى العربية مع شيوعه فى الحبشية . من ذلك كلمة أخدود ، فيما أظن . فمن المعلوم أن وزن أفعول بالفتح يأتى فى الحبشية (وربما فى لغيات يمنية أيضا) للدلالة على الجمع ، فيقال أهجور أى بلاد ، جمع هجر ، وأجموس نوع من النقود جمع جمس . ولا نعرف أن أفعول قد ورد فى العربية مفتوح الأول ، وإنما ورد مضموم الأول للدلالة على معان شتى من بينها معنى الجمع ، على أن ورود هذا الوزن للدلالة على الجمع قليل نادر فى العربية . وقد وجدنا أن

---

(١) الخوخة الفتحة فى الحائط كالنافذة الصغيرة، وهى فى الحبشية (خوخت)
(٢) أصلها فى الحبشية (سكوت)
(٣) بمعنى القصر، ووردت فى بيت شعر قاله عثمان بن مظعون وهو فى الحبشة :

أأخرجتنى من بطن مكة آمنا وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع

أى أسكنتنى فى حجرة أو مخدع ، وصرح فى الحبشية بهذا المعنى.
(٤) راجع نلدكه فى المرجع المذكور آنفا .

السيوطى لم يذكر مما جاء على هذا الوزن للدلالة على هذا المعنى إلا ثلاثة ألفاظ[١] : أمعور ، القطيع من الظباء ، وأحبوش جيل الحبش ، وأركوب الجماعة من الركاب . وإذا أمعنا النظر نجد ألا فارق بين الوزن المضموم الأول الدال على الجمع فى العربية ومثله المفتوح الأول فى الحبشية واليمنية ، ذلك أن العرب لم تجر ألسنتهم على نطق أفعول مفتوح الأول (كما لا تستسيغ نطق فعوّل مفتوح الأول إلا فى ألفاظ قليلة) .

ونرجح أن أفعول الدال على الجمع فى العربية دخيل ، جاءنا عن طريق الحبشة أو اليمن ، وحين تسرب إلى ألسنة العرب أجروه مجرى ما ألفوه فضموا أوله ، وأدرجوه فى جملة أفعول الدال فى أصل اللغة العربية على معان كثيرة لا صلة بينها وبين معنى الجمع . ومما يؤيد رأينا فى أن معنى الجمع فى هذا الوزن دخيل ما نجده من معانى تلك الألفاظ الثلاثة التى أوردها السيوطى : أمعور وأحبوش وأركوب ، فمعانيها توحى بأنها غريبة ، جاءت عن طريق الحبشة أو اليمن .

وإذا رجعنا إلى أخدود نجد أن أكثر المفسرين واللغويين

---

(١) المزهر ص ٨٣ (طبعة مصر ١٣٢٥ هـ) .

يذكرون أن أخدود مفرد لا جمع ، ويجمعونه على أخاديد . ونرجع إلى اللفظة فى سياق نصوص قديمة فنجدها تعامل معاملة المؤنث ، فنى الحديث الذى رواه الطبرى أن الملك « خد لقومه أخدودا وملأها ناراً » ونجد مثل هذا فى نصوص أخرى[١] . وأصحاب المعاجم يذكرون أنها مفرد مذكر ، فلماذا عوملت معاملة المؤنث ؟ لا لشىء إلا لأن القدماء كانوا يدركون أن هذا اللفظ جمع لامفرد . والمادة موجودة فى الحبشية فى (حدد) أى أحدث قطعا ، والحاء والخاء وسائر حروف الحلق عرضة كثيراً للتبادل فى الكلمات الحبشية . ثم يؤيد هذا الرأى ماذكره النسفى ، دون سائر المفسرين واللغويين ، من أن أخدود جمع خد أى شق عظيم فى الأرض[٢] . وإذا كنا نجد فى العربية أخاديد فإنما هو جمع الجمع كما نجد أفاعيل ترد لجمع الجمع فى ألفاظ كثيرة .

٣

لم يطلق العرب لفظ العبيد على الذين كانوا يشترونهم من الأجناس السوداء فحسب ، بل كانوا يطلقونه كذلك على الذين يملكونهم بالشراء او الأسر ونحو ذلك من الأجناس المختلفة ، وفيهم من العرب أنفسهم (٣) .

---

(١) راجع تفسير الطبرى لسورة البروج .

(٢) مدارك التنزيل على هامش الخازن حـ ٤ ص ٤٠٢ :

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة عبد .

وكانت فى الحبشة منذ عهد قديم جدا ، أسواق لبيع العبيد ، فيروى أن الفراعنة كانوا يبعثون بالحملات إلى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها .

وكان لهؤلاء العبيد الإفريقيين ، مناطق على البحر الأحمر ، ولاسيما فى ميناء عدول ، حيث كانوا يخصون ويحملون فى السفن إلى بلاد العرب وغيرها .

وكان للعبيد الأحباش والإماء الحبشيات ميزات تجعل سادتهم يؤثرونهم على غيرهم ، ويعتمدون عليهم فى أعمالهم . ولاحظ بعض الباحثين ان الجوارى ، فى بلاد العرب ولاسيما الحبشيات منهن كن أكثر حظوة لدى سادتهن من نسائهم الحرائر لأسباب كثيرة (١) وكانت عادة العرب فى الجاهلية إذا ولد الرجل منهم من إحدى أولاء الجوارى ولدا استعبدوه ، فإن أنجب (صار نجيبا) اعترفوا به ، وإلا بقى عبدا(٢). ويتفاوت ثمن العبد حسب قيمته ومنفعته (٣) .

وجاء الإسلام والعبيد من الأحباش طائفة ممتهنة ، قد ذلت نفوسهم وهانت كرامتهم ، ولا أدل على ذلك من قول جعال أحد عبيد مكة من الأحباش حين سأل النبي يارسول الله ! أرأيت ، إن قاتلت

---

(١) نفس المادة فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) الاغاني حـ ٨ ص ٢٣٧ (٣) نفسه حـ ١ ص ٣٣٤ .

بين يديك حتى أقتل ، أيدخلنى ربى الجنة ، لا يحتقرنى . فقال له (ص) نعم ، فقال وأنامنتن الريح اسود اللون ، يارسول الله، قال نعم [١] ، وجاء رجل من الحبشة إلى النبي فقال يارسول الله فضلتم علينا بالألوان والنبوة ،أخبرونى إن آمنت بمثل ما آمنت به، وعملت بمثل ماعملت به، إنى لكائن معك فى الجنة فقال له النبى (ص) نعم [٢] .

وهكذا رفع الإسلام من شأن العبيد ولم يفرق بينهم وبين سائر الناس إلا بالتقوى ، وأعد الجنة لمن يطيعه ولو كان عبدا حبشيا، والنار لمن عصاه ولو كان شريفا قرشيا ، وجعل البركة مقرونة بالأحباش .

وبذلك سمت روحهم المعنوية ، وكان طبعيا أن يسرعوا إلى تلبية دعوة الإسلام الذى خلصهم ورفع من شأنهم وأنقذهم من وهدة الذل والمهانة ، فلاغرو إذا رأيناهم يسارعون إلى الإسلام ، فوجدنا بلالا يبادر إلى الدخول فى الإسلام فى فجر الدعوة ، ووجدنا كثيرين من موالى النبى وموالى صحابته من الأحباش يحذون حذوه ، من أمثال لقيط ، وكان مولى من موالى النبى (ص) ، وأسلم ويسار وكانا عبدين ليهوديين، ثم أسلما على يد النبى (ص) فى حصار خيبر ، وغيرهم كثيرون من « مسلمة الحبشة »

(١) الطراز المنقوش ص ٣٤ ب .
(٢) نفس المرجع ص ٣٥ ا .

الذين ذكرهم النبى (ص) حين حضرت أحد مواليه الوفاة ، فقال (ص) : « أنظروا من بمكة من مسلمة الحبشة فادفعوا ميراثه لهم[١] ». وكانت حاضنة النبي أم أيمن حبشية مسلمة ، فلما كبر النبي أعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة ، وقيل إنها كانت من سبي جيش أبرهة وأنه لما انهزم عن مكة ، أخذها عبد المطلب من معسكره . وقد توفيت أم أيمن بعد رسول الله بخمسة أشهر (٢) .

وكان بلال بن رباح ـ غالباً ـ من سلالة الساميين الذين اختلطوا بالعناصر الحامية والإفريقية فى الحبشة، فليس فى أوصافه التى ذكرها العرب ما ينطبق على الجنس الحبشى الوطنى والذى يميز الحاميين والإفريقيين، وهى فطس الأنف وفلفلة الشعر. كانت أم بلال من إماء السراة أو من إماء مكة ، وكان سادته بنى جمح واشتراه أبو بكر الصديق ، واعتقه بعد مارأى من تعذيبه، وكان من عمل بلال فى صحبة النبي قبل بناء المصلى أنه كان يحمل العنزة بين يديه (ص) ويركزها حيث تقام الصلاة، وكانت إحدى العنزات الثلاث التى أهداها النجاشى إلى النبي، وقد ظلت تتداولها أيدى الحراس فى عهود ولاة المسلمين بعد عصر الخلفاء . وكان

---

(١) الحبشان ص ١٤٦ .

(٢) الطراز المنقوش ص ١٣٥ ب .

من عمل بلال أيضاً حمل الزاد للرسول فى خرجاته (ص)، ولهذا سمى خازن الرسول . وكما كان بلال أول ثمرة من ثمار الحبشة فـكذلك كان أول مؤذن فى الإسلام، ويقال إنه ربما كان قد تلقن من والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التى شاعت فى الحبشة باسم الديانة المسيحية فى القرن الرابع الميلادى فهيأت ذهنه لقبول وحدانية الإسلام.

وعرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة ، وتحويل القبلة من بيت المقدس الى مكة ، وقد تبين للنبى أنه فى حاجة إلى طريقة لدعوة المسلمين إلى إقامة الفرائض العامة والشعائر العلنية ، وخطر للنبى أول الأمر أن يتخذ بوقا للدعـوة إلى الصـلاة أو ناقوسا أو ناقورا من الخشب ولـكن لم يرغب فى استخدام أداة كان يستخدمها اليهود فى بعض الصلوات [١].

وكانت توكل إلى العبيد بعض المهن الصغيرة بالإضافة إلى مايقومون به من خدمة سادتهم، فكان يسار مولى المغيرة بن شعبة يرش المسجد النبوى ويكنسه [٢]. وكان أنجشة مولى النبى (ص) حسن الصوت بالحداء وكان يحدو بالنساء [٣]. ودخل عمر على النبى

---

(١) من رسالة الكاتب لافـكاريو هرن ترجمة الاستاذ العقاد فى كتابه (بلال داعى السماء) ص ١٥٠

(٢) الحبشان ص ١٤١ (٣) نفسه ١٤٦

وغلام حبشى يضم ظهره (ص) لأئن ناقة كانت اقتحمت به [١] .
وكان من الحبشيات الإماء من ينبذن التمر للنبي فى سقاءٍ عشاءً فتوكئه
فاذا أصبح شرب منه [٢] . وكان أيمن بن عبيد مولى الرسول
متوليا أمر مطهرته (ص) وتعاطيه حاجته [٣] .

ومن الطريف مايحكى عن موليين كانا لرسول الله ، أحدهما
حبشى والآخر قبطى، تشاتما يوما، فقال أحدهما للآخر ياحبشى وقال
الآخر له ياقبطى وذلك من باب المعايرة لبعضهما بالأصل، فقال
لهما رسول الله (ص) «لا تقولا ذلك ، إنما أنتما رجلان من آل
محمد [٤] » .

ومن المعروف عن الأحباش ، وهم فى ذلك كسائر
الشعوب الفطرية ،أنهم سريعو التعبير عن انفعالهم ، ولهذا سرعان
ما تجد الحبشى يعبر بيديه ورجليه وحركات وجهه عما يخالج
نفسه من مشاعر . وما الرقص إلا مظهر من مظاهر هذه الطبيعة
وهذه ظاهرة تتحقق فى كثير مما وصلنا من أخبارهم. من ذلك مايروى
أن حبشيا سأل النبي (ص) هل يدخل الجنة مع سائر المسلمين ،
فطمأنه النبي فبكى الحبشى حتى فاضت روحه . قال ابن عمر : فلقد

---

(١) الحبشان ص ١٤٤—١٤٥ (٢) نفسه ص ١٥٦
(٣) نفسه ص ١٧٠ (٤) نفسه ص ١٤٥

رأيت رسول الله يدليه فى حفرته (يعنى بيده الشريفة) [١]. وذكر النبي النار ذات يوم وبين يديه حبشى فداشتد بكاؤه، فنزل جبريل عليه السلام وقال يا محمد إن الله تعالى يقول وعزتى وجلالى وكرمى وسعة رحمتى لاتبكى عين عبد فى الدنيا من مخافتى إلا أكثرت ضحكه فى الآخرة [٢]. ويروى أن حبشيا أتى النبي (ص) فقال يارسول الله! إنى كنت أفعل الفواحش، فهل لى من توبة؟ فقال له النبي (ص) نعم، فولى الحبشى ثم رجع فقال يارسول الله! أكان الله يرانى وأنا أعمل؟ فقال له النبي (ص): نعم يا حبشى، فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه [٣]. ولعلنا نذكر الآية الكريمة: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) فقد قيل إنها نزلت فى قوم من الحبش [٤].

على أن للأحباش صفة عظيمة هى الشجاعة فى القتال. والإسلام مدين لهم من هذه الناحية أيضا. نذكر وحشى بن حرب الذى كان يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية «يعنى حمزة ابن عبد المطلب عم النبى» وشر الناس فى الإسلام «يعنى مسيلمة الكذاب». وكانت أم أيمن قد ولدت من زيد بن حارثة أسامة بن

---

(١) الحبشان ص ١٤٤ـ١٤٥ (٢) نفسه ص ١٤٧

(٣) الحبشان ص ١٤٧ (٤) نفسه ص ٤٢

زيد ،وهو بطل من أبطال الإسلام(توفى حول سنه ٥٧هـ)قد استعمله النبي (ص) وهو ابن ثماني عشرة سنة على جيش كان فيه عمر بن الخطاب،وأمره أن يسير به إلى الشام . ولما فرض عمر بن الخطاب للناس،فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف ، وفرض لابنه عبدالله ابن عمر بن الخطاب ألفين. فقال له ابنه : أراك قد فضلت على أسامة ياأبي، وقد شهدت مالم يشهد من المشاهد ، فقال له: إن أسامة وأباه كانا أحب إلى رسول الله منك ومن أبيك (١)، وقيل إن أبا عامر الراهب أحد الكفار فى زمن النبي، وكان النبي يسميه الفاسق، حارب النبي فى مكة، وفى أحد،ويقال إنه لقى المسلمين فى الأحابيش وعبدان أهل مكة [٢] . والأحباش بطبيعتهم يحذقون فن القتال ، ويتعلقون بأساليب النضال.وقد عرف العرب فيهم هذه المزية كما استعاروا منهم ألفاظا تدل على أسلحة القتال [٣] . وكان لعبد الله بن أبي ربيعة عبيد من الحبشة ، يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كثيرا ، فروى عن سفيان بن عيينة أنه قيل

---

(١) الحبشان ص ١٦٨ ـ ١٦٩

(٢) ابن اسحاق ص ٥٦١ ـ ٥٦٢

(٣) ومن ذلك المعابل (وهى آلات مدببة تشبه السهام والنبال) فهى فى الحبشية معبلت جمعها معابل ، والدروع ، والوضف بالوضاف (فى الحبشية وضف وضافى أى رمى بالمقلاع) Noeldeke, p, 53, 55 – 6

لرسول الله (ص) حين خرج إلى حنين : هل لك فى حبش بنى المغيرة تستعين بهم ؟ فقال: لاخير فى الحبش، إن جاعوا سرقوا، وان شبعوا زنوا، وإن فيهم لخلتين حسنتين، إطعام الطعام، والبأس يوم البأس (١).

وكان كثير من هؤلاء العبيد الأحباش الذين طال بهم العمر بعد موت الرسول (ص)، يعتكفون فى ديارهم ، وينقطعون عن الحياة السياسية ، ويعيشون فى عزلة وانكماش بعيدا عن الناس ، فقد ذهب بلال إلى دمشق، وآثر حياة العزلة حتى مات ٢٠ أو ٢١هـ ونزل أبو بكرة مولى الحارث بن كلدة الثقفى بالبصرة ، فلم يسمع عنه خبر حتى مات، ونزل وحشى بن حرب بحمص فى آخر أيامه وظل بها حتى مات . وكان عثمان بن مظعون وهو من الذين هاجروا إلى الحبشة من مسلمى مكة مجتهدا فى العبادة ، يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويتجنب الشهوات ، ويعتزل النساء حتى إنه استأذن رسول الله (ص) فى التبتل والاختصاء فنهاه عن ذلك (٢).

٤

هاجر جعفر بن أبى طالب بعد البعثة التى هاجرت إلى ملك الحبشة لمفاوضته ، تصحبه زوجه أسماء بنت عميس . وكان جعفر

---

(١) أغاني طبعة دار الكتب حـ ١ ص ٦٥ (٢) الحبشان ٥٨ ٣ــ ٢٥٩

شخصية قوية ، محبوبة لدى الرسول ، وله (ص) فيـه أحاديث تدل على حبه له ، ويقال أنه كان يشبه النبي فى خلقه وخلقته[١] .

ولقد أبلى جعفر فى الحبشة بلاء حسنـا فى الدفاع عن قضـية المسلمين بين يدى ملـكهم أصحمة. وولد لجعفر فى أرض الحبش عبد الله وعون ومحمد ، وقيل أنه لما ولد النجاشى ابنا كانت أسماء بنت عميس ترضعه مع ابنها[٢] .

وقدم جعفر عام خيبر على النبى (ص) (أى فى السنة السابعة للهجرة)، وإذا صح أنه كان قد هاجر إلى الحبشة فى السنة الخامسة من مبعث النبى ، فهو قد مكث زهاء أربعة عشر عاما فى الحبشة ، وهى فترة طويلة كفيلة بإحداث مؤثرات فعالة فى جعفر وأصحابه .

وفد عـلى النبى مع جعفر وفد من زعماء الحبشة ، اختلف العلماء فى عدده ، قيل كان عددهم اثنين وستين رجلا، وقيل ثمانية شاميون واثنان وثلاثون رجلا من الحبشة[٣] .

ومهما يكن من أمر، فإن من هؤلاء الأحباش من بقى بجوار الرسول،وتطوع لخدمته وخدمة المسلمين .فيروى أنه كان من بين القادمين منهم ذو مخمر (أو ذو مخبر) ابن أخى النجاشى ، وقد لزم

---

(١) الحبشان ص ٢١٧

(٢) نفس المرجع ص ٩٦٤

(٣) نفس المرجع ص ١٤٢

النبي ملازمة كلية حتى عده بعض العلماء من مواليه ونزل الشام فى آخر أيامه ، ومات فى حدود الستين للهجرة ، وقد روى الحديث عن النبي، فروى عنه قوله: « تصالحون الروم صلحا آمنا وتغزون أنتم وهم عدوا من ورائهم ،فتسلمون ، وتغنمون ، ثم تنزلون بمرج ذى تلول ، فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب ويقول ألا غلب الصليب ، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله ، فعند ذلك تغدر الروم ، وتكون الملاحم ، فيجتمعون إليكم ، فيأتونكم فى ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف». وحديث آخر رواه ذو مخمر : « كان هذا الأمر فى حمير فنزعه الله منهم ، فجعله فى قريش وسيعود إليهم »[1] .

وهذان الحديثان ينمان عن روح حبشية سياسية ظاهرة ، فالأول حديث الخبير بالروم وتحالفها ومسيحيتها ، وفى حديثه روح تنبؤية قريبة من نزعة الأحباش فى نظرتهم الدينية . والثانى يتحدث عن حمير ، ومن أكثر خبرة بحمير من هذا الحبشى ؟ ؛ وهو حديث سياسى يخبرنا عن تنقل السلطان بين حمير وقريش . ويتنبأ بصيروة الغلبة لحمير آخر الأمر ؛ وفيه روح تمالىء حمير ، وتشير إلى عصبية جنسية خفية سنرى آثارها بعد قليل .

---

(١) الحبشان ص ١٣٣ ـ ١٣٤

ومن الآثار التى أفادها جعفر من هجرته مايروى أنه لماقدم على النبى سنة ٧ هـ احتفى به النبى (ص) ، فصار جعفر يحجل حوالى النبى (ص) (وفى رواية وصار يرقص) وقد أقره (ص) ولم ينكره عليه[١] . كذلك من آثار النساء المهاجرات مايروى أن فاطمة لما حضرها الموت قالت لأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب : يا أسماء إنى والله لمستقبحة لما يصنع بالنساء إذا متن من طرح الثوب على إحداهن عند حملها الذى ربما وصفها . فقالت لها أسماء : الا أريك شيأ رأيت الحبش يصنعونه بنسائهم إذا متن ؟ قالت : نعم . فدعت أسماء بجرائد خضر فجىء بها فأخذت أطرافها فحنتها ثم طرحت ثوبا عليها ... فلما رآه أبو بكر حسبه هودجا لقرب هيئته من هيئة الهودج (٢)

وقد قيل إن نساء رسول الله تذاكرن عنده فى مرضه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذكرن من حسنها وتصاويرها ، وكانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا من أرض الحبشة ، فقال رسول الله (ص): «أولئك قوم إذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره

---

(١) قيل ومن هنا أخذت الصوفية جواز الرقص عندها من لذة المواجيد فى مجالس الذكر والسماع . والحجل المشى على رجل واحدة بما يشبه الرقص . (الحبشان ص ٩٢) .

(٢) الحبشان ص٩٢

مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله [١] .

٥

يقول الباحث لا فكاديو فى رسالته [٢]: « ذكر الدكتور بيرون فى كتابه عن النساء العربيات الذى نشر بالجزائر ١٨٤٨ أن معظم المشهورين بالغناء كانوا عبيدا ، وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الإجمال من الحبش أو الزنوج. ولا يبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد ولا يزال لأغانيهما بقية مروية فتاتين حبشيتين ، وتقول الأخبار أنهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد».

وربما يرجع السبب فى أن المغنين كانوا من بين الموالى فى بلاد العرب إلى نقص فى الأداة الصوتية أو القدرة الفنية عند العربى الأصيل، أو أنفة من هذه الصناعة واعتقاداً منه بأن الغناء بالنساء أولى ،وإنما كان العرب أهل تجارة وحرب فلعلهم انشغلوا عن صناعة الغناء بالقتال وتسيير القوافل .

وكان للعرب صناعة غناء لا ينكرونها وهى الحداء والنصيب

---

(١) طبقات ابن سعد القسم الثانى من الجزء الثانى ص ٣٤

(٢) نقلا من كتاب بلال داعى السماء للاستاذ العقاد ص ١٥٠ وما بعدها

وما إليه [١] .

« وكانت الأنغام العربية لاتتعدى أنواعا ثلاثة :

١ ــ النغم البسيط ويغنى به فى مقام الوقار ، ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء .

٢ ــ النغم المركب ويتألف من حركات عدة ، وترجيعات صوتية كبيرة .

٣ ــ النغم الخفيف وهو يستخف السامع إلى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه » .

« ولما كان بلال عبدا ، وكان لاريب فى بعض أوقاته يسوق الأبل، فقد كان على الارجح يتغنى بالحداء، ويعالج النغم البسيط، وربما وجد من وقته متسعا لترديد الأصوات المركبة ، واستطاع أن يلقى الأذان فى ألحانه المعروفة متأثرا بطابعه الحبشى،ولا يبعد أن يكون بلال قد سمع الأذان، وصاغ منه اللحن الذى أوحته إليه سليقته الإفريقية،فأقره النبى عليه كما أقره على بعض الزيادات التى أضافها إلى أذان الصبح كقوله (الصلاة خير من النوم) [٢] .

وكان من الأحباش من يقوم بصناعة الرقص واللعب بالحراب فى الحفلات والأعياد فى الجاهلية وصدر الإسلام ، وروى أن

---

(١) بلال ص ١٥٥ وما بعدها

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحات .

الحبشة لعبوا بحرابهم فى المسجد، فكان النبي يستعرضهم مع عائشة وهى متكئة على منكبيه كما يروى أن الحبشة قد زفنوا بين يدى الرسول [١] . وكانوا يرقصون ويقولون محمد عبد صالح فقال الرسول: ما يقولون ؟ قالوا : يقولون محمد عبد صالح [٢]. ورؤى الأحباش يلعبون فأخرج أحد الصحابة درهمين فأعطاهم [٣]. وأخذ المسلمون من الأحباش بعض أنواع الرقص وهو الحجل الذى صنعه جعفر احتفاء بالنبي حين قدم من الحبشة . وفى اللغة القنين من أسماء طنبور الحبشة .

وكما كان غير مستساغ لدى العرب الصرحاء أن يقوموا بصناعة الغناء كذلك كان الرقص فى نظرهم، فهم يعدونه مهنة لا تليق بأمثالهم، وإن كان لديهم أنواع أخرى من الرقص لا يرون فيها عيبا كما كان لهم أنواع من الغناء (الحداء والنصيب) لا يرون فيها عيبا كذلك . حتى الحبشى منهم كان إذا صلحت حاله وعلا مركزه يأنف من صنعة الرقص ، ولقد مر نصيب الشاعر بعد أن اتصل بالخليفة وحسنت حاله، بابن خالته سحيم وهو يزفن ويزمر مع السودان ، فأنكر ذلك عليه وزجره [٤].

---

(١) الزفن والزفيف نوعان من رقصهم يمتازان بالسرعة وتوالى الحركة .
(٢) التراتيب الادارية طبعة الرباط حـ٢ ص ١٤١
(٣) نفسه حـ ٢ص ١٤٥
(٤) الاغاني حـ ١ ص ٣٣٩

٦

على أننا نريد الآن أن نعالج مسألة يكتنفها شيء من الغموض، إذ لا نكاد نجد فيها من الأخبار والروايات ما يعيننا على تحقيقها، تلك هي مدى تأثر الأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام بالأحباش.
ونلاحظ أن كثيرا من الشعراء، والأدباء بوجه عام، كانوا في الجاهلية على اتصال بالبيئات الحبشية سواء عن طريق مباشر أو عن طريق اليمن، فضلا عن طائفة من الشعراء الأحباش كانوا قد استوطنوا بلاد العرب، وتعلموا اللغة العربية، ونظموا بها الشعر.

ولقد عرفنا كيف كانت مدينة نجران، بخاصة، معقلا من معاقل المسيحية الحبشية في بلاد اليمن. والأخبار تدلنا على أنه كان لهذه المدنية أثر في تخريج فريق من الشعراء والخطباء من العرب. وكلنا يعرف أن قس بن ساعدة الأيادي كان أسقفا لنجران، كما كان خطيبا مشهورا، سمعه أبو بكر الصديق وأعجب به [1] وهو يخطب في سوق عكاظ خطبته المعروفة «أيها الناس! اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، أنه مامات فات، وكل ماهو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات الخ»
ولعلك تحس في هذه الخطبة روح الحكمة التي يمتاز بها رجال

---

(١) شعراء النصرانية حـ ١ ص ٢١٢

الدين ، كما تحس فيها بذلك السجع الذى يذكرنا بسجع الكهان. ثم إذا نظرنا فى آخر هذه الخطبة نجد قساً قد ذيل خطبته بأبيات من الشعر :

فى الذاهبين الأولين م من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردآ للموت ليس لها مصادر

. . . .

أيقنت أنى لامحالة م حيث صار القوم صائر

وإن ما اتبعه قس من تذييل خطبته بختام شعرى إنما هو طريقة معروفة فى الأدب الحبشى ، حين يسرد رجال الكنيسة من الأحباش قصة حياة قديس من القديسين، أو شهيد من الشهداء، فيذيلون هذه القصة بمقطوعة شعرية ينشدونها عقب الفراغ من سردها ، ويسمونها سلام ، لانها تبدأ بلفظ سلام ، وتتناول الإشارة بذكر أعمال القديس أو الشهيد المترجم له . وتجرى فى أواخر أبيات المقطوعة قافية واحدة. ونظن أن نظام التذييل هذا، ولو انه لم يصل إلينا مدونا إلا فى عصور متأخرة ، متأثر بالأدب الشعبى الحبشى . والمعروف أن الأدب الشعبى فى أية أمة أعمق فى تاريخ أجيالها ، وأبعد تأثرا بالأدب الأجنبى من الأدب الرسمى .

ثم إن هذا الختام الشعرى زاخر بالموسيقى اللفظية التى تتجلى بوضوح فى نظام التقفية وفى تكرار لفظ سلام فى أول كل

شطر ، وهذا التناسق الموسيقى موجود ، من غير شك فى أبيات قس ،موجود أيضا فى ذلك السجع الذى التزمه فى خطبته وتقريبه بين ألفاظه المسجوعة بتقصير عباراته . والمظنون أن السجع فى النثر ، كالقافية فى الشعر ، قد انبعثا من واد واحد ، من معابد الآلهة ، ومن أقوال الكهان ، والسحرة، ومنشىء الرقى والتعاويذ وذلك لما فى السجع والقافية من موسيقى ، وتوقيعات تساعد الكاهن والساحر والراقى على التأثير فى نفوس السامعين وإحاطة صناعته بضرب من التهويل والإغراب ، وما أجدر أن تكون نجران وما شاكلها مركزا لهذا النوع من الأدب .

ويذكر ابن قتيبة أن من أقدم الشعراء الذين لا نعرف عنهم إلا البيت والبيتين، الحارث ولعله الحارث بن كعب زعيم النجرانيين الذى رأينا ذا نواس يعذبه والنجاشى يثأر له . والرواة يذكرون أنه كان شيخا فانيا قد بلغ من العمر خمسة وتسعين عاما، حين أقدم ذو نواس على تعذيبه ، ويروى ابن قتيبة أن الحارث هذا قال :

أكلت شبابى فأفنيته .·. وأفنيت بعد شهور شهورا

ولكنى أشك من نسبة هذا الشعر إليه . وإن كنت أعتقد أن مجرد نسبة الشعر إلى رجل نجرانى ، إن صح أنه النجرانى ، مما يلفت النظر فى هذا المقام.

ويقول القدماء إن الأعشى ، وهو صناجة العرب الذى كان

يغنى شعره ويرتله ، « كان يعود فى كل سنة إلى بنى عبد المدان (وقيل إن عبد المدان رأس هذه الأسرة ، هو الذى بنى كعبة نجران) فيمدحهم ويقيم عندهم يشرب الخمر معهم وينادمهم ويسمع من أساقفة نجران قولهم ، فكل شىء فى شعره من هذا فمنهم أخذه [١] » . ومن أسرة عبد المدان النجرانية شاعر جاهلى معروف يقال له يُزيد بن عبد المدان ترجم له الأغانى . [٢]

ثم نرجع إلى شعراء اليمن فى الجاهلية فنجد امرأ القيس الكندى ، وكندة كما رأيت ، كانت متجه أنظار الغزاة من الأحباش منذ قديم الزمان . فغزاها أفيلاس فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أخضعها أبرهة وولى عليها يزيد بن كبشة فى القرن السادس الميلادى . كذلك كان من الشعراء الجاهليين من اتصلوا بأهل اليمن ، وعاشوا معهم كما فعل الأعشى ، ومنهم أمية بن أبى الصلت ، وكان تاجرا متصلا باليمن وله شعر فى مدح سيف بن ذى يزن ، كما أنه يذكر فى شعره كثيرا من الآثار اليمنية .

أضف إلى هؤلاء طائفة من الشعراء ينحدرون من سلالة حبشية ، منهم عنترة بن شداد ، وخفاف بن ندبة ، وسليك بن

---

(١) الأغانى حـ ١٠ ص١٣٦ . يشير النص بقوله من هذا الى بيت الاعشى :
استأثر الله بالبقاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا .

(٢) الاغاني حـ ١٠ ص ١٣٦ .

السلكة ، وسحيم عبد بنى الحسحاس ،ويقال للثلاثة الأولين أغربة العرب ، سموا كذلك لسواد لونهم .[١]

فلعلنا نستطيع ، بعد الذى سبق ذكره ، أن نزعم أنه كان للأحباش أثر ، فى وضع لبنة فى بناء موسيقى الشعر العربى . وربما يؤيد ما نذهب إليه ، مانعرفه من أن الأحباش كما مر ، قد أدخلوا ضروبا من الرقص والغناء فى الحجاز ، والصلة وثيقة بين الشعر والرقص والغناء ، ولا يبعد أن يكون الشعر قد أفاد من توقيعات الرقص والغناء كما أفاد الأذان من صوت بلال وطريقته فى الغناء .

واذا رجعنا إلى الشعراء من الأحباش فى الجاهلية وصدر الإسلام ، نجدهم على وجه الإجمال غزلين أو فرساناً . والحبشى بطبعه يميل إلى الغزل الجامح الذى يصل أحيانا إلى درجة المجون. ومن المعروف أن الأحباش، لكونهم أمة تعيش على الفطرة ، لا يتورعون فى التعبير عن انفعالهم وغرائزهم ، والعرب أنفسهم يعرفون فيهم هذه الطباع فقد حكم النبي (ص) على عبيد الحبشة

---

(١) بالاضافة إلى هؤلاء تطلق أغربة العرب أحيانا على نفر من الشعراء وهم عمير بن الحباب ، وهشام بن عقبة بن أبى معيط ، وتأبط شرا ، والشنفرى وعبدالله بن خازم ، وعمير بن أبي عمير ، وهمام بن مطرف ،ومنتشر بن وهب ومطر بن أوفى ، وحاجز ، ولم يثبت لدينا أن واحدا من هؤلاء ينتسب الى جنس حبشى .

بأنهم قوم «إن جاعوا سرقوا ، وإن شبعوا زنوا» . ويروى أن عبد الله بن أبى ربيعة اشترى الشاعر الحبشى سحيما وأحب أن يهديه إلى عثمان بن عفان فكتب إليه «لا حاجة لنا فيه ، إنما حظ أهل الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم وإذا جاع أن يهجوهم[1]».
وفى الأدب الحبشى بعض الأناشيد الدينية يسمونها ملكى، وهو عبارة عن شعر يصف القديس أو الشهيد وصفا دقيقا من رأسه حتى أظافر أصابع رجليه وهو لا يتحرج من ذكر القبيح ، وهو يذكرنا بشعر نشيد الانشاد فى التوراة .

ولعل سحيما عبد بنى الحسحاس خير مثال على هذه الطبيعة ، فهو عبد حبشى، اشتراه أبو سعيد فشبب ببنته عميرة، وفحش وشهرها ومن ذلك قوله فيها :

ألكنى إليها عمرك الله يافتى   بآية ما جاءت إلينا تهاديا[2]
وبتنا وسادانا إلى علجانة   وحقف تهاداه الرياح تهاديا[3]
وهبت شمال آخر الليل قرة   ولا ثوب إلا بردها وردائيا
توسدنى كفا وتثنى بمعصم   على ، وتحوى رجلها من ورائيا
فما زال بردى طيبا من ثيابها   إلى الحول حتى أنهج البرد باليا[4]

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٤٢ .
(٢) ألكنى إليها : أبلغ رسالتى إليها .
(٣) علجانة شجرة معروفه والحقف ماتراكم من الرمل .
(٤) أنهج البرد أى أخلق وبلى .

ومع ذلك فقد كان سحيم دميم الخلقة ، قبيح المنظر وهو القائل فى نفسه :

أتيت نساء الحارثيين غدوة   بوجه براه الله غير جميل
فشبهننى كلبا ، ولست بفوقه   ولا دونه ، إن كان غير قليل

وكانت فيه لكنة حبشية ، وكان ربما أنشد فيقول أحسنك والله ، يريد أحسنت [١] واللغة الحبشية تستخدم الكاف للمتكلم والمخاطب بدلا من التاء التى تستعمل فى العربية [٢] ،

وهو من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام ولا تعرف له صحبة ولما انشد عمر بن الخطاب هذا المطلع :

عميرة ودع إن تجهزت غاديا   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

قال له عمر : لو كنت قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك فقال سحيم ماسعرت يريد ماشعرت [٣] .

وأكثر شعره فى الغزل ، وقد أورد طائفة منه البغدادى فى

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٤١

(٢) ويروى النحاة شاهدا على إبدال الكاف من التاء قول الراجز :

ياابن الزبير طالما عصيكا   وطالما عنيكنا إليكا
لنضربن بسيفنا قفيكا .

وأورده أبوزيد فى نوادره ونسبه لراجز من حمير (خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٢٥٧)

(٣) خزانة ج ١ ص ٣٧٢

خزانة الأدب [١]. ومات سحيم مقتولا، وقيل إن سبب قتله كانت امرأة يحبها، وكان آخر ماقال وهو مقدم للقتل :

شدوا وثاق العبد لا يغلبكم إن الحياة من الممات قريب

فلقد تحدر من جبين فتاتكم عرق على ظهر الفراش ،وطيب [٢]

ويروى أن عنترة بن شداد كان يعشق عبلة ، ولكن أكثر ما قال فى شعره فى الحرب والفروسية .

ويروى أن عمر بن أبي ربيعة كانت أمه أم ولد من حضرموت أو من حمير أو من الحبشة ،وقيل بل الحبشية أم أخيه . ويرى بعض الرواة إن من حمير أتاه الغزل [٣] ويقال غزل يمان ودل حجازى [٤] .

ونصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان كان شاعرا غزلا أيضا ، وكان حبشيا ، كان يأتى مشيخة من بنى ضمرة ، وهم مواليه ومشيخة من خزاعة فينشدهم القصيدة من شعره ثم ينسبها الى بعض شعرائهم الماضين، فيقولون: أحسن والله! هكذا يكون الكلام! وكان هذا مشجعاله على الخروج إلى عبد العزيز بن مروان وهو يومئذ بمصر [٥] .

---

(١) نفسه ح ١ ص ٢٧١ ـ ٢٧٤ ،ح ٣ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢

(٢) خزانه ح ١ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ (٣ ، ٤) الاغانى ج ١ ص ٦٦

(٥) الاغانى طبعة دار الكتب ح ١ ص ٣٢٥

وكان منظره لايشجع على الاحترام [١] طلب أن يدخل على عبد العزيز ليمدحه فازدرى وطرد . فلما تمكن من الدخول، صعد عبد العزيز فيه بصره وصوب ثم قال له : أنت شاعر ! ويلك ! فعندما سمع أحد جلساء الخليفة شعره حكم بأنه أشعر أهل جلدته (٢) .

وكانت صاحبة نصيب أم بكر زينب بنت صفوان بن غادى كنانية فى الأصح وليست زنجية كما زعم. وسبب الوصلة بينهما أن صبيا كان يرعى إبلا لمولاه وكانت رعاة مولاه تخالط رعاة صفوان فى المبرك بوادى البوار ،وكانت زينب تأتى رعاة ابيها فتأخذ لبنا ، وأن نصيبا تولع ببرى القسى وإراشة السهام وحجز الأوتار، فبرع فى ذلك حتى اشتهر فى أحياء العرب، وكان يجلس لفعل ذلك وتذهب الرعاة فتقوم عنه بالخدمة، وتتخلف الحلوب من النوق فى المعاطن فتأتى زينب وهى جارية صغيرة، فتأخذ اللبن فينظرها وكان حاذقا حسن التأمل فى دقائق المحاسن ولطائف الشمائل وهى من ذلك فى أرفع المراتب ، فنشأ عنده من حبها ما غير باله فشبب بها ، وفشا ذلك ، فأتت العرب مولاه فقالت إن عبدك هذا قد برع فى الشعر

---

(١) نفسه حـ ١ ص ٣٢٨

(٢) قيل كان لونه حائلا وشعره مفلفلا وخلقته مشوهة (الاغانى حـ ١ ص ٣٤١)

ونخشى أن يشبب بنسائنا، فباعه مولاه لعبد العزيز بن مروان [١].

وقد قص قصاغرامية ليزيد بن عبد الملك [٢] ولعبد العزيز [٣].

وله شعر فى الغزل ، وهو صاحب البيت السائر :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فياويح دعد من يهيم بها بعدى

* * *

أما أثرهم فى شعر الفروسية فى الأدب العربى ، فمنه نوع قاله شعراء الأحباش فى الحروب والقتال ونوع قيل فى الصعلكة .

ومن الصفات الأصيلة فى الأحباش الصبر فى القتال وجراءة القلب وقوة البنية وخفة الحركة . والعرب يسمون ثلاثة من شعراء الأحباش أغربة العرب : وهم عنترة بن شداد وخفاف ابن ندبة والسليك بن السلكة وكانوا جميعاً فرسانا .

أما عنترة وخفاف فقد اشتهرا بالشجاعة فى الحرب وقتال الأعداء . الأول جاهلى ، كان يقال له عنترة الفلحاء ، وذلك لتشقق شفتيه ، وأمه أمة حبشية ، يقال لها زبيبة ، وكان لها ولد عبيد من غير شداد . وروى أن أباه ادعاه مكافأة له على إنقاذه لبنى عبس من بعض الغارات . وله معلقته التى أولها :

---

(١) تزيين الأسواق حـ ١ ص ٩٨

(٢) أغانى حـ ١ ص ٣٥٤

(٣) أغانى حـ ١ ص ٣٧٥

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

وفيها يصف شجاعته وكره وفره على حصانه، وثباته فى القتال وقتله لخصمه الشجاع وهجومه على الأعداء .

أما خفاف بن ندبة، فكان مخضرما أدرك الجاهلية والإسلام، أمه ندبة سوداء حبشية ، وكان شديد الأدمة . وأسلم وشهد فتح مكة ، وكان معه لواء بنى سليم ، وثبت على إسلامه فى الردة ، وبقى إلى عهد عمر بن الخطاب . وكان فى الجاهلية يهاجى العباس ابن مرداس . قال الأصمعى : خفاف ودريد بن الصمة أشعر الفرسان .

أما شعر الصعلكة ، فكان من أبطاله السليك بن السلكة ، وكانت أمه السلكة سوداء ، وهو أحد الصعاليك العدائين الذين كانوا لا يلحقون ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا . وكان إذا جاء الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار ، وكان لا يغير على مضر ، وإنما يغير على اليمن ، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة ، وربما كان هذا راجعا إلى أنه درس مسالك اليمن أكثر من غيرها من جهة ، وأن الثروة والمتاع كان فى اليمن أكثر وأضمن منها فى بقاع الشمال .

كان السليك من أشد رجال العرب ، وكانوا يدعونه سليك

المقانب ، وكان أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها وأشدهم عدوا على رجليه [١] .

وكان إذا جاء الربيع عمد إلى بيض النعام فيملؤه من الماء ويدفنه فى طريق اليمن فى المفاوز . فاذا غزا فى الصيف مر به فاستأثره [٢] ، وكان يعطى عبد الملك بن مويلك الخثعمى أتاوة من غنائمه ، على أن يجيره فيتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن .

* * *

انتقل من الأحباش إلى العرب بعض آثار فى الحكمة . والقرآن الكريم يذكر عن لقمان وصايا قدمها لابنه وهو يعظه [٣] ، وزعم وهب بن منبه أنه قرأ عشرة آلاف فصل من حكم لقمان ، وقيل إن النضر بن الحارث كان قد حفظ (مجلة لقمان) ليضاهىء بها أقوال الرسول فى مجالس قريش [٤] . ويروى أن لقمان هذا كان عبدا حبشيا ، وقيل إنه كان عبدا مصريا أو نوبيا ، وقيل فى مهنته إنه كان نجاراً أو راعيا أو وزيرا لداود أو قاضيا لبنى إسرائيل ، ويجعله الباحثون المحدثون مقترنا بشخصيات

---

(١) الاغانى مط التقدم حـ ١٨ ص ١٣٤

(٢) نفسه حـ ١٨ ص ١٣٥

(٣) سورة لقمان آية ١٣ ــ ١٩

(٤) الطبرى حـ١ ص ١٢٠٨

ثلاث : بلعام بن باعور ، حكيم بنى إسرائيل ، وأحيقار حكيم بابل القديمة ، وإيزوب حكيم اليونان [١] ، وبعد عهد الرسول تتطور شخصية لقمان ، فبعد أن كان يصنع الحكمة القصيرة ، أصبح مؤلفا للقصص الخرافية والرمزية التى تشبه فى تأليفها قصص كليلة ودمنة .

ولقد رأينا كيف كان الأعشى يجالس أساقفة نجران ويأخذ عنهم الحكمة ، ورأينا تلك الحكم التى جرت على ألسنة قس بن ساعدة ، أسقف نجران ، وغيره من المسيحيين الذين تأثروا بالمسيحية الحبشية .

والأدب الحبشى يميل إلى الخرافة ، وحسبك دليلا أن تقرأ تاريخا لأحد شهدائهم أو قديسيهم ، فستجده حافلا بالخوارق ، زاخرا بالمعجزات ، ولم تكن هذه الروح وليدة البيئة الحبشية وحدها ، وإن تكن هذه البيئة الحبشية قد ساعدت على نموها وازديادها . وللقمان قصة فى الجاهلية ، تدلنا على أنه رجل قد بلغ من العمر أرذله ، وأنه قد عاصر النسور السبعة التى آخرها لبد ، وتظهر فى هذه القصة روح أسطورية واضحة [٢] .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية _ lukman

(٢) طبرى ح ١ ص ٢٤٠

ويروى العرب قصة صاحب الحبشة الذى نطق فى المهد (١).
ويروى عن أم أيمن الحبشية أنها لما هاجرت إلى المدينة ، امست بالمنصرف (اسم محل بين مكة والمدينة) فعطشت فأدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض ، فشربت حتى رويت ، فكانت تقول ما أصابنى عطش بعد ذلك أبدا ، ولقد تعرضت للعطش بالصوم فى الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة (٢) .

***

كان العرب فى الجاهلية يعيّرون عبيد الحبشة بسواد لونهم ، وركاكة أنسابهم ، وكان شعراء الحبشة فى الجاهلية يردون عليهم شتائمهم فى رفق وحذر ، فيقال إن عنترة نظم معلقته التى أولها :

* « هل غادر الشعراء من متردم » * لأن رجلا من بنى عبس سابّه ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته وعيره بذلك (٣) ، وهو يرد على ركاكة نسبه بقوله :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا شطرى، وأحمى سائرى بالمنصل

---

(١) الحبشان ص ١١١
(٢) الحبشان ص ١٤٨ ــ ١٤٩ .
(٣) الاغانى ج ٩ ص ٢٢٣

ويعير سحيم بأنه عبد أسود فيجيب بقوله :

إن كنت عبداً فنفسى حرة كرماً   أو أسود اللون إنى أبيض الخلق

ويرد خفاف بقوله :

كلانا يسوّده قومه   على ذلك النسب المظلم

فيظهر من ذلك أنه لم يكن لديهم فى الجاهلية من الجراءة ما يجعلهم يتجاوزون هذا الدفاع السلبي إلى ماهو أبعد من ذلك وأقوى ، كإثبات أن العنصر الحبشى خير من العنصر العربى مثلا ، أو إثبات أن الأحباش غلبوا على بلاد العرب ، وكانوا سادة عليها ردحاً من الزمن ، فلم يذكروا شيئا من ذلك ، كأنهم كانوا يعترفون بضعف أنسابهم وحقارة عنصرهم .

فلما جاء الإسلام وعظم شأن الأحباش ، وأثنى الرسول عليهم ، واعترف المسلمون بفضلهم ؛قويت فيهم الروح المعنوية ، وأخذ أدباؤهم ينافحون عن الجنس الحبشى ، ويفاخرون العرب بماضيهم المجيد ، وقد وجدنا هذه النواة فى أقوال بعض صحابة النبي (ص) من الأحباش .

ومما قوى هذه النزعة ، تلك الهوجة التى انتابت شعراء القرن الأول الهجرى ، والتى دفعت إليها تلك العصبيات القبلية والسياسية والحزبية التى تفشت فى ذلك الحين ، فقد اشتدت الخصومة بين عدنان وقحطان ، وتنبهت الخصومة القديمة بين الشمال والجنوب

ووقف شعراء الأحباش يؤازرون القحطانيين على عدنان . ولا شك أن القحطانيين كانوا أقرب إلى الأحباش من عدنان عنصرا .

فى ذلك الحين تغيرت تلك الروح الضعيفة التى وجدناها فى شعراء الأحباش فانقلبت روحا قوية ، تعير وتفاخر وتشتد وتتعصب ، وهى بلا شك روح كانت مكبوتة من قبل ثم أظهرها الإسلام بما أتاح لهم من نفوذ روحى ، وما أسبغه عليهم من الرعاية والثناء ، لا نستثنى منهم إلا نصيبا ، فقد كان لا يحب الهجاء ولا يصطنعه ، فيروى أنه سئل لم لا يقول الهجاء ؟ فقال رأيت الناس رجلين : إما رجل لم أسأله شيئا فلا ينبغى أن أهجوه فأظلمه ، وإما رجل سألته فمنعنى ، فنفسى كانت أحق بالهجاء إذ سولت لى أن أسأله وأن أطلب ما لديه[1] . فنراه لا يجيب الفرزدق حين يقول فى شعره :

وخير الشعر أكرمه رجالا   وشر الشعر ما قال العبيد[2]

ولا نراه يجيب حين يقول فيه كثير :

رأيت أبا الحجناء فى الناس جائزاً
ولون أبى الحجناء لون البهائم

---

(١) أغانى جـ ١ ص ٣٥٦   (٢) الشعر والشعراء ص ٢٤٣

تراه على مالاحه من سواده — وإن كان مظلوما له وجه ظالم

فان أجاب فإجابته هينة رفيقة ، مر به جرير وهو ينشد ، فقال له : اذهب فأنت أشعر أهل جلدتك، فقال نصيب : وجلدتك يا أبا حزرة [١] .

ولكن جريراً لم يسلم من لسان الحيقطان أحد شعراء الأحباش فى القرن الأول الهجرى حين هجاه جرير ، وقد رأى هذا الأسود ملتفا فى قميصه الأبيض ، فأثار سخريته فقال :

كأنه لما بدا للناس — أير حمار لف فى قرطاس

فلما سمع بذلك الحيقطان ، وكان باليمامة هجا جريرا بقوله :

وإن كنت تبغى الفخر فى غير كنهه
فرهط النجاشى منك فى الناس أفخر
تأبى الجلندى وابن كسرى وحارث
وهوذة والقبطى والشيخ قيصر
وفاز بها دون الملوك سعادة
فدام له الملك المنيع الموقر
ولقمان منهم وابنه وابن امه
وأبرهة الملك الذى ليس ينكر

---

(١) أغانى حـ ١ ص ٣٢٨

غزاكم أبو يكسوم فى عقر داركم

وأنتم كغيض الرمل أو هو أكثر

ثم يذكر أن مكة خالية مما يشجع الغزاة على فتحها :

ولو كان فيها رغبة لمتوج إذا لأتتها بالمقاول حمير

وليس بها مشتى ولا متصيف

ولا كجواثا ماؤها يتفجر

ثم يشتم جريراً ويعير قومه بسبة مشهورة :

ألست كليبيا وأمك نعجة

لكم فى سمان الضأن عار ومفخر

ومن قبله هجاه النجاشى شاعر اليمن بهذا المعنى .

ومن شعراء الحبشة فى ذلك العهد عكيم الحبشى ، قيل إنه كان أفصح من العجاج بن رؤبة ، وكان علماء الشام يأخذون عنه. سمع عكيم أحد شعراء بنى كلب (وهو حكيم بن عياش الكلبى) يقول :

لا تفخرن بخال من بنى أسد

فان أكرم منها الزنج والنوب

فأحس الشاعر الحبشى فى هذا البيت إهانة لكرامة قومه السود ، وهو واحد منهم ، فرد عليه بقوله :

ويوم غمدان كنا الأسد قد علموا
ويوم يثرب كنا نخـلة العرب
وليـلة الفيـل إذ طارت قلوبهم
وكلهم هارب موف عـلى قتب
منا النجاشى وذو العقصين صهركم
وجـد أبرهة الحـامى أبى طلب
هبنى غفرت لعـدنان تهكمهم
فما لحمـير والمقوال فى النسب
جمارة جمعت من كل محزبة جمع الشبيكة فوق الزاخر اللجب
وهم السود اليمانون فى قول الشاعر :
إذا النفر السود اليمـانون حاولوا
له حوك برديه أرقّوا وأوسعوا

الكتاب الثانى

الباب الأول

الحبشة والدول الإسلامية

١

أصبحت حدود الحبشة فى هذه الفترة أكثر وضوحا ، وقد انفصلت النوبة عنها ، وهدأ إلى حد ما كان يحدث من تنازع القبائل والشعوب على حدودها ، فأصبحت تحد من الشمال والشمال الغربى ببلاد النوبة والسودان المصرى ، ومن الشمال والشمال الشرقى بأريتريا الإيطالية والسومال الفرنسى والسومال الإنجليزى ومن الجنوب بإفريقية الشرقية البريطانية [١] .

ولقد سايرنا تاريخ الدولة الأكسومية وعلاقتها بالعرب منذ قيامها حتى نهاية القرن السابع . والفترة التى بين نهاية القرن السابع وحول منتصف القرن الثالث عشر ، غامضة فى تاريخ الحبشة ، لا نعرف عنها إلا النزر اليسير . ولم نسمع أن رحالة من المسلمين

---

(١) Budge vol. 1, P. 122.

جاسوا خلال هذه البلاد ، فى تلك الفترة وظفروا بأخبار هامة عنها . وهذا هو السبب فى أن الجغرافيين من العرب لم يتعرضوا لذكر شىء ذى غناء عن بلاد الحبشة ، فابن خرداذبة واليعقوبى وابن رستة والمقدسى وغيرهم لم يذكروا من هذه البلاد إلا جرمى التى زعموا أنها حاضرة البـــلاد . وكان أول من ذكر ذلك الخوارزمى فى كتابه صورة الأرض . وفرق الخوارزمى فى كتابه بين مدينة جرمى الكبيرة وجرمى الواقعة فى بلاد الحبشة . ويقول المسعودى [١] إن بلاد الحبشة كثيرة ، ولكنه لا يذكر منها إلا مدينة كعبر ، ويزعم أنها عاصمة ملك الحبشة (لعلها أنكوبر أو أكسوم أو قلغور [٢]). ويشير ياقوت والمسعودى إلى جزر الباضع [٣] (لعلها تحريف الناصع وهو الاسم القديم لمدينة مصوع ، ثم أطلق عليها هـذا الاسم الأخير قبيل القرن الثالث عشر الميلادى) . ويشيران إلى دهلك ، وهى مجموعة من الجزر تقع قبالة مصوع فى البحر الأحمر ، وكلما تقدم الزمن ، وجدنا أخبار المسلمين المؤرخين عن هـذه البلاد تزداد وضوحاً وتفصيلا ، وإن كانت تفتقر فى كثير من الأحيـــان إلى الدقة

---

(١) مروج الذهب ح ٣ ص ٣٤

(٢) جويدي فى دائرة المعارف الاسلامية – Abyssinia

(٣) التنبيه ص ٣٣٠ والطبرى ح ١ ص ٢٤٨٠ وما يليها

والصحة ، حتى إذا جاء القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ، رأينا المؤرخين يذكرون أسماء بعض القبائل الحبشية مثل أمحرة (أمهرة) وسحرت (سهرت) وداموت وغيرها . على أن المقريزى هو أول مؤرخ عربى كتب كتابة صحيحة عن هذه البلاد وأخبارها فى عصره (فى القرن الخامس عشر) ، وذلك فى رسالته التى سماها « الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام » وقد كتبها وهو بمكة عام ٨٣٩ ﻫ (١٤٣٤ — ١٤٣٥ م) .

وحول عام ١٥٤٣ م كتب المؤرخ العربى « عرب فقيه » كتابامفصلا تحدث فيه عن غزوة أحدملوك المسلمين (أحمد محمد جرانى) الذى كانت دولته تحتل جزءاً من الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، ثم غزا بلاد الحبشة واستولى عليهافترة من الزمن.

ولم تكن هذه الفترة (أعنى التى بين القرنين السابع والثالث عشر الميلاديين) غامضة فيما ذكره مؤرخو العرب فحسب ، بل كانت كذلك فى غيره من المصادر التاريخية ، والظاهر أن الدعاية اليهودية فى تلك البلاد كانت قد آتت ما ترجوه من الثمار فى هذه الفترة ، فقد عظم نفوذ اليهود وترك كثير من الناس الديانة المسيحية، وزادت الحالة سوءا على سوء ، حتى كان النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، فوجد اليهود الفرصة سانحة لامتلاك ناصية الحكم فى البلاد ، فقامت امرأة يهودية كانت متملكة على

الفلشة فى منطقة سمين الواقعة شمالى الحبشة من جهة الشرق ، وهى منطقة نفوذ يهودى منذ عصور قديمة ، ويطلق على هذه الملكة يوديث [١] أو إستير ، وزحفت على رأس ثوار اليهود تساعدها جموع من قبيلة زاجوا (وهم فرع من الأجاو) وكانوا مسيحيين . ويذكر بعض المؤرخين العرب رسالة أرسلها ملك الحبشة إلى حورج مطران النوبة يسأله أن يستخدم نفوذه عند بطريق الإسكندرية لإرسال مطران للحبشة ، وتحدث الملك فيها عن ملكة غزت البلاد وأحرقت المدن وخربت الكنائس وطردت الملك من مكان إلى آخر . وقد أمكن لبعض الباحثين أن يستنتج من بعض نصوص هذه الرسالة أن الملكة اسمها حواء اليهودية ، وأنها تنتمى إلى قبيلة زاجوا الأجاوية [٢] ، واستولت على مملكة أكسوم ، وذبحت كل الثوار الذين كانوا يتحصنون فى قلعة دامو ونصبت نفسها ملكة على الحبشة ، وأنزلت بأكسوم الخراب والدمار وقضت على المسيحيين فيها ، ولكن الغريب فى الأمر أن خلفاءها الذين حكموا على هذه البلاد وقدموا من إقليم لاستا وكانوا يمتون إليها بصلة القرابة، إنما كانوا يدينون بالمسيحية ، ولكن مسيحيتهم

---

(١) يشك الباحثون فى تفاصيل هذه الرواية من الوجهة التاريخية (Budge, vol, 1,p. 214,) ويوديث لفظ عبرى معناه يهودية .

(٢) Budge, vol .1 p. 215 .

كانت مختلفة عن المسيحية التى كان يدين بها الأكسوميون من قبل اختلافا كبيرا[١] ، والظاهر أنه كان لفتوح العرب فى البلاد المختلفة وتعاليم الإسلام التى نقلت لمحات منها إلى الحبشة هجرات المسلمين فى عصر الرسول ، ووفود الحبشة إلى النبي، وهؤلاء العرب المسلمون الذين كانوا يهاجرون إلى ساحل أريتريا والسومال ويستوطنون بعض مدنه ، ويتصلون باليهود لأسباب اقتصادية وسياسية ، كان من أثر ذلك كله أن عبرت بأذهان الأحباش أفكار خاطفة عن الإسلام ربما نبهت أذهانهم ، ووجهتهم إلى أفكار جديدة يغذون بها المسيحية واليهودية ، وساعد على ذلك ما تصنعه الدعاية اليهودية فى البلاد ، ثم ما نلاحظه من أن الأحباش ، كما يظهر ذلك كلما أمعنا فى دراسة طبيعة هؤلاء القوم وتاريخهم ، لم يفهموا العقائد السماوية التى اعتنقوها على وجهها الصحيح ، وإنما أباحوا لأنفسهم أن يمزجوها بخرافاتهم ومعتقداتهم القديمة .

وقد قيل إن أحد عشر ملكا (وقيل تسعة ملوك) حكموا ٣٤٣ عاما بعد هذه المملكة ، أشهرهم لاليبلا بن چان شيوم (أى ابن الملك شيوم ، ويقال إنه حدث قحط شديد فى مصر فى عهد المستنصر بالله ومكث سبع سنوات (١٠٦٦ — ١٠٧٢ م) ، وكان

---

(١) Budge, vol, 1 P. 154

المستنصر بالله يعتقد أن الأحباش قد حولوا مجرى النيل ، فأدى ذلك إلى هذا القحط ، فأرسل سفارة إلى ملك الحبشة تحمل إليه هدايا ثمينة ، وتطلب اليه أن يعيد النيل إلى مجراه الأول [١] .

وقدظلت أسرة زاجوا حاكمة على بلاد الحبشة حتى قام نزاع بينها وبين «يكونو أملاك» الذى زعم أنه سليل سليمان بن داود عليه السلام ، وانتهى النزاع ، بتوسط أحد رؤساء الأديار فى الحبشة، باعتلاء يكونو أملاك عرش الحبشة سنة ١٢٧٠ م ؛ وبذلك عد هذا الملك مؤسس الدولة السليمانية فى بلاد الحبشة أو معيد عرش الأسرة السليمانية (إذا أخذنا بالأسطورة المعروفة) .

واتخذ « يكونو أملاك » عاصمته ، فى مرعدى باقليم أمحرة ؛ وبهذا انتقلت حاضرة البلاد من أكسوم إلى أمحرة ، ولقب الملك منهم بالحطى . وأصبحت اللغة الرسمية فى البلاد اللغة الأمحرية (بدلا من الجعز التى كانت قد ضاعت كلغة حديث وأصبحت لغة للكنيسة) . واللغة الأمحرية لغة سامية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وملوك هذه الدولة يدينون بالمسيحية ويتمسكون بالمذهب اليعقوبى القائل بأن المسيح ذو طبيعة واحدة . وقد عرف الأحباش بالتحمس الدينى . والسياسة ترتبط عندهم بالدين وبالثقافة ارتباطا وثيقا ، فملوك الحبشة يحملون ألقاباً مسيحية حين يجلسون على

Budge, vol. 1, P. 279 (١)

العرش مثل جبر مسقل (أى عبد الصليب) وهو لقب لاليبلا ، ونأكواتو لأب (أى شكراً للأب) ، ونواى كرستوس (أى إناء المسيح) ، وبئيد مريم (أى بيد مريم) ، ولبنا دنجل (أى بخور العذراء) الخ .

ودخلت المسيحية وحيـــاة الأحباش أقرب إلى الفطرة والهمجية فأدخلت معها كثيرا من الأفكار والنظم والأساليب فى مختلف نواحى الحياة ، فهم ـ إلى حد ما ـ مدينون للمسيحية حتى فى نظمهم السياسية الإدارية . ومن ثم كانت الصلة وثيقة بين السياسة والدين عندهم . ولمطران الحبشة ، المصرى الأصل، أثر كبير فى التوجيه السياسى والإدارى والدينى ، فإن له نفوذا كبيرا فى هذه البلاد ، وعليه يعتمد ملوك الحبشة فى شئونهم الدينية والسياسية . وكثيرا ما حاول المطارنة المصريون إصلاح مايجدونه متفشيا فى المجتمع الحبشى بمايتمشى مع دينهم وعقائدهم ؛ فقد بذل المطران ساويرس فى محاربة تعدد الزوجات جهدا مشكورا تنفيذا لأوامر البطرك كيرلس[1] . كذلك من الممكن أن يقال إن الأدب الحبشى أدب كنسى مسيحى ، ظهرت بواكيره بظهور المسيحية فى ترجمات الكتاب المقدس والكتب التى احتاج اليها مسيحيو الأحباش فى أداء شعائرهم الدينية .

---

(١) أبو صالح الأرمنى ص ٢١٠

٢

لا شك أن هجرات العرب إلى سواحل أريتريا والسومال كانت مستمرة منذ عصور قديمة . والظاهر أن العرب كانوا قد تعودوا أن يجدوا في هذه السواحل ملجأ يفرون اليه ، ومنفذاً يفزعون اليه من ظروف الحياة القاسية التى قضت بها طبيعة بلادهم وأساليب الحياة فيها ، وكان العرب يجدون فى هذا الساحل فرصاً كثيرة لكسب الرزق باحتراف التجارة وسائر المهن البحرية المختلفة . ولم تنقطع الهجرات الى هذه السواحل حتى الوقت الحاضر ، حيث يحدثنا ليتمان أن قبيلة عربية ، يقال لها الرشايدة هاجرت فى العصر الحديث من بلاد العرب الى الجانب الآخر من ساحل البحر الأحمر ، وأخذت تتأثر الطابع الإفريقى ،وتتكلم لغة التيجرى الى جانب لغتها العربية (١) .

على أن ساحل السومال كان آثر الى العرب من ساحل اريتريا ، لقرب الشقة بينه وبين بلادهم ، فهاجرت اليه جماعات عربية وكثرعدد المهاجرين منهم ، واشتدت شوكتهم فكونوا إمارات فى المدن الساحلية . وكانت قبائل السومال ،سكان البلاد الأصليون ، يقيمون فى الأجزاء الداخلية من هذا الساحل ، على حين كان العرب المهاجرون يستوطنون المناطق المشرفة عليه .

---

(١) Encyc. of Religion and Ethics - Abyssinia

وأشهر هذه الامارات فى هذه الفترة التى نؤرخها : إمارة عدل أو الزيلع، وإمارة مقدشو . والأرجح أن يكون حكام هاتين الامارتين عربا تأقلموا فى البيئة السومالية ، لا أن يكونوا سوماليين تأثروا بالبيئة العربية .

وكان نشاط العرب عظيما فبلغوا الهند وما وراءها ، وكان من سكان السومال من هؤلاء العرب ، كما يظن ، جماعة انتقلوا إلى الهند الغربية واستوطنوا الأماكن الساحلية منها ، وعرفوا باسم (حبشى أو سيدى) ، وقد عرفهم المؤرخون فى القرن الثالث عشر ، وذكروا أنهم كانوا يشتغلون جنوداً أو ملاحين . ولما تأسست دولة المغل فى هندستان حوالى عام ١٥٢٦م كانوا قواداً للأسطول المغولى . كذلك كان زعماء جنچيرا وستشين ينحدرون من أصل حبشى [١].

ومن جهة أخرى نزحت جموع من الهند إلى اليمن وسواحل إريتريا والسومال، ويقال إن جنودا من الهنود ، زحفوا إلى جزيرة العرب فى القرن الحادى عشر الميلادى وأخضعوا الشعوب العربية التى فى طريقهم ، وعبروا إلى ساحل إفريقية ، واستوطنوا هناك . وقد وجد بعض ضباط الإنكليز الذين كانوا يشتغلون برسم خريطة للسومال بعض آثار المعابد الهندية ، كما أن العلماء

(١) Encyc. of Islam—India, p. 480 sq.

المتخصصين فى اللغات وجدوا مشابهة عظيمة بين لغة هؤلاء السوماليين وبين لغة الدكن[١] .

ويقال إن أمير مسقط امتنع من أداء الجزية لهؤلاء الهنود فجمع جيشا ، واجتاز إلى ساحل السومال ، واحتل مناطق من تلك البلاد ، بعد أن خرب كثيرا من المعالم والمعابد الوثنية وقلب بعض المعابد إلى مساجد[٢] .

والظاهر أن هجرات العرب أخذت تزداد بمضى الزمن بحكم تلك العلاقات السياسية والدينية والاقتصادية التى سنوردها تفصيلا فى الأبواب التالية . والمعروف أن القبائل كانت حتى القرن العاشر الميلادى محدودة ، ثم كثر عدد المهاجرين ، فكونوا تلك الإمارات .

أما مقدشو ، فهى مدينة فى إفريقية الشرقية على ساحل المحيط الهندى ، وهى عاصمة السومال الإيطالى الآن ، عرفت إمارتها العربية فى القرن العاشر الميلادى ، وكانت هجرات العرب إليها كثيرة متعاقبة ، وأشهر هذه الهجرات تلك التى قدمت من الأحساء التى تقع على الخليج الفارسى ، فى خلال الصراع الدموى الذى كان قائما بين الخلافة والقرامطة .

---

(١) رحلة صادق باشا ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٢) نفس المرجع والصفحة

وتحالف المهاجرون مع قبائل السومال التى كانت تحيط بمقدشو على أن يكونوا يداً واحدة على الغزاة الآتين من البحر. وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر أسس أبو بكر بن فخر الدين سلطنة وراثية فى مقدشو بمساعدة أقوى العشائر العربية السومالية ، عشائر المقرى التى تزعم أنها قحطانية النسب ، وفى سنة ١٣٣١ م زار ابن بطوطة سلطان مقدشو (ويلقبه رعاياه بالشيخ) واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر ، وكان من أسرة فخر الدين « وكلامه بالمقدشى ، ويعرف اللسان العربى [١] » .

وفى ظل هذه الأسرة ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ازدهرت هذه الإمارة وبلغت أوج عظمتها . وقد هاجمها فاسكو دا جاما فى ١٤٩٩ م ، وهاجمها غيره من البرتغاليين . وفى القرن السادس عشر تولت أسرة المظفر أمر مقدشو . ومنذ ذلك الحين أخذت قبائل السومال الداخلية تغير على هذه الدولة حتى اضعفت من شوكتها . وفى أوائل القرن الثامن عشر احتلت جنود إمام عمان ، سيف بن سلطان ، مدينة مقدشو ، ولكنه بعد قليل من الزمن أمر جنوده بأن يعودوا إلى بلادهم . وفى هذه الأثناء كانت سلطنة مقدشو قد انهارت تماما.

---

(١) ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٠ .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى سمعنا عن إمارة عربية أخرى ، قامت فى زيلع ، ويسمى ملوكها بملوك عدل ، أو ملوك الزيلع . وهى عبارة عن سبع إمارات صغيرة ذكرها المقريزى[١] ، وقد كانت هذه الإمارات هدف ملوك الحبشة وقتا طويلا ، فقامت حروب دامية بينهم لأسباب سنذكرها بعد .

وقد أدى تأسيس هذه الدولة وغيرها على سواحل البحر الأحمر إلى فصل بعض الأراضى الساحلية عن المملكة الحبشية[٢] . ويقال إن مؤسس الأسرة السليمانية فى الحبشة « يكونو أملاك » (١٢٧٠ -- ١٢٨٥م) ، اضطهد ملوك عدل وحاربهم ، وكذلك فعل عمد صيون (١٣١٤ — ١٣٤٢ م) وقضى على دولتهم . ولكن المسلمين المنتشرين على الساحل لم تضعف عزيمتهم ، فنهضوا مرة أخرى حتى أصبحوا قوة لا يستهان بها فى زمن المقريزى وعرب فقيه المؤرخين العربيين . قال المقريزى : « وكان أول قيام هذه الدولة أن قوما من قريش قدموا من الحجاز ونزلوا أرض جبرت

---

(١) تقع عدل فى أقصى حدود هذه الامارات السبع الشرقية . ولعلها هى التى يطلق عليها الآن ساحل السومال الفرنسى ، ويتألف سكانها من قبائل السومال وقبيلة عفر (دناكل) العربية الأصل . والخلط ظاهر بين المؤرخين ، بين زيلع وعدل ، ولعلهما لفظان مترادفان ، وربما كان ملوكهما من أسرة واحدة .

(٢) Arnold, p. 113.

وهى أراضى الزيلع ، واستوطنوها وأقاموا بمدينة أوفات ، وعرفت جماعة منهم بالخير ، واشتهروا بالصلاح ، إلى أن كان منهم عمر الذى يقال له ولشمع ، ولاه الحطى (لقب ملك الحبشة وهى تقابل كلمة النجاشى فى العصور الأولى) مدينة أوفات وأعمالها، فحكم بها مدة طويلة . ومات وترك أربعة أولاد أو خمسة ملكوا أوفات من بعده واحداً بعد الآخر ، وتوفى آخرهم صبر الدين فى حدود ٧٠٠ هـ »[١] .

وقد ذكر المقريزى فى الإلمام اثنى عشر إقليما من أقاليم الحبشة وذكر أن لكل إقليم ملكا ، وكلها خاضع للحطى ، وتحت يده تسعة وتسعون ملكا ، هو تمام المائة ، إلا أن بلادهم غير مشهورة عندنا[٢] . ومن هذه الأقاليم ما يسمى إقليم الطراز الإسلامى أو إقليم الزيلع هذا (والزيلع إنما هى قرية من قرى هذا الإقليم وغلب عليه اسمها) وإنما سمى الطراز لمحاذاته لساحل البحر ، وهو عبارة عن سبع إمارات لكل منها ملك مسلم ، وكل من هؤلاء الملوك يدين للحطى بالطاعة . فالإقليم الأول أوفات (إفات) ويطلق

---

(١) الالمام ص ٢٠

(٢) المرجع نفسه ص ٤

عليها جبرت (١) ، وهو شرقى شوا ؛ ومن مضافاتها زيلع وهى فرضة من فرض هذه البلاد وأهلها مسلمون ، وغالب أهلها شافعية، وفى عهد المقريزى كثر فيها الحنفية ، وأهلها يتكلمون الحبشية والعربية كذلك (٢). ويدخل فى هذا الاقليم منطقة شوا وعاصمتها أنكوبر ، وإقليم دوارو وكان يقع جنوبى اوفات ؛ وأقليم أرابينى (وقيل أرابينى التى تقع فى الشمال الشرقى من بحيرة صانا) ؛ وإقليم شرحا أو شرخا ويقع غربى أوفات وربما كان هو ساركا الواقعة فى إقليم جوجام جنوبى بلاد الحبشة (٣) ، وإقليم هدية ويقع جنوب أوفات ، وصاحبه أقوى إخوانه من ملوك هذه الممالك السبع وأكثر خيلا ورجالا . وإليها تجلب الخدام من البلاد ، فيذهب بهم إلى قرية قريبة منها يقال لها وشلو ، أهلها همج ، لادين عندهم ، حيث يخصون ، وبعد الخصاء ينقلون إلى هدية ليعالجوا فيها . وتجرى عملية الخصاء خفية ، لأن ملك أمحرة — فيما يقال — كان يمنع خصاء العبيد وينكر ذلك ويشدد فيه . ثم الإقليمان بالى ودارة ، ويقع الأخير فى الجنوب الغربى من بحيرة صانا .

---

(١) كلمة حبشية (أجبرت) بمعنى عباد (الله) وهى جمع مفردها جبر أى عبد والنسبة اليها جبرتى . (٢) إلمام ص ١١

(٣) Budge, vol. 1, p, 298

وأكثر ملوك هذه الممالك يأخذون الملك بالوراثة ، ومع ذلك فلا يستقل منهم أحد بملك إلا من أقامه سلطان أمحرة ، وإذا مات منهم ملك ، ومن أهله رجال ، قصدوا جميعهم سلطان أمحرة وتقربوا إليه جهد الطاقة ، فيختار منهم رجلا يوليه ، فإذا ولاه سمع البقية له وأطاعوا (١) . وكان صاحب أوفات أكبرهم مكانة وكان هذا الإقليم أسبقهم إلى تكوين دولة إسلامية ، لهذا فكلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون إليه . وكل ملوك هذه الأقاليم يؤدون لملك أمحرة قطائع مقررة تحمل إليه فى كل سنة ، من القماش الحرير والكتان مما يجلب إليهم من مصر واليمن والعراق (٢) ، إلا أن أهالى هدية قد درجوا على أداء جزية أخرى له ، وهى إعطاؤه فى كل سنة بنتا من بناتهم المسلمات ينصرها الحطى لنفسه ، وقد جرت هذه العادة فى بلدهم ، بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائما بها كما حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب ، ولا يمسكوا السيف ولا يركبوا خيولهم مسرجة قالوا : « وحكم علينا . . ونطيعه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا ، وإذا أرسل الينا الذى يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على

---

(١) صبح الاعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(٢) نفس المرجع والصفحة .

السرير ، ونغسلها ، ونكفنها بثوب ، ونصلى عليها ، ونحسب أنها ميتة ، ونعطيها له ، فإنا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك [١]»

ومع أن ملوك هذه الأقاليم كانوا يدينون بالإسلام إلا أن كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة [٢] . والظاهر أنه كان بينهم شيء من التنافس فى إظهار الطاعة لملك أمحرة ، وكانوا مهرة فى التجارة التى درت عليهم بعض الغنى والثروة .

وقد جرت عادة ملوكهم أن يعصبوا رءوسهم بعصابة من حرير تدور بدائر الرأس ويبقى وسط الرأس مكشوفا، أما أمراؤهم وجنودهم فيعصبون رءوسهم بعصائب من قطن ، والفقهاء يلبسون العمائم ، والعامة يلبسون كوافى بيضا طاقيات ، والسلطان والجند يتزرون بثياب غير مخيطة يشد وسطها بثوب ويتزر بآخر ، ويلبسون مع ذلك سراويلات . ولهم عادات وشعائر مدونة فى الكتب العربية [٣] .

والمعروف أنه كانت هناك ولاية عربية أخرى بحذاء الساحل الإفريقى ، يقال لها « دهلك » ، وهى مجموعة من الجزائر تقع فى البحر الأحمر قبالة مصوع ، وكان يحكمها ملك مسلم يدين للحطى بالطاعة ، ويدارى صاحب اليمن .

---

(١) عرب فقيه ص ٢٧٥ — ٢٧٦

(٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(٣) المرجع نفسه ص ٣٣٣ — ٣٣٤

٣

نشأت علاقات بين مصر والحبشة منذ دخول الأخيرة فى المسيحية . . وازدادت هذه العلاقات ، منذ القرن الثالث عشر الميلادى توطداً وقوة ، وأصبحت مصر قبلة مسيحيى الحبشة ومتجه أنظارهم . وفى عصور متأخرة تصبح مصر قبلة مسلمى الحبشة كذلك ، ييممون شطرها الدراسة الديانة الإسلامية والثقافة العربية فى معاهدها الدينية . والواقع أن مصر فى هذه العهود قد تبوأت فى علاقتها مع الأحباش مكانة اليمن فى العهد الغابر ، وكما رأينا أن علاقة الحبش باليمن فى العهد السابق كانت ودية أحيانا ، وعدائية أحيانا أخرى ، فكذلك نجد علاقتهم بمصر فى هذه الفترة ، تسوء تارة وتتحسن تارة أخرى . وكما أنتجت هذه العلاقات آثارا فى كل من الفريقين كما رأينا فى الفترة السابقة فكذلك أنتجت بين الحبش والدول العربية عامة ، ومصر بوجه خاص ، آثارا سياسية واقتصادية ودينية واجتماعية وثقافية ، تأثر بها كل من المسيحيين والمسلمين على السواء .

فى هذه الفترة ، لم تكن علاقة الحبشة باليمن على ذلك النحو من القوة الذى رأيناه فى العهود السابقة . ولما كانت الحبشة فى هذه العصور المتأخرة قد سيطرت عليها الروح المسيحية ، واصطبغت حضارتها بصبغة مسيحية واضحة ، كان طبيعيا أن تتجه اتجاها كليا إلى مصر ، صاحبة الفضل الأول فى تحويلها

إلى المسيحية ، ومصدر رؤسائها الروحانيين ؛ بذلك أنشغلت الحبشة إلى حد ما عن اليمن التى كانت فى ذلك الحين دولة اسلامية ، لا يعنى الحبشة من أمرها إلا بقدر مايعنيها من أمر أية دولة مجاورة أخرى . ثم إن هناك أمراً آخر شغل الحبشة نسبيا عن اليمن ، ذلك هو تكوين إمارات الطراز الإسلامى على ساحل البحر الأحمر ، وهى كما رأيت ، إمارات عربية كان بينها وبين الحبشة علاقات قليلها ودى ، وأكثرها عدائى ، فكانت هذه الإمارات تمثل الدولة العربية القديمة ، دولة حمير ، فيما كان بينها وبين الحبشة من صلات . فوجه الأحباش إليها حملاتهم كما كانوا يوجهون حملاتهم قديما على حمير . ونظروا إليهم على أنهم عرب مناوئون كما كانوا ينظرون تماما إلى اليمن فى العهود السابقة .

لهذه الأسباب انشغلت الحبشة إلى حدما عن اليمن ووجدنا اليمن تعيش فى عهد الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ) (١٢٢٩ - ١٤٥٤م) وفى عهد الدولة الطاهرية (٨٥٠ - ٩٢٣ هـ) (١٤٤٦- ١٥١٧ م) فى هدوء شامل لا يكدر صفوها مكدر ، وتنشط فى هذين العهدين روح العلم والدراسات الدينية .

وفى الوقت الذى نجد فيه علاقة اليمن ببلاد الحبشة الداخلية محدودة قليلة ، نرى العلاقة بينها وبين الإمارات العربية السومالية قوية . وهذا أمر طبعى دعا إليه الجوار واتفاق مؤسسى

هذه الإمارات مع اليمن فى الجنس العام والدين واللغة . ولا شك أنه كان لدعاة العرب أثر كبير — كما سنرى — فى نشر الدعوة الإسلامية فى هذه البقاع الساحلية . ثم تلك الصلات التجارية التى ازدهرت بين الساحلين منذ أقدم العصور ، لاسيما تجارة الرقيق التى كانت مزدهرة فى مدينة هدية ، إحدى الإمارات السبع الإسلامية . أضف إلى ذلك تلك العلاقات السياسية التى نشأت بين الساحلين . فقد أغارت إمارة عمان على ساحل البحر الأحمر ، أكثر من مرة ، كما أنها تمكنت من احتلال ولاية مقدشو فترة من الزمن كما رأينا . ولا شك أن ملوك اليمن كانوا يتطلعون إلى نفوذ فى إمارات الزيلع كذلك . ويروى أن بعض ملوك اليمن كان قد أراد بناء جامع ، فى زيلع ، فأرسل من عدن ما يلزم من الحجارة وجميع الأدوات ، فأخذ بعض قبائل الزيلع الحجارة ، ورمى بها فى البحر ، ولما علم صاحب اليمن بذلك ، عوق مراكبهم فى عدن مدة سنة [١] .

ومع ذلك كان ملوك الزيلع ، إذا أحسوا اضطهادا من جانب جيرانهم المسيحيين ، يفرون إلى ملوك اليمن ، فيجدون منهم إيواء وترحيبا . من ذلك ما فعله أولاد أحد ملوك الزيلع ، سعد الدين

(١) الالمام ص ٢٣ — ٢٤ .

حين فروا إلى بر العرب خوفا من تحرش الحبشة ، فأكرمهم الملك الناصر احمد بن الأشرف إسماعيل ملك اليمن ، وأنزلهم ثم جهزهم وقاد لهم ستة أفراس ، فخرجوا ، ولحقت بهم عساكر أبيهم ، وزحفوا لقتال ملك الحبشة [١] . ويقال إن سلطان جزر دهلك الواقعة فى البحر الأحمر قبالة مصوع كان يدارى سلطان اليمن [٢] .

على أنه كان هناك بعض علاقات بين ملوك الحبشة المسيحيين وملوك اليمن ، تجارية وسياسية ودينية . وكثيراً ما لجأ ملوك الحبشة إلى ملوك اليمن ، يوسطونهم لدى سلاطين مصر فى أمر إرسال مطارنة مصريين أو إصلاح ذات بين . وفى عهد أحد ملوك الحبشة النصارى (فاسيلداس) أرسل هذا الملك إلى إمام صنعاء ١٠٥٢ ﻫ (١٦٤٨ م) كتابا ومعه هدية من الرقيق والزباد وسلاح الحبشة ، وطلب فى كتابه استدعاء رجل يصل إليه من خاصة الإمام ليدخل فى الإسلام على يديه ، ثم عاود الملك الحبشى إمام اليمن ١٠٥٧ ﻫ بكتاب آخر وهدية أخرى ، واستعجل الرجل المطلوب . فقرر الإمام إرسال الحسن بن أحمد الحيمى إليه فى طائفة من أصحابه [٣] وقد وصف الحيمى رحلته إلى الحبشة فى

---

(١) الالمام ص ٢٣

(٢) صبح الاعشى ﺟ ٥ ص ٣٣٥ — ٣٣٦

(٣) الحيمى ص ١ — ٤

رسالة نشرها بيزر Peiser فى برلين ١٨٩٤ ؛ ولـكن البعثـة لم تصادف نجاحا فى مهمتها .

والعنصر الحبشى ، على وجه الإجمال ، منبث إلى اليوم فى أنحاء الجزيرة العربية ، وفى اليمن بوجه خاص . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة التى قام بها المبعوثون إلى اليمن من العلماء والباحثين أثر العناصر الإفريقية بوجه عام فى هذه البـلاد . كما يلاحظ داوتى Doughty فى رحلته إلى بلاد العرب أن الجنس الأفريقى كان منتشراً فى كل مدينة وكل قبيلة ، سواء منه العبيد والاماء والأسر السوداء الحرة [١] .

وقد ظل السكان الذين يقيمون على حدود الحبشة الشمالية والشمالية الغربية على دياناتهم القديمة حتى أخذ الإسـلام فى الانتشار بين أهالى السودان فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وبين أهالى النوبة فى القرن الرابع عشر الميلادى . وكان فى جنوب بلاد النوبة فى القرن الســـادس عشر الميلادى ولاية تسكنها قبائل البلو الإسلامية ، وكانت حداً فاصـلا بين النوبة وبلاد الحبشة . ولـكنهم على رغم دياناتهم الإسـلامية كانوا يدفعون الجزية لملك الحبشة المسيحى (كما كان الحال فى إمارات الطراز الإسلامى) . وإذا صح أن هؤلاء البلو هم البليون الذين

---

(١) Doughty, vol. I, p. 553.

تحدث عنهم الإدريسى فى القرن الثانى عشر وعدهم من النصارى اليعاقبة، وقرن اسمهم باسم قبائل البجة الذين كانوا يقطنون بجوارهم (والبجة هم أهالى المنطقة التى يسمونها جزيرة مرو) فمن الجائز أنهم لم يقضوا إلا أعواما قليلة قبل أن يتحولوا إلى الإسلام، وفى ذلك الحين أسلمت قبائل البجة الذين كانوا قد اندمجوا فى دولة الفونج [1] الإسلامية عندما كان هؤلاء الفونج يوسعون نطاق فتوحاتهم من سنة ١٤٩٩ — ١٥٣٠ من الجنوب حتى حدود بلاد النوبة والحبشة وأسسوا ولاية سنار القوية [2] .

وعندما غزت جيوش أحمد جرانى (أحد ملوك الطراز الإسلامى) بلاد الحبشة ، وشقت طريقها فى البلاد من الجنوب إلى الشمال ، عقدت اتصالا حول سنة ١٥٣٤ بجيش سلطان

---

(١) تزعم قبائل الفونج الزنجية أنها من سلائل بنى أمية الذين هاجروا الى السودان فرارا من اضطهاد العباسيين لهم فى القرن الثامن الميلادى . وقد اتحدت قبائل الفونج مع عرب جهينة الذين استقروا ببلاد البجة وشمالى النوبة منذ القرن التاسع الميلادى وأطبقوا على مملكة علوه المسيحية جنوبا وخربوها وأسسوا مملكة الفونج ٩١٠ هـ (١٥٠٥ م) وعاصمتها سنار (حامد عمار ص ٨٠).

(٢) Arnold, p. 113.

مسيجيا أو مزجة [١] Maseggia or Mazaga ، وهذه ولاية كانت خاضعة لحكومة إسلامية ، ولكنها كانت تدفع الجزية لملوك الحبشة . وتقع هذه الولاية فى الوسط بين الحبشة وسنار. وكان فى جيش هذا السلطان ١٥ الف جندى من النوبيين .والظاهر أنهم كانوا يعتقدون الدين الإسلامى [٢] .

---

(١) مزجة مقاطعة يسكنها قبائل من التيجرى وتقع فى شمال تكازه وغربي سيراى . (Budge, vol ii, p, 348.)

(٢) Arnold, p.113.

الباب الثانى

الحبشة والتعصب الدينى

١

جرت العادة ، حين كان يريد ملك الحبشة مطرانا لبلاده من مصر، أن يرسل رسالتين : إحداهما إلى صاحب الأمر فى مصر ، والأخرى إلى بطريق الإسكندرية ، ومع الأولى هدايا من العبيد والمسك والعاج ترسل إلى الوالى أو السلطان ، ومع رسالة البطريق مبلغ كبير من المال يقدمه الأحباش إلى البطريق . حينئذ يلتمس البطريق الإذن من الوالى أو السلطان للعمل على إرسال المطران ، ويقوم برسامة أحد الرهبان الذين يتوسم فيهم الصلاحية مطرانا للحبشة . وفى القرن العاشر الميلادى ، أى فى أواخر عهد الملكة حواء اليهودية ، أرسل بعض ملوك الحبشة يطلب توسيط أحد مطارنة سورية لدى بطريق الإسكندرية لإرسال مطران للحبشة [١] .

كان بين الأحباش والقبط علاقات مودة وإخلاص ،

---

(١) Budge. vol. 1. p. 215

وكثيراً ما كان يهاجر الأقباط إلى الحبشة حين يحسون من الوالى ظلما وعنتا ، حدث هذا فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى، كما حدث فى أوائل القرن الثالث عشر أن لجأ عدد كبير من الأقباط إلى ملك الحبشة، لاليبلا، على أثر ما أنزله بهم السلطان الكامل ناصر الدين الأيوبى من اضطهاد فى الوقت الذى كان الصليبيون يحاصرون فيه مدينة دمياط سنة ٦١٦ هـ . ولا شك أن هؤلاء الفارين قد بثوا شكواهم إلى ملك الحبشة وطلبوا حمايتهم من السلطان الأيوبى . وكانت الحروب الصليبية فى ذلك الحين فى أواخر عهدها ، وكانت بلاد الحبشة على معرفة تامة بذلك الشعور التعصبى الذى ساد أوربا والشرق فى ذلك الحين ، بل من المحقق أن الحبشة قد مثلت دورا هاما فى تلك الأفكار الصليبية التى شاعت فى ذلك الحين .

أصبح شعور التحمس الدينى فى ذلك الحين أشد ما يكون تنبها وإرهافا ، وخلق هذا الشعور فى نفوس المسيحيين فى أنحاء العالم كثيراً من الأمانى والمخاوف، نراها تمثلت فى قصص وأساطير لاتزال معروفة للآن فى الشرق والغرب . ومن بين تلك الأساطير التى كان لها أثر فى العصور الوسطى فى العالم المسيحى عامة وفى الحبشة بوجه خاص ، أسطورة القسيس يوحنا وتأسيس إمبراطورية مسيحية تحت زعامته ، وهى قصة خيالية حاكها

المسيحيون ليمثلوا فيها أمانيهم وأحلامهم : هذه الإمبراطورية يسكنها أشخاص خرافيون ، ورجال عيونهم فى صدورهم ، وهى مهد بعض الحيوانات والزواحف المخيفة المفزعة التى لا تعيش إلا على لحوم الآدميين ، والمخلوقات العجيبة التى تتركب أجسامها من رؤوس الطيور ذات الأجنحة وأجسام الحيوان ، ومخالب الوحوش ، ولها ذيول من الأفاعى الحية ؛ يحكم هذه الإمبراطورية حاكم مسيحى يعرف باسم القسيس يوحنا . ويقال إن نواة هذه الأسطورة قصة بطريق من بطارقة الهنود ، زار رومة فى الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، وقص حكايات عجيبة من كرامات القديس توما الذى كان أول من نشر المسيحية بين نصارى الملابار فى الهند . فلم يكد ينقضى القرن الثانى عشر حتى رفعت الإشاعات الشعبية هذا البطريق الى مرتبة ملك ، ونسبت إليه فتوحاً عظيمة هائلة ، كما نسبت اليه قوى روحية فوق طاقة البشر . ولما كان الجغرافيون القدماء ينظرون إلى إثيوبيا على أنها الجانب الغربى من إمبراطورية الهند العظمى ، فقد اعتقدوا فى أوائل القرن الثالث عشر أن مملكة القسيس يوحنا هى إثيوبيا التى تدخل فيها بلاد الحبشة . وربما كان هذا راجعاً الى تلك الرسالة التى تلقاها الملك عمانويل من القديس يؤنس (يوحنا) فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، يقول فيها إن لديه ٧٢ ملكا يأتمرون

بأمره ، وأنه بعيش فى قصر استمد طرازه من توما الرسول ، وبلاده تنتج الذهب والأحجار الكريمة والتوابل وغيرها ، وفيها من الأعاجيب الكثيرة التى لا تحصى ، ساقية الحياة التى تهب الشباب الأبدى لمن يستحم فيها ، وأنه يفتخر بأنه مدين بملكه لقوة الله والسيد يسوع المسيح ، وأن كل أمنيته فى الحياة أن يمكن الناس من الحج إلى بيت المقدس ، وأن يستخدم جيوشه الجرارة فى قتال أعداء الصليب . وفى منتصف القرن الرابع عشر اتجهت الأنظار إلى إثيوبيا ، واعتقد أنها مملكة القسيس يوحنا على وجه التحديد . وكان من ملوك أوربا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر من تطلع إلى معرفة حقيقة هذه المملكة التى شاع أمرها وتحدث عنها الرواة ، فأرسل ملك البرتغال سفارة إلى بلاد الحبشة لهذا الغرض [١] .

وهكذا استقرت فى الحبشة بعض الأفكار الصليبية فى نهاية القرن الثانى عشر ، حيث يريد القديس يؤنس أن يقضى على أعداء المسيح بجيوشه الجرارة ، وأن يمكن للأحباش من الحج إلى بيت المقدس . وكان فى بيت المقدس دير يعدنواة للأحباش يقيمون فيه ، وهو دير عرف باسمهم ، يرجح أنه ظهر إبان الحروب الصليبية .

Budge. vol. 1. pp. 178-9 (١)

وقد شمله صلاح الدين بعطفه وسماحته عندما دخل بيت المقدس سنة ١١٨٧م ، وأطلق عليه اسم دار السلطان ، وله رئيس يعرف باسم (مهر) أى المعلم يعينه ملك الحبشة . وكان لوجود هذا الدير الحبشى ببيت المقدس أهمية من حيث علاقة الحبشة بالحروب الصليبية ، لأنه كان الوسيلة لإيصال أنباء الصليبيين تباعاً إلى الأحباش [١] .

ولما وقعت الحروب الصليبية ، وسفكت دماء الملايين من البشر بسبب التعصب الدينى ، وتنبه العالم المسيحى على أثر هذه المجازر البشرية ، انقسم المسيحيون فى أوربا إلى فريقين : فريق رأى إحياء فكرة الحروب الصليبية وتمهيد السبيل للقيام بحرب صليبية أخرى ، وفريق آخر من الدعاة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لم يرغبوا فى اللجوء إلى الحرب ولم يؤثروا اتخاذ سبل العنف والقوة لتنفيذ أغراضهم الصليبية . وقد رجحت كفة الفريق الثانى وساعدته الظروف السياسية والدينية فى ذلك الحين . أما فى الحبشة فقد تظاهرت الأسباب على مضاعفة شعور التعصب الدينى فى نفوسهم ، فى الوقت الذى فكر فيه الأوربيون بالانصراف عن وسائل العنف وإراقة الدماء . فلم يأت النصف

---

(١) حامد عمار ص ١١٣

الثانى من القرن الثالث عشر حتى وجدنا الحبشة ملجأ للهاربين من القبط الذين كانوا يعقدون عليها آمالهم فى حمايتهم وإيقاف مضطهديهم عند حدهم ؛ ووجدنا الحبشة تظهر أمام نفسها وأمام العالم المسيحى بأنها مركز الإمبراطورية المسيحية التى سيلتف حولها المسيحيون وسيتحقق على يدى حاكمها القسيس يوحنا آمالهم وأحلامهم ؛ ووجدنا الحبشة تتشبع بفكرة الصليبيين ، وتتحين الفرص للاشتراك الفعلى فى محاربة المسلمين ؛ ولكن بعد الشقة حال بينها وبين تحقيق هذه الأمنية . فظلت هذه الرغبة مكبوتة فى نفوسهم ، يغتنمون لها الفرص للتعبير عنها فى مناسبات كثيرة .

٣

اضطهد يكونو أملاك (١٢٧٠ - ١٢٨٥م) جيرانه المسلمين من عرب الطراز ، وجند كل ما لديه من قوة لمهاجمتهم ، ولكنه تحمل خسارة جسيمة فى تلك الحروب، وخرب المسلمون جهات كثيرة من بلاده[١] .

وكان الظاهر بيبرس قد أرسل رسلا إلى ملك الحبشة فلم يتمكنوا من مقابلته لأنه كان منشغلا فى بعض الحروب . ولكن بيبرس تضايق من تأخير سفارته . وبلغ الحطى غضب بيبرس لذلك،

Budge, vol. 1, p. 285. (١)

وكان محتاجا إلى ترسيم مطران لبلاده ، فكان موقف الحطى يتطلب فى ذلك الحين شيئا من مداراة السلطان واسترضائه ليأمر بإرسال المطران إليه .فأرسل اليه كتابا رقيقا سنة ٦٧٢ ﻫ (١٢٧٣م) يظهر فيه الخضوع والاستعطاف ، ولكنه لم يرسل كتابه إلى السلطان مباشرة بل وسط فى الأمر صاحب اليمن، وأرسل كتابه إليه ليوصله إلى السلطان . وهو يقول: « إن سلطان الحبشة قد قصد الملوك فى إيصال كتابه إلى السلطان» ويقول إن «أقل المماليك محر أملاك (وهى تحريف من يكونو أملاك) يقبل الأرض، وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر، خلد الله ملكه ، أن رسولا وصل من جهة قوص بسبب الراهب الذى جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران (فإيأمر) مولانا السلطان، ونحن عبيده ، فيرسم . . . للبطرك يعمل لنا مطرانا يكون رجلا جيداً عالما لا يحب ذهبا ولا فضة ، يسيره إلى مدينة عوان[1] فأقل المماليك (يعنى نفسه) يسير إلى نواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره إلى أبواب السلطان » . وهو يعتذر عن تأخير رسل السلطان بقوله: « وما أخرت الرسل إلى الأبواب إلا أنى كنت فى بيكار (أى فى حرب) . وعندى فى عسكرى مائة الف فارس من المسلمين وإنما ، النصارى فكثير

---

(١) على ساحل البحر الأحمر مقابل تهامة اليمن (صبح الأعشى ﺟ ٥ ص ٣٣٦) .

لا يعدوا كلهم غلمانك وتحت أوامرك ، والمطران الكبير يدعو لك ، وهذا الخلق كلهم يقولوا آمين ، وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبوا . والرسول الذى حضر الينا من جهة والى قوص مريض ، وبلادنا وخمة (أى من مرض بها) لا يقدر أحد أن يدخل إليه شيء ، ومن يدخل ويشم رائحته يمرض ويموت » [١] .

وعلى الرغم مما أظهره يكونو أملاك من آيات الزلفى والاعتذار فقد رد عليه بيبرس رداً يشعر بأن ملك الحبشة قد خالف التقاليد المتبعة فى طلب المطران ، ثم قال فى رده : « أما ماذكره (أى ملك الحبشة) من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين فالله تعالى يكثر من عساكر المسلمين ، وأما وخم بلاده فالآجال مقدرة من الله تعالى [٢] » . ويقال إن يكونو أملاك قد لجأ فى ذلك الحين الى سوريا فاستحضر لبلاده مطرانا سوريا يقال له يوب .

ومهما يكن ، فمن الواضح من رسالة يكونو أملاك ، ورد بيبرس عليها ، أن ملك الحبشة كان فى ذلك الحين يحاول التقرب إلى السلطان وتملقه ، كما نلاحظ أن رسالة الحطى مكتوبة بلغة عربية

---

(١) المفضل بن أبي الفضائل ص ٢١١ — ٢٢٢ وفيه أخطاء نحوية ولغوية أوردناها كما هى .

(٢) نفسه ص ٢٢١ — ٢٢٢

سقيمة حافلة بالأخطاء ، وهى قريبة الشبه بلغة الأقباط فى ذلك الحين ، حيث بدأت الكنيسة القبطية تتخذ اللغة العربية لغة لكتبها وصلواتها ، ولا يبعد أن تكون هذه الرسالة مكتوبة بلغة بعض القبط المقيمين فى الحبشة ، أو ربما ترجمها من الحبشية إلى العربية بعض القبط فى مصر .

وفى الوقت الذى أرسل يكونو أملاك إلى بيبرس كتابا بهذه العبارات الرقيقة الخاضعة ، نجده يضطهد مسلمى الطراز ، ويشب عليهم القتال .

ولما تولى بعده ياجبعاصيون (١٢٨٥-١٢٩٤م) أحب أن يؤكد لسلطان مصر حسن نيته نحوه ونحو المسلمين فى مملكته، فأرسل إلى السلطان قلاوون رسالة ذكر فيها أنه سيتخذ سياسة غير التى اتخذها والده من قبل ، وأنه يذود عن حقوق المسلمين فى بلاده . ولم يستطع المطران السورى أن يقوم بأعباء الكنيسة الحبشية على الوجه المطلوب ، ونظر إليه الأحباش على أنه أجنبى عنهم وعن كنيستهم ، فعاد ياجبعاصيون يطلب مطرانا من مصر ، ويشكو مر الشكوى من المطران السورى ، ثم وعد السلطان بارسال الهدايا والرقيق فى أقرب فرصة ممكنة . وقد استجاب قلاوون لطلبه وسمح بترسيم المطران وسفره .[1]

---

(١) حامد عمار ص ٩٨ نقلا عن كاترمير

٣

تطورت معاملة ملوك الحبشة لسلاطين مصر فى القرن الرابع عشر، فأصبحت لغة رسائلهم إلى السلاطين شديدة اللهجة، وتجرؤا على تهديدهم ، واشتدت العداوة بين الحبشة والمسلمين وخاصة جيرانهم من مسلمى الطراز . وكان من أثر اضطهاد ملوك الحبشة إياهم والاغارة عليهم ، أن تنبه شعور التحمس الدينى فى نفوس جيرانهم المسلمين، وعدوا محاربة هؤلاء الأحباش المسيحيين جهادا فى سبيل الله . ففى أوائل هذا القرن بدأوا سلسلة حروب دامية قام بها العرب فى وجه الأحباش ، تلك الحروب التى ظلت حوالى ثلاثة قرون ، وأوشكت أن تقضى على الدولة الحبشية .

كان قد انتهى إلى عمد صيون (١٣١٤ — ١٣٤٤ م) أن الأقباط يلقون عنتا من المماليك فى مصر ، فأرسل إلى السلطان المملوكى فى مصر ، سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) رسلا مثلوا بين يدى السلطان فى قلعة الجبل فى يوم الاثنين ١٦ محرم ، وكان مضمون رسالتهم من ملكهم أنه بلغه أن كنائس النصارى غلقت وأن النصارى فى ذلة وهوان ، والتمس من السلطان الإحسان إليهم وفتح كنائسهم ، وأنهم إذا لم يعاملوا بالإحسان عامل من بلاده من المسلمين وما بها من المساجد كما يفعل بالنصارى

وكنائسهم فى مصر ؛ وذكروا عنه أنه قال إن نيل مصر الذى به قوام أمرها وصلاح أحوال ساكنيها ، مجراه من بلادى ، وأنا أسده . فضحك السلطان من كلامهم واستثقل عقل رسلهم وعوملوا بغاية الاطراح والإهانة .(١)

وفى ذلك الحين ، هاجم صبر الدين ملك أوفات بلاد الحبشة وقتل منها وأسر خلقا كثيرا ، وخرب الكنائس أينما ذهب وأعلن بأنه سيدخل الحطى فى الإسلام أو يقتله ، وأنه سيجعل زوجة الحطى الملكة چان منجشة ، تطحن له حبا لتصنع له خبزاً . فلما سمع الحطى بذلك ، سير جيشا إلى هدية (أوحدية) وحاصر صبر الدين فهرب الأخير ، ولكن الحطى أخذه أسيرا ، وولى أخاه جمال الدين مكانه . وأعقب هذه المعركة معارك أخرى فى عصر هذا الحطى انتصر فيها ملك الحبشة .

ولكن هذه الحروب قد جعلت مسلمى الطراز يفزعون إلى الأبواب السلطانية بمصر ، فسعى الفقيه عبدالله الزيلعى لدى السلطان فى أن يستكتب البطريق رسالة إلى الحطى يطلب منه أن يكف أذيته عمن فى بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم ، وصدرت المراسيم السلطانية للبطريق بكتابة ذلك ، فكتب إليه كتابا بليغاً

---

(١) حامد عمار ص ١١١ نقلا عن النويرى

شافيا ، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال وأنه حرم هـذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها [١] .

وفى عهد نواى كرستوس سيف أرعد (١٣٤٤ – ١٣٧٢م) حدث أن طلب سلطان مصر من بطريق الإسكندرية زيادة الضرائب المقررة على المسيحيين، فرفض البطريق، فزج به فى السجن. فلما سمع بذلك سيف أرعد قبض على جميع التجار المصريين (الكارمية) فى مملكته ، وبعث بفرسانه لطرد القوافل الآتية من القاهرة إلى خارج الحدود الحبشية . وبذلك أصاب التجار من مصر والحبشة الكساد والبوار ، سواء عن طريق البحر عن طريق البر. فشكا المصريون سوء الحالة مر الشكوى، ورموا السلطان بالشح. ولم يسع السلطان آخر الأمر إلا أن يطلق سراح البطريق وأن يرجوه فى استخدام نفوذه لدى ملك الحبشة لكى يسمح بتسيير القوافل كما كانت [٢] .

وكانت هذه محاولة إيجابية أخرى قام بها ملوك الحبشة لمناوأة سلاطين مصر . ومن المحاولات التى قام بها أولئك لإرهاب هؤلاء السلاطين ماحكاه ڤيت من أن الجيش الحبشى أغار على أسوان فى ١٣٨٢ م (٧٨٣ هـ) فتوسط البطريق فى إنهاء تلك الأزمة [٣] . ولم يعد هؤلاء السلاطين منذ ذلك الحين ،ينظرون

(١) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٣٣٢

(٢) Budge, vol. I, p. 299.

(٣) حامد عمار ص ١١٢ نقلا عن ڤيت

إلى هؤلاء الأحباش نظرة الاحتقار والسخرية ، بل بدأوا يقيمون لهم وزنا ويحسبون لهم حسابا .

كذلك قام سيف أرعد بنصيب فى محاربة ملوك الطراز الإسلامى ، فقد حارب على بن صبر الدين وهزمه وقبض عليه ، وولى ابنه أحمد حزب أرعد ، ثم رضى عن على فأرجعه ، وأمر أن يتولى أحمد موضعا من أعمال جبرت . ثم قام حق الدين حفيد على بن صبر الدين بقتال سيف أرعد فى حروب مستمرة ، ومازال يحارب الحطى وعساكره ويأسر منهم إلى أن مات سيف أرعد ، وخلفه نواى مريم بن سيف أرعد . ووالى قتال حق الدين حتى مات الأخير ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ - ٥ م) . وقام من بعده أخوه سعد الدين أبو البركات محمد بن على بن صبر الدين ، فمضى على سيرة أخيه فى جهاد ملوك أمحرة . وفى إحدى الغزوات جرد الحطى عليه أميرا من أمرائه ، فلقيه سعد الدين بنفسه ومعه الفقهاء والفقراء والفلاحون وجميع أهل البلاد ، وقد تحالفوا جميعا على الموت ، فكانت بينهما وقعة شنيعة استشهد فيها من المشايخ الصلحاء ٤٠٠ شيخ ، كل شيخ منهم له عكاز ، وتحت يده من الفقراء السالكين عدد عظيم ، فاستمر القتال فى المسلمين حتى هلك أكثرهم وانكسر من بقى [١] . وهرب سعد الدين وتعقبه أهل

---

(١) إلمام ص ٢٦

المحرة حتى أدركوه ،وقتلوه عام ٨٠٥ هـ(١٤٠٢ - ٣ م) . وبعد موته ضعف المسلمون واستولى الحطى وقومه على البلاد .

وفى القرن الخامس عشر توترت العلاقات بين ملوك الحبشة وسلاطين مصر ، واشتد اضطهاد السلاطين للقبط وبطارقة الإسكندرية. ويظهر أن السلاطين قد أحسوا بأن لهؤلاء يدا فيما ظهر به ملوك الحبشة من سلوك إزاء المسلمين فى بلادهم ، وماواجهوه من تهديدات متكررة إلى سلاطين مصر. ويتضح ذلك مما ورد من أن السلطان كان قد استدعى البطريق فى عهد يسحاق الأول (١٤١٠ - ١٤٢٩ م) ليقبض عليه نظير ما لحق المسلمين فى الحبشة من ذلة ومهانة ، فوبخه فى مجمع من المشايخ والقضاة ، ولم يسمح له بالجلوس فى حضرته ، وهدده بالقتل ، وانتدب له محتسب القاهرة صدر الدين أحمد بن العجمى « واسمه المكروه»[١] . ولما وجد السلطان برسباى مافعله يسحاق هذا فى الحبشة من تنكيل بالمسلمين أصدر منشورا باضطهاد القبط وإغلاق كنيسة القيامة والقبض على البطريق[٢] . ويروى السخاوى أن فى ٨٥٣ هـ (١٤٤٨ م) عقد مجلس بين يدى السلطان بالقضاة الأربعة وغيرهم . وكان السلطان غضب على البطريق بحيث ضربه وحبسه فى المقشرة ، وأخذ منه شيئا كثيرا،

---

(١) حامد عمار ص١١٢ نقلا عن المقريزى فى السلوك

(٢) نفس المرجع والصفحة

فأمر بكتابة شهادة عليه ألا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله لا ظاهرا ولا باطنا ، ولا يولى أحدا فى بلاد الحبشة لا قسيسا ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته ، وأنه متى خالف ذلك انتقض عهده وضربت عنقه[١] .

وأصبحت الحبشة ملجأ معروفا للمصريين المضطهدين[٢]. فقد شجع توتر العلاقة بين الدولتين كثيرين فى مصر ، من الأقباط وغيرهم ، على الفرار إلى الحبشة ، وخدمة ملوكها ؛ وكثرت الشواهد التاريخية الدالة على هذه الظاهرة فى عهد يسحاق هذا ، فيذكر لنا المقريزى أن بعض المماليك الجراكسة فى مصر قدم على يسحاق وأقام عنده . وعمل له (زرد خاناة) عظيمة تشتمل على آلات السلاح من السيوف والرماح والزرديات ونحو ذلك ، كما قدم عليه أيضا الطنبغا، والى قوص هاربا من مصر ، وكان عارفا بالشئون العسكرية، ملما باللعب بآلات الحرب والفروسية، فحظى عند الحطى، وعلم عساكره رمى النشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف، وعمل لهم النفط فعرفوا صناعات الحروب. وقدم عليه أيضا من قبط مصر نصرانى يعقوبى يعرف بفخر الدولة فرتب

---

(١) التبر المسبوك ص ٢١٠

(٢) وقيل إنه لما قتل مروان الحمار الأموى (١٣٢ هـ) أى فى القرن الثامن الميلادى هرب عبد الله وعبيد الله ابنا مروان الى أرض الحبشة فلقوا من الحبشة بلاء ، وقاتلتهم الحبشة فقتلوا عبد الله وأفلت عبيد الله فى عدة ممن معه (الطبرى ج ٣ ص ٤٦).

له المملكة وجبى له الأموال، فصار ملكا له سلطان وديوان، بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجا لا ديوان لها ولا ترتيب ولا قانون ؛ فانضبطت عنده الأمور ، وتميز زيه عن رعيته بالملابس الفاخرة، بعدما كان داود بن سيف أرعد يخرج عريانا وقدعصب رأسه بعصابة حمراء ، فصار إسحاق يمر فى موكب جليل بشارة الملك (١) .

فلما تحضرت دولته وقويت شوكته عن له أن يواصل محاربة المسلمين التى بدأها خلفاؤه، فشب حروبا دامية على ملوك الطراز وصفها المقريزى بقوله : « فأوقع بمن تحت يده من ممالك الحبشة من المسلمين وقائع شنيعة طويلة ، قتل فيها وسبى واسترق عالما لا يحصيه إلا خالقه سبحانه (٢) » .

وكان ممن قاتل الحطى من ملوك الطراز جمال الدين محمد بن سعد الدين وكان يستعين فى قتاله ملك الحبشة وغيره بقائده حرب جوش، الذى كان من أمراء الحطى، ثم أسلم فى أيام سعدالدين، وقدم إليه فصار من أكابر الأمراء لقوته وشجاعته وكثرة أتباعه، فكان كثيرا ما يرسله لقتال البربر وبلاد بالى ودوارو . وقد أبلى فى هذه الحروب بلاء حسناً ، فاكتسب ملوك الطراز بإسلام هذا القائد فوائد جمة ، ودخلت بفضله جماعات من عمال الحطى

---

(١) الالمام ٥ — ٧

(٢) نفسه ص ٨.

وولاة أعماله فى طاعة ملك المسلمين ، كما قتـل وأسر من أمحرة كثيرا مما لا يدخل تحت حصر ، حتى امتلأت بلاد الهند واليمن وهرمز والحجاز ومصر والشام والروم والعراق وفارس من رقيق الحبشة . وفى إحدى غزواته أسر عددا عظيما من أمحرة ، حتى صار يعطى لكل فقير ثلاثة رؤوس من الرقيق ، ومن كثرتهم بيع الرأس من الرقيق بربطة ورق وبخاتم واحد [١] . وفى عهـد جمال الدين أسلم من أمحرة خلق كثير على يديه ، وعاصر من ملوك الحبشة النصارى يسحاق السالف ذكره ،فابنه أندرياس،فحربناى بن داويت بن سيف أرعد ، فسليمان بن يسحاق بن داويت . وقتل جمال الدين عام ٨٣٥ هـ (١٤٣٩ م)، وخلفـه شهاب الدين أحمد بدلاى وهو أخو جمال الدين، وقد جرى على سنة أخيه فى غزو أمحرة. وفتح من بلادهم عدة أعمال ، وقتل وسبى وغنم منهم، وكثرت الأموال فى أيدى جماعته ، وحازوا من الوظائف مالا يعد ، وخرب ست كنائس ، وعدة قرى ، واسترد إقليم بالى من أيدى النصارى . وفى عام ٨٣٩ هـ (١٤٤٣ م) حدث وباء عظيم ، مات فيه من المسلمين والنصارى عوالم كثيرة جدا وهلك الحطى [٢] .

وكانت لدى يسحاق ملك الحبشة فكرة القيام بحرب صليبية

---

(١) الالمام ٣٠

(٢) نفسه ص ٣٦

على دولة المماليك. فكتب إلى ملوك الإفرنج (١٤٢٨ م) «يحثهم على ملاقاته لإزالة دولة الإسلام، وواعدهم على ذلك، وأخذ فى تمهيد ما بينه وبين البلاد الإسلامية واستجلاب العربان إليه [١]»، وقد لبى ملوك أرغونة والبرتغال وفرنسا دعوة يسحاق ولكن المشروع لم ينفذ. وتوفى يسحاق على أثر ذلك سنة ١٤٢٩م.

والظاهر أن زرء يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م) أراد أن يسلك مع سلطان مصر طريقا غير العنف والتهديد فيما يتعلق بمسألة اضطهاد القبط فى مصر، فأرسل إلى السلطان جقمق رسالة باللغة العربية، [٢] ومع حاملها هدايا من الرقيق والجوارى وطست وإبريق من ذهب وسيف منقط بذهب الخ.. وفيها يقول: «إنه قد اتصل إلينا جميل أخباركم، وأنكم، حفظكم الله تعالى، أمرتم بإبطال المظالم من سائر المعالم، وردعتم القوم الظالمين، ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم... ولما بلغ إلينا ما أنتم عليه من الخير استنشقنا منه عرفا طيبا... وقصدنا تجديد ماسبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم اتباعاً لآثارهم المشكورة، وقصدنا إعلامكم ذلك بشارة

---

(١) الالمام ص ٨
(٢) نشرها السخاوى فى التبرك المسبو كاملة ص ٦٧ — ٧٢، ونورد منها هنا مقتطفات

لكم . ليكون ذلك مستمرا بلا انحراف ، والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف ، وآخر ذلك ما كان فى أيام الشهيد الظاهر برقوق ونجله الناصر ، سقى الله عهدهما صيب الرحمة . . وأنهم كانوا قائمين بالعدل خصوصا بإخوتنا النصارى متوصين » . وقد عدد زرء يعقوب فى هذه الرسالة المسائل التى يشكو منها الأقباط من تصرفات وجهت ضدهم أو ظلم وقع عليهم . وهو فى الرسالة يتحدث عن لسانهم ويحامى عن حقوقهم. فيقول مثلا : « ثم بلغنا أيضا أن ثم من يتعرض إليهم فى كنائسهم فى أوقات صلاتهم وفى أيام أعيادهم، بقطع مصانعاتهم،وأخذ ما لا يستحقون أخذه، وأنهم فى غاية للضيق من ذلك ، وأنتم ، حفظكم الله ، ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم ولملوكهم مالكون ، ولم نزل نحسن إليهم كل وقت وحين » ، كما طلب « أن يصدر السلطان أمره للحبوش بعمارة قبر مريم عليها السلام . ونحن مقيمون على العهد القديم من أيام أجدادنا وآبائنا من إقامة جوامعكم ومساجدكم وآذانهم،وأنتم أيضا تأمرون بالنداء ألا يقول أحد للنصرانى يا كاب ، فإن الله مقسم الأديان ، ويعاقب كل أحد على قدر ذنبه،وأما نحن فنقول للشريف ياشريف وللقاضى ياقاضى وللشيخ ياشيخ ».

وفى الوقت الذى قال فيه زرء يعقوب هذا الكلام نراه يضطهد

مسلمي الطراز ويشب عليهم حربا دامية ، يقتل فيها ويأسر منهم خلقا لا يحصى . وكان ملك المسلمين فى عصره شهاب الدين بن سعد الدين ،قتله زرء يعقوب . وقد رد السلطان جقمق على زرء يعقوب برفض الإصاخة لما أسدى إليه من نصح،وما وجه إليه من مطالب ، وأرجع سبب رفضه إلى أن«نصارى الديار المصرية قد كثر تعديهم واستطالتهم بالمبالغة فى البناء،ولإحداث الكنائس ونحو ذلك» .وقدحدث أن زرء يعقوب أخر قاصد السلطان الذى ذهب برده إليه . ولماقتل هذا الحطى شهاب الدين،أرسل القاصدإلى المقتول لمشاهدته،حتى يكون ذلك أنكى للمسلمين،فما استطاع القاصد مخالفته ، وسار إلى المكان الذى هو فيه أياما حتى رآه ثم رجع ».

واستأنف خلفاء زرء يعقوب قتال مسلمى الطراز من بعده، فحاربهم بئيدماريام (١٤٦٨ - ١٤٧٨ م) وإسكندر (١٤٧٨ - ١٤٩٤م)وغيرهما ،كماأخضع بئيدماريام إلى جانب مسلمى الطراز قبيلة حبشية مسلمة كانت تحتل -ولا تزال إلى اليوم- المنطقة التى تقع بين البحر الأحمر والسهل الحبشى،ويقال لهاقبيلة عفر أوالدنا كل، وقيل إنها عربية الأصل إلا أنها تتكلم لغة كوشية .

الباب الثالث

إنتشار الإسلام فى الحبشة

١

يمتاز القرن السادس عشر بتلك الحماسة البالغة التى دفعت مسلمى الطراز إلى الزحف إلى الداخل ، بعد أن كان مسرح الحروب السابقة لايتجاوز المناطق الواقعة على حدود الحبشة . كما يمتاز بانتشار حركة الدخول فى الإسلام بين الأحباش، الأمر الذى أهم ملوك أمحرة وجعلهم ينظرون جادين فى وضع حد لهذه الحركة والقضاء عليها بشتى الوسائل .

ولاشك أن الإسلام كان يشق طريقه إلى داخل البلاد بالتدريج. وقد رأينا فيما سبق أن يكونو أملاك (١٢٧٠-١٢٨٥م) يذكر فى رسالته إلى الظاهر بيبرس أن عنده فى عسكره مائة ألف فارس من المسلمين . وبعد ذلك بقليل (حوالى ١٣٠٠ م) شق أحد الدعاة إلى الإسلام طريقه إلى بلاد الحبشة ليدعو أهلها إلى هذا الدين ، فتمكن من هداية مائتى شخص فى السنة التالية من

دعوته .فهاجم بهم ملك أمحرة واشتبك معه فى معارك كثيرة [١] .
ولم يكن المسلمون على حدود الحبشة الشرقية فحسب بل كان منهم
قبائل تسكن على الحدود الغربية كذلك. ويقال إن الملك بئيد
ماريام (١٤٦٨ - ١٤٧٨ م) قد قضى معظم فترة حكمه فى محاربة
المسلمين على الحدود الغربية من مملكته [٢] .

وكان من العرب جماعات خاضعة لملوك الحبشة لا يناصبونهم
العداء، هؤلاء هم الذين يروى أنهم كانوا فى النصف الأول يسكنون
فى مصوع ويعيشون فى كنف الأحباش، يطوفون جماعات كل جماعة
تتألف من ثلاثين أو أربعين شخصا ،ومعهم أطفالهم ونساؤهم ،
وعلى رأس كل جماعة قائدها المسيحى، ويروى أيضا أن بعض
المسلمين كانوا فى خدمة الملك وكان يعهد إليهم مراكز خطيرة ، وكان
من هؤلاء العرب من يظل على دينه، ومنهم من كان يترك إسلامه
ويدين بالمسيحية [٣] . أضف إلى هؤلاء جماعات العرب الذين
كانوا يفدون على بلاد الحبشة تجاراً أو دعاة إلى الإسلام - كما
سنرى بعد - فهؤلاء كانوا يتقربون إلى زعماء الأحباش ويؤسسون
معهم علاقات طيبة .

وكان طبعيا أن تحدث هذه العلاقات آثارا اجتماعية بعيدة

(١) Arnold, p. 113—4.

(٢) Id. p, 114

(٣) Id. p, II5

المدى . ولعل أقرب مثل وأبسطه ما كان يحدث من مصاهرة بين الأحباش والعرب . ومن ذلك ما فعله بئيد ماريام من زواجه بامرأة عربية ، كان لها أثر كبير فى إدارة الشئون السياسية والدينية فى الحبشة فترة طويلة . كانت عربية مسيحية . ولكنها كانت تحن إلى عنصرها ، وتتمنى أن تتحسن العلاقات بين الحبشة وملوك عدل . ولكنها قد اضطرت ، بحكم الظروف القائمة فى ذلك الحين ، أن تناصب الإسلام والمسلمين العداء .

هذه المرأة العربية يقال لها رومنا (أى رمانة) وتسمى إلينى أيضا (أى هيلينا) . كان أبوها محمد حاكما على إقليم دوارو . وكانت كل أمنيتها أن توجد تفاهما بين ملوك عدل والأحباش . وتوقعت أن هؤلاء المسلمين سيغزون البلاد ، وسيخربون فيها ما استطاعوا ، وسينتقمون شر انتقام. وفى أوائل القرن السادس عشر ساعدت هى والمطران مرقس لبنادنجل على تولى العرش (١٥٠٨-١٥٤٠ م) ، وكان صغير السن. فقامت هى بإدارة شئون البلاد ، وأخذت ترشد الملك وتوجهه . ولكن الجهود السلمية التى قامت بها الملكة إلينى قد أخفقت فجرد لبنادنجل حملة على محمد ملك عدل فهزمه، وغزا عدل. وأحرق المدن، وخرب القلاع. وقد حصر المسلمون فى مكان ضيق من الوادى بين فطيجار وعدل وقتل منهم ما يقرب من ١٢٠٠٠ مسلم . واعتصم الباقون بالجبال،

حيث هلكوا من الجوع والعطش . وانتزع الأحباش الراية الخضراء شعار ملك عدل ، كما غنموا أشياء كثيرة . وفى أثناء هذه الموقعة (١٥١٦ م) ، كان البرتغاليون قد جردوا حملة على زيلع واستولوا عليها وأحرقوا المدينة . وفى نفس هذه السنة هزم قنصوه الغورى، آخر سلاطين المماليك فى مصر، فى وقعة مرج دابق أمام جيش سليم الأول السلطان التركى . وأرسل هذا السلطان قائده سنان باشا فى حملة إلى بلاد العرب ، وأخضع حكامها وزعماءها ، وعين حكاما من الأتراك فى كل المدن ؛ واحتل الأتراك كل موانىء البحر الأحمر الواقعة فى بر العرب، كما استولوا على سواكن الواقعة على الساحل الإفريقى. وكان احتلال الأتراك لهذه البقاع باعثا على قلق الأحباش، والعدليين جميعا . فبادر العدليون إلى توثيق الصلات بينهم وبين الأتراك ، وكان أمر هؤلاء العدليين أيسر من أمر جيرانهم الأحباش فى هذه السبيل ، فالعدليون إخوان الأتراك فى الدين ، ومن الممكن أن يتفاهموا . ووجد الأتراك ، من ناحية أخرى ، أنهم سينتفعون من وراء هذا التفاهم بخبرة العدليين فى التجارة وأساليبها فى هذه البلاد . وكان الأتراك ، قبل أن تتحسن العلاقات بينهم وبين العدليين قد استولوا على جزيرة زيلع حيث أسسوا أسطولا يهاجمون به السفن التجارية المناوئة . وهذا ما حفز العدليين إلى

إلقاء السلم إلى هؤلاء الغرباء . أما الأحباش فكان أمرهم أصعب، فهم مسيحيون يناصبون المسلمين العداء ، وهم من ناحية أخرى ، قوم لم يكونوا من الرقى الحربى والعسكرى بحيث يستطيعون أن يصمدوا أمام الجيش التركى المنظم . فلم يكن الأحباش قد عرفوا من الأسلحة حتى ذلك الحين إلا القوس والسهم والرماح والنبال والتروس والدروع ، على حين كان الترك مزودين بالمدافع والبنادق والنفط والوسائل الحربية الحديثة التى كان الأحباش يجهلونها جهلا تاما . لهذا رأت الملكة إلينى (رومنا) أن تبحث عن حلفاء من الأوربيين يقفون إلى جانبها فى وجه العدو المتحضر ، فأرسلت إلى قنصوه الغورى سنة ١٥١٦ (قبل محاربة سليم الأول) ، ولكنه سرعان ماقتل واجتاح الترك بلاده . فتطلعت إلى البرتغاليين ،ولا سيما بعد أن سمعت عن انتصاراتهم في المحيط الهندى ، وأنهم قضوا على تجارة مصر مع الهند . فأرسلت الملكة إلينى إلى الملك عمانويل ملك البرتغال فى ذلك الحين رسالة تقول فيها ... « باسم الله ... السلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة... تحياتى إليكم ودعواتى لكم...لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر قد جهز جيشا ضخماً ليضرب قواتكم ، وليثأر من الهزائم التى ألحقها به قوادكم فى الهند . ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا فى البحر الأحمر أو إلى

مكة أو جزيرة باب المندب ، وإذا أردتم فانا نسيرها إلى جدة أو الطور ، وذلك لنقضى قضاء تاما على جرثومة الكفار . . . ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحى يستطيع فى وقت قصير أن يبيد الأمم الإسلامية المتبربرة . . . ولما كانت ممتلكاتنا موغلة فى الداخل وبعيدة عن البحر الذى ليس لنا فيه قوة أو سلطان فإن الاتفاق معكم ضرورى ، إذ أنكم أهل بأس شديد فى الحروب البحرية[1] . . .

وفى سنة ١٥٢١ زحف المسلمون على هرر بقيادة أبى بكر بن محمد سلطان عدل واستولوا عليها .

وفى سنة ١٥٢٥ توفيت الإمبراطورة هيلينا التى كانت تشد أزر لبنادنجل، والتى كانت قد حكمت الحبشة أعواماً كثيرة. وأصبح لبنادنجل وحيداً أمام قوة المسلمين التى بدأت تظهر وتعظم على صورة أثارت فى نفسه الرعب والفزع . فقد أدرك الأتراك خطر تحالف البرتغاليين مع الأحباش ووجدوا أن البرتغاليين يلقون فى بلاد الحبشة نجاحاً سريعاً ، فلجئوا إلى الاتفاق مع العدليين وأمدوهم بالأسلحة النارية ، ووجد الأتراك الفرصة سانحة لقيام أحمد جرانى ملك عدل يساعده الباشا التركى حاكم زبيد ، الذى أرسل الأسلحة والمدافع إليه ، ويؤازره شريف مكة الذى بعث

---

(١) حامد عمار ص ١٠٩

إليه جنوداً من العرب .وزحف أحمد جرانى على قلب بلاد الحبشة ، فتحرك إلى (وهى شبه) وغزا الجلا وسائر الشعوب التى تجاور مدينة هرر، ثم وصل إلى هرر ، ثم زحف إلى شواوسار شمالا إلى غندار فأكسوم . ولبنادنجل فى هذه الأثناء يتنقل هاربا من مدينة إلى أخرى ،وجرانى يطارده ويقتل من الأحباش خلقا كثيرا ، ويحرق الكنائس ويخرب الآثار المسيحية . وقد لبثت غزوة جرانى هـذه من ١٥٢٨ إلى ١٥٤٣ م وكان لها أثر كبير فى نشر الإسلام فى البلاد .

يروى أحمد جرانى عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة أيجو، وكان قد ترك موطنه ، واعتنق الإسلام فى عدل . ولما قام بهذه الغزوة انضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم،ودخلوا فى الإسلام، كما آثر سكان بعض الأقاليم التى فتحها جرانى دفع الجزية والبقاء على دينهم . وقد استغل زعماء المسيحيين الذين انتقلوا إلى الإسلام على يد أحمد جرانى نفوذهم الشخصى فى تحريض جيوشهم على الدخول فى الإسلام ،وكان من الميسور إدخال كثير منهم فى الإسلام لما كانوا عليه من جهل تام بعقائد المسيحية .وقد اغتنم كثير من المسلمين، الذين كانوا قد أقاموا فى الحبشة قبل هذه الغزة، فرصة انتصار هذا الملك المسلم وساعدوا بإخلاص فى نشر الدعوة الإسلامية بين الأحباش . بل كان منهم

من تظاهر بالنصرانية حرصاً على مال أو جاه أو سلطان ، فما كادوا يرون غزوة جرانى وانتصاراته،حتى بادروا إلى نبذ ولائهم للمسيحيين وللملك المسيحى،وجاهروا امرةأخرى بأنهم مسلمون[١].

وقد كتب أحد هؤلاء إلى أحمد جرانى خطاباً هذا نصه :

« أنا من أول مسلم وابن مسلم وأسرونى المشركون ونصرونى ، وإن قلبي مطمئن بالإيمان. والآن أناجارالله وجاررسوله وجارك أن تقبل توبتى . ولا تؤاخذنى بما عملت ، فأنا تائب إلى الله ، وهذه جيوش الملك الذين هم معى أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا » . وقد حدث فعلا أن معظم جيشه قد آثروا أن يقتدوا بقائدهم،فأسلموا جميعهم،وهم فيما يقال نحو عشرين ألفاً مع نسائهم وأطفالهم[٢] .

ولم ينقض حكم لبنا دنجل سنة ١٥٤٠ حتى كان العرب قد جعلوا من أنفسهم سادة على الحبشة كلها[٣] .

---

(١) Arnold, p. 115-6.

(٢) عرب فقيه ص ١٨١ — ١٨٢ ، ١٨٦

(٣) كتب المؤرخ العربي أحمد بن عبد القادر شهاب الدين المعروف بعرب فقيه تاريخ غزوة جرانى فى القرن السادس عشر، وهوالمؤلف الوحيد باللغة العربية الذى ذكر لنا أماكن كثيرة فى الحبشة . وقد نشره ريليه باسيه مع ترجمة فرنسية فى باريس ١٨٩٧ — ١٩٠١ .

وبعد وفاته تولى ابنه جلاوديوس (١٥٤٠ — ١٥٥٩ م)، واستطاع بمعونة البرتغاليين أن يتخلص من حكم العرب الذين كانوا قد أحالوا البلاد صحراء مقفرة، وقتل أحمد جرانى على يد أحد الجنود البرتغاليين سنة ١٥٤٣ م. وخلف أحمد جرانى أحد أقربائه. الأمير نور الدين الذى هزم جلاوديوس ملك الحبشة وقتله سنة ١٥٥٩ م.

وقبل ذلك الوقت بعامين ، احتل الترك مصوع واستولوا على المدن المجاورة، حتى وصلوا إلى مدينة دباروة عاصمة الإمارة البحرية التى ساعد حاكمها الأتراك فى احتلالهم مصوع.

وفى ذلك الحين، كانت حالة الدولة تزداد سوءاً على سوء، فالأتراك يوسعون سلطانهم، ويحتلون المدن الساحلية فى الشرق، وقبائل الجلا الذين يعيشون فى الجنوب يقتلون ويخربون، والفلشة يعلنون لواء العصيان والثورة. وعلى هذه الحال تولى عرش البلاد الملك سرصادنجل الذى سماه القضاة (ملك سجد) لكى يقهر كل الملوك الذين سيحاربونه (حكم من ١٥٦٣ — ١٥٩٧م)، وبدأ سرصادنجل صراعا قويا مع تلك القوى المختلفة التى تهدده من كل حدب وصوب. فثار عليه حاكم دباروة ، تلك الإمارة البحرية التى قدمت يد المساعدة للترك ومهدت لهم على الساحل. وتحالف حاكما مع الأتراك. وقامت بينهم وبين سرصادنجل

حرب انتهت بهزيمة الحلفاء فى وقعة عظيمة قرب أبا جريمة فى سنة ١٥٧٨ م . وفى سنة ١٥٨٩ تغلب سرصا دنجل على الباشا التركى كداورد ، قرب آركيكو ،ومات الباشا التركى فى المعركة. وكان للبرتغاليين فضل كبير فى إمداد سرصادنجل بالمساعدة. ووجه الملك همه إلى محاربة ملوك عدل ، فانتصر على محمد الرابع ملك عدل فى سنة ١٥٧٧ م . وبهذه الانتصارات المتوالية على المسلمين من الأتراك ومن أهل عدل ، لم يعد المسلمون من الوجهة السياسية ، خطراً كبيراً على البلاد كما كانوا من قبل.

وتغلب الملك سوسنيوس (١٦٠٧ — ١٦٣٢) على مملكة سنار الإسلامية . وفى ١٦٧٤ حرض الثائرون طلحة ، أمير عدل على امتلاك ناصية الحبشة، ولكنه أفهمهم أن هذا الأمر محال . وطالما شغبت قبائل البجة (أو البلو) الذين كانوا قد أسسوا ولاية إسلامية حول سنة ١٦٥٠ فى سمهر بزعامة نائب آركيكو على سكان الحدود ، ولكنهم أحسوا أنهم من الضعف بحيث لايستطيعون أن يصمدوا أمام ملوك الحبشة . وكذلك ذهب النائب موسى سنة ١٦٩٣ (وهو من سلالة أمر قنو) إلى أكسوم ليستميح الملك العفو لما اقترفت يداه . وبعد ذلك بزمن قصير انهزم أحد أمراء البجة فى ١٦٩٧ ،وكان لرأس ميكائيل فضل كبير

فى وقف مطامع النائب عند حدها سنة ١٧٦٩ .

٢

ولم يكن ضياع سلطة المسلمين السياسية من الحبشة معناه ضياع النفوذ الروحى للعقيدة الإسلامية فى هذه البلاد. فمن المحقق أن الإسلام كان يشق طريقه فى الحبشة ، ولا سيما بعد غزوة أحمد جرانى ، فى نجاح محسوس. وربما كان هذا راجعا إلى اتصال المسلمين بالمسيحيين من الأحباش اتصالا مختلف المظاهر . فقد توغل جيش أحمد جرانى فى الحبشة، وكان له من التأثير مارأينا ، وتردد التجار المسلمون على هذه البلاد ، وظفروا بكثير من الداخلين فى الإسلام. أضف إلى ذلك هؤلاء الدعاة من العرب الذين كانوا يترددون بين حين وحين على إفريقية الشمالية الشرقية بخاصة ، وهم يمثلون بحق صورة من نشاط الدعوة الإسلامية . وقد قيل إن عدة مئات من الدعاة المسلمين كانوا يأتون كل عام من بلاد العرب ويلاقون نجاحا فى أعمالهم بين أهالى السومال، إذهم أقرب إلى بلاد العرب التى جاء منها هؤلاء الدعاة من أية بقعة أخرى من بقاع الحبشة . وفى القرن الخامس عشر، وفدت شرذمة تتألف من أربعة وأربعين عربيا من حضرموت على أرض الحبشة دعاة إلى الإسلام ، ورسوا فى ميناء بربرة على البحر الأحمر . ومن هناك

تفرقوا فى بلادالسومال للدعوة إلى الإسلام . وقد قيل إن أحدهم ويدعى الشيخ إبراهيم أبو زرباى شق طريقه إلى مدينة هرر حول ١٤٣٠ م، وظفر من بين أهالى هرر بعدد كبير من الداخلين فى الإسلام،ولايزال قبره مثابة تشريف وتكريم فى تلك المدينة؛ ولايزال يطلق على تل قريب من بربرة جبل القديسين تذكاراً لهؤلاء الدعاة الذين قيل إنهم اجتمعوا فى هذا المكان اجتماعا سريا قبل أن يتفرقوا إلى مختلف البلاد للدعوة إلى الإسلام [١].

وفى عصر الملك فاسيلداس ، وهو السلطان سجد الثانى ملك أمحرة (١٦٣٢ – ١٦٦٧)، سرت إشاعة من جانب اليسوعيين تقول إن الملك فاسيلداس قد اعتنق الإسلام، وإنه أرسل إلى اليمن يطلب معلمين يرشدونه ويفقهونه فى الإسلام [٢]. والظاهر أنه كان لهذه الإشاعة نصيب من الصحة ، فنى سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٤٨م) أرسل هذا الملك كتابا إلى إمام اليمن المؤيد بالله يطلب منه أن يرسل إليه بعثة لدعوته إلى الإسلام، فلم يرسل إمام اليمن أحداً، فعاوده بكتاب آخر سنة ١٠٥٧، فأرسل إليه الخيمى فى نفر من أصحابه كما أشرنا من قبل . وتقرر حمل هذه البعثة فى المراكب المعدة مع جماعة من العسكر المحافظين فى بندر المخا، وذلك خوفا من تعرض الأتراك

---

(١) Arnold, p. 350.

(٢) Budge, vol.ii. p. 401.

لهم[١] . وأخذوا طريقهم إلى بلاد الحبشة ، وكانوا يخشون قبائل الجلا (ويسميها الحيمى القالة ويصفهم بالبأس والفظاعة [٢]). ووصلت البعثة إلى إندرتا ، وكان يحكمها أمير يقال له بعل جادة (أى صاحب الحظ) . وكان فى استقبال البعثة بعض فقهاء هذه المدينة ويسمون آل كبيرى صالح ، وهو اسم تعظيم يسمون به الرجل المعتقد ، و بعضهم يعرف اللسان العربى ، كما جاءهم كذلك (كبيرى خير الدين) وله معرفة جيدة بمذهب الإمام الشافعى ، وهو أفقه من آل كبيرى صالح ، وهم جميعا على مذهب الإمام الشافعى [٣] . ثم اجتازت البعثة بلاد السحرت ، واتصلت ببلاد الفاشة (أى اليهود ويسميهم الحيمى الفلاسة) ، ومنها إلى أمحرة حيث قابلوا الملك . وكان يترجم لهم بين يدى الملك رجل من أخصائه شريف ينسب إلى الحسين بن على ، ولكنه اعتنق النصرانية ، وعاش مع الملك ونزل الضيوف فى مكان من أمحرة كان يسكنه مسلمو هذه المدينة[٤] ، وبدأ القلق يدب فى نفوس اليمنى وأصحابه ، ولا سيما بعد أن وجدوا من الملك مماطلة وتسويفا ، ورأت البعثة أن بقاءهم فى هذه البلاد قد يعرضهم للخطر ، فرجعت سنة ١٠٥٩ إلى اليمن وقد منيت بالإخفاق .

---

(١) الحيمى ص١ — ٤ (٢) نفسه ص١٧

(٣) الحيمى ص٢٣ (٤) نفسه ص٢٣-٣٣، ٣٤-٤٤

ومن أهم العوامل التى ساعدت على نشر الإسلام هناك تلك الجهود التى قام بها التجار المسلمون الذين كانوا كثيرى التردد على بلاد الحبشة .

تمكنت طائفة من التجار المسلمين من الانتشار فى شتى البقاع للبيع والشراء ، تركزت فى قوص ، المدينة المصرية التى كانت سوقا تجارية هامة ترد إليها منتجات إفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند والحبشة وغيرها . والظاهر أن النواة الأولى التى تكونت منها هذه الطائفة كانت من التكارير (أهالى تكرور وهم مسلمو السودان) ، وأطلق عليهم الكارمية [١] منذ العصر الأيوبى . ثم اتسعت هذه التسمية ، فأطلقت على عامة التجار الذين اشتغلوا بتجارة التوابل . وأصبح لهم بمرور الزمن نفوذ كبير ، وثروة عظيمة ، وانضم إليهم تجار من مختلف البلاد . وقد مارس هؤلاء التجار تجارة العاج والتوابل والأقمشة وغيرها ، كما كانوا يجلبون الرقيق الأسود إلى مصر . والظاهر أن هؤلاء التجار كانوا على جانب كبير من التدين ، كما كانوا يودون أن يأنسوا إلى

---

(١) ربما كان هذا اللفظ نسبة إلى مملكة الكانم من دول السودان الغربي . وأهل هذه المملكة ينتسبون إلى أصل عربي من ذرية الحسن بن على (دائرة المعارف الاسلامية Kanem) .

عملاء من ملتهم ، يركنون إليهم ، ويشرفون لهم على أعمال البيع والشراء فى بلادهم .لهذا عملوا على نشر الاسلام بين من اتصلوا بهم.وكان من هؤلاء التجار علماء وفقهاء وقيل،إنهم بنوا بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق[١] .

وقد وصل الكارمية بمتاجرهم إلى بلاد الحبشة ، ووجدوا ترحيباً كبيراً من زعماء الحبشة، ولا سيما بين الأمراء والحكام، نظراً لما أوجدوه لهم من أسواق لبيع حاصلاتهم التجارية ، وما كانوا يقدمونه من خدمات فى تصدير المواد الصناعية الأجنبية إلى بلاد الحبشة . أضف إلى ذلك أن السبى وقطع الطريق وغارات القبائل المختلفة كانت تجلب كثيراً من الرقيق الذين كانت تجارتهم تدر ثروة كبيرة على الأحباش . ولما وجد الأحباش أنفسهم عاجزين عن تصدير هؤلاء الرقيق إلى الخارج ووجدوا فى هؤلاء التجار خير عون لهم على تصديرهم إلى مختلف البلاد ، رحبوا بهم وأفسحوا لهم صدورهم . فكان التجار يتخذون من علاقتهم الطيبة بالأحباش وزعمائهم سلماً لبث الدعوة الإسلامية[٢]. وكان هؤلاء التجار يمكثون فى هذه البلاد فترات طويلة ، فكانت

---

(١) حامد عمار ص ٥٨ ، ٥٩ .

Cederquist, Moslem World, vol. ii. p. 153. (٢)

لديهم فرص كثيرة عرفوا جيداً كيف يستغلونها فى سبيل العمل على نشر الإسلام . وقد أسلم على أيديهم كثير من قبائل الجلا[١] التى تتصف بالوحشية وشراسة الطباع . ومن المحتمل أنهم كانوا أصحاب الفضل الأكبر فى دعوة أهالى السومال إلى الإسلام .

ولما لم تكن فى البلاد حكومة مركزية قوية ، ساعد ذلك على قيام أمراء صغار مستقلين ، وكان لكثير منهم ميول إسلامية ، على الرغم من أن قوانين البلاد كانت لا تبيح أن يتولى أمر الولايات الحبشية إلا أمراء يدينون بالمسيحية. والظاهر أن هؤلاء كانوا يكتمون إسلامهم خوفا من السلطان المسيحى وحرصاً على مراكزهم . وقد استخدموا فى الواقع نفوذهم فى نشر الإسلام وتشجيع المسلمين[٢] .

ولا شك أن اشتغال المسيحيين بالخلافات المذهبية قد ترك الفرصة للاسلام أن يشق طريقه آمناً فى هذه البلاد . فإن ما قام به اليسوعيون من أعمال تبشيرية فى البلاد ، وما فعله المبشرون من الرومان الكاثوليك ، وما صنعه البرتغاليون من تدخل فعال فى كل الشئون المدنية والسياسية — كل ذلك قد أثار معارضة عنيفة بين جمهور المسيحيين من الأحباش[٣] .

---

(١) Arnold, p. 348- 9 .

(٢) Id . p. 117.

(٣) Id. p. 116.

ثم إن الطبقات الفقيرة من الأحباش المسيحيين لم يلقوا أية عناية من رؤسائهم ، بل كانوا يحتقرونهم ويبهظونهم بالضرائب ويحدون من حريتهم الدينية . وسلط عليهم القساوسة والرهبان يضايقونهم ، ويملون عليهم إرادتهم ، ويفرضون عليهم مايعملون حتى فى طعامهم وشرابهم ، وينذرونهم ، إن لم يفعلوا ما يأمرونهم به أشد العقاب [١] .

هذا إلى جانب تفوق المسلمين فى الحبشة ، فقد كانوا على اختلاف قبائلهم ينعمون بحرية دينية كاملة ، وكان لهم أن ينشروا الدين ويعلموا من يريدون ، وكانوا يبذلون عناية خاصة بتعليم أبنائهم وتلامذتهم أصول الدين وتعاليمه [٢] . وينقل توماس أرنولد عن ريبل أنه كثيراً ما لاحظ أثناء رحلاته إلى بلاد الحبشة ، أنه عندما كان يراد ملء منصب من المناصب التى تتطلب أن يكون الشخص الذى يشغلها أمينا كل الأمانة موثوقا به تمام الثقة ، كان اختيارهم يقع دائما على شخص مسلم . وقد عقد ريبل مقارنة بينهم وبين المسيحيين، فقال إنهم (أى المسلمين) كانوا أعلى همة وأكثر نشاطا ، فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة فى الوقت الذى نرى فيه أبناء المسيحيين

Cederquist. p. 154. (١)

Id. passim. (٢)

لا يتعلمون إلا عندما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت [١]. أضف إلى ذلك أن المسلمين فى الحبشة ، منذ القدم ، هم سادة التجارة الحبشية . ذلك أنه كان من اللازم ، لكى تدخل التجارة إلى بلاد الحبشة، أن تمر بحدود المسلمين الذين كانوا يحتلون أكثر حدود الحبشة ، كما أن التجارة زادت فى عددهم ، وشجعت غيرهم على الاقتداء بهم ، ودرت عليهم ثروة كبيرة ونفوذ اعظيما [١]. فملكوا الخدم والعبيد ، ولبسوا أردية زاهية تلفت الانظار . وهذا كله جعل المسيحيين من الأحباش يعتقدون أن المسلمين أسمى قدراً وأعظم منزلة من السواد الأعظم من بنى وطنهم [٢].

وهكذا انتشر الاسلام وانبث المسلمون فى بقاع كثيرة . وربما استطاع المرء أن يقدر مدى التقدم الذى أحرزه الاسلام فى غضون هذه الفترة بما أثبته رحالة عاش فى القرن السابع عشر الميلادى ، إذ يخبرنا أن المشايعين لهذا الدين كانوا منبثين فى كافة أنحاء بلاد الحبشة ، وأنهم يؤلفون ثلث جميع السكان [٣].

وفى هذا القرن نفسه ضاق الأحباش ذرعا بتلك المذاهب

---

(١) Arnold, p. 117.

(٢) Cederquist, p. 154.

(٣) Arnold, p. 117.

المسيحية المختلفة التى تريد أن تقضى على الكنيسة اليعقوبية التى يعدها الأحباش كنيستهم القومية ، يحرصون على بقائها حرصهم على دياناتهم ذاتها . فدب البغض فى نفوس الأحباش من هؤلاء الأجانب ، ولا سيما البرتغاليين الذين تدخلوا فى شئونهم ، وآزروا مذهبا دينيا (أى المذهب الكاثوليكى) دخيلا عليهم ، حتى إن بعض القواد قد أعلن صراحة أنه من الخير للأحباش أن يخضعوا للحكام المسلمين من أن يستمروا فى محالفة البرتغاليين (١) .

وحول سنة ١٦٣٢ طرد الأحباش البرتغاليين . وأخرجوا كل المسيحيين الأجانب من البلاد ، وتنبه ملوك أمحرة إلى خطورة انتشار الإسلام بين أهالى الحبشة ، فعقد الملك يوحنس الأول (١٦٦٧ — ١٦٨٢م) مجمعا فى السنة الثانية من حكمه ، وقضى بمنع المسلمين أن يعيشوا إلى جانب المسيحيين ، وأمرهم بأن يسكنوا فى أماكن نائية عن المسيحيين (٢) . ثم تجدد هذا المنع فى سنة ١٦٧٨ ، وهذا يدلنا على أنه كان هنالك عدد لا يستهان به من المسلمين فى ذلك الحين .

---

(١) Arnold, p. 116.

(٢) Budge. vol. ii. p. 407.

٣

كانت مناوأة الحبشة للمسلمين ، قبل عهد يوحنس الأول ، مقصورة على المسلمين المجاورين لبلاد الحبشة الذين يعدون غرباء عن الحبشة وعن جنسهم ، على حين كان المسلمون المقيمون فى داخل البلاد . على قلتهم فى ذلك الحين ، آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء فى أغلب الأحيان. ولكن يوحنس الأول سن هذه البدعة، فقضى بإقصاء مساكن المسلمين عن المسيحيين كما رأينا ، وتبعه فى هذه السبيل ملوك آخرون . على أن الاضطهادات كانت ترجع غالباً إلى ما أحدثته ممالأة بعض زعماء الحبشة المسيحيين لرعاياهم المسلمين من رد فعل . وإلى تلك الحرب التى نشبت بين المصريين والحبشة فى القرن التاسع عشر ، ثم إلى انتشار الإسلام فى الحبشة الذى أصبح ملوك الحبشة ينظرون إليه على أنه خطر يهدد المسيحيين والدولة المسيحية فى البلاد .

ولعل (راس على) كان خير من يمثل زعماء الحبشة الذين كانوا يمالئون المسلمين ويؤثرونهم على المسيحيين . وكان هذا الزعيم حاكما على (بيجامدر) ونائبا عن ملك الحبشة ، واستطاع أن يباشر فعلا سيادة البلاد سنة ١٨٥٣ ، قبل أن يجلس الملك تيودور ملك الحبشة على العرش (١٨٥٥ — ١٨٦٨) . ومع أن راس على هذا كان مسيحيا ، آثر المسلمين ، ووزع المناصب الحكومية

عليهم ، وجعل لهم أنصباء من غنائم الكنائس . وفى أثناء حكمه دخل فى الإسلام نصف أهالى الولايات الوسطى من الحبشة . وقد أحدث هذا رد فعل فى عهد الملك تيودور ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، فاضطهدهم اضطهاداً شديداً .

ومما زاد فى استياء ملوك الحبشة من المسلمين ، ذلك الشقاق الذى وقع بين الحبشة والحكومة المصرية والذى أدى إلى نشوب الحرب بينهما من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٨٢ . وقبل نشوب هذه الحرب بنحو ثلاثين عاماً ، احتل المصريون بعض المقاطعات الواقعة شمالى الحبشة ، مثل هالنجه وألغيدن وسبدرات وغيرها . ونشروا الإسلام فى تلك البقاع ،كما تمكنوا فى سنة ١٨٦٤ من انتزاع مدينة مصوع من أيدى الأتراك . ثم استولوا على هرر وبعض مناطق جنوبى الحبشة وغربيها . وعلى أثر ذلك أرسل الخديوى إسماعيل قوة عسكرية إلى بلاد الحبشة من طريق مصوع . ولكن الملك يوحنس (١٨٦٨ - ١٨٨٩) استطاع أن يتغلب عليها فى معركة جدا جدى (فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٧٥)، فأرسل المصريون حملة أخرى بقيادة حسن باشا بن الخديوى إسماعيل، ولكن كان نصيبها الإخفاق كذلك فى معركة جورا (فى ٧ مارس سنة ١٨٧٦).

ونظر الأحباش إلى هذه الغزوة على أنها حلقة جديدة فى سلسلة العلاقات بين ملوك الحبشة المسيحيين وسلاطين مصر المسلمين.

فقد رأينا كيف كان ملوك الحبشة فى العصور السابقة يصانعون هؤلاء السلاطين تارة ، ويوجهون إليهم أساليب التهديد تارة أخرى. والآن، وقد غزا المصريون بلاد الحبشة ، انكشف ما بين الفريقين من عداء، ونظر الأحباش إلى هذه الغزوة على أنها ذات هدف دينى ، على الرغم من أن المصريين أنفسهم ، لم يكونوا يهدفون إلى مثل هذا الغرض ، حين فكروا فى القيام بهذه الغزوة . وانعكست كراهية الأحباش للعدو المسلم على المسلمين من الأحباش الذين كانوا يقيمون بين ظهرانيهم . فى سنة ١٨٧٨ دعا الملك يوحنس أعضاء الكنيسة الحبشية إلى الاجتماع. ونادوا به حكما يقضى بينهم فى شئون الدين ، وقرروا جميعا وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة. وأعطى المسيحيون من جميع الطوائف ، عدا اليعاقبة الذين يتألف منهم السواد الأعظم من مسيحيي الحبشة، والذين يعد مذهبهم مذهب الكنيسة الحبشية من قديم الزمان ، مهلة عامين ، يصبحون بعدها متفقين فى المذهب مع الكنيسة القومية . أما المسلمون من الأحباش فقد ألزموا بالتسليم فى مدى ثلاث سنوات ، كما ألزم الوثنيون بالتسليم فى مدى خمس سنوات . وبعد أيام، أذاع الملك يوحنس مرسوما أنذر فيه كل الموظفين من المسلمين ، بالتخلى عن مناصبهم إذا لم يقبلوا التعميد فى مدى ثلاثة أشهر . ولم يكن لمثل هذا

التنصير الإجبارى بطبيعة الحال أثر يذكر ، ففى الوقت الذى تظاهر فيه المسلمون بالقبول والإذعان ، كانوا فى الخفاء يكتمون ولاءهم للدين الإسلامى. وقد شوهد بعض الموظفين من الأحباش المسلمين ، على أثر صدور هذا المرسوم ، يخرجون من الكنيسة التى كانوا يعمدون فيها ، قاصدين إلى المسجد يلتمسون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أجبروا على فعله [١] . على أن هذا المرسوم لم يشر إلى تعميد النساء فى قليل ولا كثير ، وإنما اقتصر على ذكر الرجال وحدهم . وكان هذا سببا قويا فى جعل ما صنعه الملك يوحنس فى هذه السبيل أضعف أثراً وأقل قيمة ، فقد قام النساء المسلمات بدور خطير فى نشر الإسلام فى بلاد الحبشة [٢] ، وفى سنة ١٨٨٠ أرغم الملك يوحنس مايقرب من خمسين ألفا من المسلمين على التعميد ، كما أجبر عشرين ألفا من إحدى القبائل الوثنية ، ونصف مليون من الجلا على الدخول فى النصرانية [٣]. وفى سنة ١٨٨٣ استطاع بعض المسلمين من أهالى سيراى وحماسين وغيرها أن يحصلوا على إذن للبقاء فى بلادهم ، على أن يعيشوا فى أماكن بعيدة عن المسيحيين .

---

(١) Arnold, p. 119.

(٢) Id. passim.

(٣) Id. passim.

وسكتت مصر عن معاودة الكرة على الحبشة ،ولا سيما بعد أن انشغلت بعزل إسماعيل باشا ، وثورة عرابى ، وظهور المتمهدى فى السودان .

وقد مثلت السودان دورا هاما مع الأحباش فى هذه الفترة، فقد حدث أن هاجر إلى السودان كثير من مسلمى الحبشة الذين فروا بدينهم من اضطهاد ملوك الحبشة المسيحيين ، ولا سيما فى عهد يوحنس هذا .

فى ذلك الحين قام محمد أحمد المهدى بحركته ، وغزا كردفان ودار فور وبحر الغزال وسنار ثم الخرطوم أخيرا (١٨٨١ - ١٨٨٥) . وشاع ذكره فى بلاد الحبشة على أنه المهدى المنتظر الذى جاء ليخلص الناس مما هم فيه من كفر وعناد ، فهاجر إليه من الأحباش خلق كثير. وكان من بين هؤلاء رجل من كبار الحبشة ، يقال له محمد جبريل، وفد على المتمهدى واتبعه ، فأرسله المتمهدى إلى الحبشة ليدعو جميع المسيحيين فيها إلى اتباع الديانة الإسلامية ، ودعوة المسلمين كلهم إلى الايمان بمهدويته والخضوع له ، فصدع محمد جبريل بأمر المتمهدى . فلما رأى يوحنس هذه الحركة اهتم للأمر، ولاسيما بعد أن اتبعت شقيقة الملك يوحنس نفسه الإسلام وتزوجت أحد أمراء المسلمين . فكان هذا ، بالإضافة إلى حرب المصريين سببا فيما أقدم عليه هذا

الملك من اضطهاد واسع النطاق . وهاجر كثيرون من مسلمى الحبشة إلى شيعة المهدى ، وأقاموا لهم محلا يشبه معسكرا مكان البقعة التى يسمونها (عراديب) شمالى القلابات ، وسموا هذا المحل (تبارك الله) . وولى التعايشى ، خليفة المهدى أميرا عليهم يقال له محمد فقرا . وقد أغار هذا الأمير ، بإيعاز من التعايشى على أطراف المملكة الحبشية ، فرد الأحباش غارته، وأقاموا على حدودهم حراسا .

وكانت القلابات، مركزا من مراكز الدعوة المهدوية ، يسكن فيها وفيما جاورها من النواحى جموع كبيرة من الأحباش المسلمين الذين تأثروا هذه الدعوة، وأصبح كثير منهم من شيعة المهدى المتحمسين . ولكن الحبشة كانت ترسل قوادها من حين لآخر لمهاجمة مدينة القلابات . وفى إحدى هذه الغارات هزم القائد الحبشى محمد فقرا واضطره إلى التقهقر . كما تمكن الأحباش من قتل محمد أرباب وأكثر جنوده ، وكان قد نشأ محمد أرباب هذا يعلم الأولاد القرآن الكريم فى مدينة القلابات، فالتحق بالقوم، فأقامه التعايشى داعيا من دعاة المهدوية [١] .

فلما بلغ خبر هذه الهزائم أم درمان جهز التعايشى عشرين ألف درويش وأرسلهم مددا للذين تقهقروا إلى القضارف ، فهاجم

---

(١) رحلة صادق باشا ص ٦٦

هذا الجيش مدينة القلابات، وانسحب الأحباش، واحتل التعايشى المدينة، وأعطى الأمان لمن فيها، وأعلن لتجار الأحباش الحرية التامة فى ذهابهم وإيابهم إلى القلابات، وأذاع ذلك بين الناس، فأخذ تجار الأحباش يفدون على المدينة بمتاعهم وسلعهم وبضائعهم. فلما كثر هؤلاء التجار فى المدينة، انقض عليهم قائد التعايشى فاعتقلهم جميعا، وصادر أموالهم ومتاعهم، وأرسلهم إلى التعايشى فى أم درمان [٢]. وفى هذا العام نفسه أرسل التعايشى حملة أخرى إلى القلابات بقيادة حمدان أبو غنجة. وفى هذه الموقعة أنهزم الأحباش، ودخل أبو غنجة غندار، ونهب المدينة وأحرقها، ودمر الكنائس، وقتل رجال المسيحية، ثم عاد إلى القلابات ومعه كثير من الأموال والأنعام والنساء والغلمان. وبعد ذلك بعامين (١٨٨٩) زحف يوحنس على القلابات. وهجم الأحباش على الدراويش، ودخلوا منازلهم، وسبوا النساء والغلمان فى دور هؤلاء الدراويش. وفى ذلك الوقت فوجىء الأحباش بجيش من المصريين آت من الشمال وهو الذى كان قد انضم إلى الدراويش، عندما وقعت السودان تحت حكم المهدى. فتقدم قائدهم فرج الله وهاجم الأحباش، ووجه نيرانه إلى حيث يوجد يوحنس فقتله. وبذلك انتصر الدراويش وأرسل رأس يوحنس إلى التعايشى فى أم درمان، فسر هو ورجاله بذلك النصر [١].

---

(١) رحلة صادق باشا ص ٨١.

وخلف يوحنس على عرش الحبشة منيلك الثانى (١٨٨٩ - ١٩١٣) ، وكان ملكا على إقليم شوا قبل أن يسيطر على كافة أنحاء البلاد الحبشية . وقد أرسل إليه التعايشى أكثر من مرة يدعوه إلى الإسلام والانتظام فى سلك أتباع المهدى[١] . وفى أثناء فتنة المتمهدى سنة ١٨٨٤ ، أخلى المصريون هرر من جنودهم ، وتركوا المدينة لرجل يسمى عبد الله كان أمير المدينة قبل احتلال المصريين لها . فقام وأنزل العلم العثمانى ، ورفع بدلا منه علماً خاصاً به ، وانتحل لنفسه لقب أمير المؤمنين ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل إلى منيلك (وكان ملكا على شوا فى ذلك الحين) سجادة صلاة وكوزا وطستاً للوضوء ، ودعاه إلى الدخول فى الإسلام ، وهدده بالمسير إذا لم يجب طلبه . وأما منيلك فقد بعث إليه يلاطفه بكلام لين ، ولكن عبدالله لم يصغ لأقواله ، فنشبت الحرب بينهما سنة ١٨٨٦ ، ودارت الدائرة فيها على عبد الله ، وأخذ أسيراً بين يدى منيلك ، ودخلت هرر فى قبضة إمبراطور الحبشة ولا تزال كذلك إلى الآن[٢] .

ولا شك أن كل هذه الحركات التى قام بها ملوك الحبشة المسيحيون فى وجه المسلمين قد أثرت إلى حد ما فى إضعاف روح

---

(١) عبد الله حسين : السودان ح ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١

(٢) رحلة صادق باشا ص ٦٠

الإسلام فى هذه البلاد . ولـكن مما لا شك فيه أن الإسلام ظل يكسب أنصارا من الأحباش كلما تقدمت الأيام . وقد لقى هـذا الدين مناصراً قوياً فى شخص خليفة منيلك وحفيده ليج إياسو (١٩١٣ - ١٩١٦) الذى أنـكر الدين المسيحى وزعم أنه ليس من سلالة سليمان ولا ملـكة سبأ ، وإنما هو من سلالة النبى محمد ، وأوعز إلى بعض فقراء المسلمين أن يكتب له نسبا عربيا. وتزوج كثيرا من النساء المسلمات، واقتنى بعض الجوارى، وانتظم فى سلك المسلمين ، وتعبد فى مساجد هرر ، وتردد على أضرحة الأولياء ، ولم يدخل فى كنيسة ، وانتزع من المسيحيين منازلهم ، وأعطاها المسلمين . وثارت قبائل الجلا ، وكثير منهم مسلمون ، فرفض أن يرسل حملة إليهم . وأرسل السوماليون حملة إلى داخل الحبشة، وقتلوا عدداً من أهلها ، ولـكنه لم يحرك ساكنا ؛ وبنى مسجداً ، وطرح زيه العادى ولبس زى المسلمين ، فارتدى رداءهم وعمامتهم ، وتقـلد السيف العربى ، وكتب على العـلم بالحروف الحبشية (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) . بل فـكر فى إذكاء حرب مقدسة يقضى بها على المسيحيين ، فدعا السوماليين وبعض الأهالى لإعانته فى هذه الحرب ، وجيش جيشا عظيما من المسلمين لهذا الغرض . ولـكن الدول الأوربية تدخلت فى هذا الأمر ، فاضطر الى النزول عن العرش ، وتولت الأميرة زوديتو ملـكة ، وأصبح رأس تفارى ولى عهد المملـكة .

وربما ترجع نزعة ليج الى الإسلام إلى تربيته الأولى ، فقد ولد فى طنطا ونشأ فى المدارس المصرية ، وألم بالعربية ، وتربى تربية رياضية حرة ، ولهذا كان يؤثر الطلاقة وسعة الأفق ، ويضيق بقيود الملك وحفلات الدولة ، ويكره الأوربيين وكل شىء يرجع إلى أصل أوربى .

ولا شك أن حركة كهذه قد جعلت كثيرين ممن يكتمون إسلامهم ويتظاهرون بالمسيحية ، يظهرون على حقيقتهم ، كما ساعدت من غير شك على نشر الإسلام بين شعوب الحبشة وقبائلها الوثنية والمسيحية . وفى الصفحات التالية ، سنعرض بإيجاز لمدى تأثر هذه القبائل والشعوب بالإسلام .

٤

كان من أثر انتشار الإسلام فى البلاد ، واختلاط العرب بأهالى الحبشة ، أن نشأت بين أهالى الحبشة فكرة « التعرب » أو إيجاد رابطة ، أيا كان لونها ، بين شعوب الحبشة والعرب . ولم تكن هذه الفكرة وليدة هذه البلاد وحدها ، بل كانت سائدة فى كثير من البلاد التى فتحها المسلمون أو تسرب إليها الإسلام . ومن أمثلة هذا التعرب ما يزعمه أهالى السومال فى أساطيرهم من أنهم من نسل عقيل بن أبى طالب عم النبى (ص) . كذلك تزعم قبائل البشارية ، ويسكنون بين النوبة والبحر الأحمر ، أنها

من سلالة عربية ، ويربطون نسبهم برجل يقال له بشر . ويفسر مسلمو الحبشة لفظ الجلا (وهو اسم القبائل المتعددة التى كانت تسكن فى الجنوب ، ثم ارتحلت إلى الشمال فى جموع غفيرة ، وانتشرت فى عدة أماكن من بلاد الحبشة) تفسيرا طريفا ، فيزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أرسل رسولا إلى جدهم الأكبر ، ولاب ، يدعوه إلى الإسلام ، فرفض ولاب ، « وقال لا » فسمى « قال لا » أو « جال لا » .ومن ثم أطلق على هذه القبائل الجلا [١] . ولكن أكثر هذه المزاعم لا يعدو أن يكون وضعا وانتحالا ، صنع فى عصور متأخرة، تحمسا للإسلام وارتفاعا بأنسابهم وتاريخهم إلى مرتبة أرقى ، حتى تعظم منزلتهم فى نظر العرب والمسلمين .

كذلك تشبع الأفراد من هذه الفكرة، فرأينا ليج إياسو الذى جلس على عرش الحبشة من ١٩١٣ — ١٩١٦ ، ينكر دينه المسيحى ونسبه الوطنى وينتسب إلى فاطمة بنت النبي ، ويعلن ذلك أمام السوماليين ، ونظر اليه هؤلاء نظرتهم إلى المهدى المنتظر وإلى المخلص الذى جاء لينقذهم من كوارث الدنيا والآخرة .ويظهر أن هذه الفكرة ، فكرة التعرب ، كانت أقوى وأشيع بين أهالى السومال منها بين سائر القبائل الحبشية . ولا أدل على ذلك مما

(١) Budge, vol. ii. p. 616. ويسميهم الخيمى القالة .

صنعه محمد بن عبد الله حسان ، مهدى السومال (١٨٦٠ - ١٩٢٠) الذى كان ينتمي إلى قبيلة أوجدين باهجيرى السومالية ؛ فقد كان يغضب حين ينسبه أحد إلى قبيلته ، ويحب أن يلقبه الناس بالهاشمي (نسبه الى ما تزعمه الأسطورة التى ترجع سلالة أهالى السومال إلى عقيل بن أبى طالب) . أضف إلى ذلك أن هذا المهدى ، كان ذا أثر كبير فى جعل العقيدة الدينية هى الرابطة التى تجمع بين القبائل الإسلامية . وكان يتمنى فى قرارة نفسه أن يوحد بين المسلمين برباط الإسلام أو على حد تعبيره « أن يفرش سجادة صلاته على هذا البحر لتؤلف بين المسلمين وتؤاخى بينهم » . وفكر فى تنظيم القبائل تنظيما جديداً لا يقوم على أساس النسب والعصبية ، وإنما يقوم على أساس الدين والجهاد فى سبيل العقيدة ، فاختار من بين قبيلة هبر جدير قوة سماها حجاتو (أى الخداشون) ، ومن بين قبيلة ميكاهيل قوة سماها ضوجر (أى الصياد) ، ومن بين ضول بهنتا قوة سماها القياد . ولكنه لم يمض فى هذه السياسة الى آخر الشوط ، فقد وقفت فى سبيله عقبات ، وشغلته العداوة التى قامت بينه وبين بعض القبائل السومالية ، وما وجهه اليه بعض خصومه من نقد مرير ، وما وجده من صعوبة فى الحصول على غنائم لعساكره .

وقبائل السومال ، كما قلنا من قبل ، تحتل المناطق الداخلية من بلاد السومال التى تقسمها أخيراً الفرنسيون (١٨٨٤) والانجليز (١٨٨٤) والطليان (١٨٨٩) فيما بينهم ، على حين استوطن العرب منها المناطق الساحلية ، ليتسنى لهم مزاولة تجارتهم . وإذا رجعنا بتاريخ قبائل السومال الى وراء ، لنتبين كيف تسرب إليهم الاسلام ، نجد أن الساكنين فى شمال السومال منهم يروون قصة رجل عربى . من سلالة كريمة ، كان قد اضطر الى هجر وطنه ، فعبر البحر إلى عدل ، حيث دعا إلى الإسلام بين أجدادهم[١]. وإن مجاورة هذه القبائل للعرب النازحين، وتردد الدعاة المسلمين على بلادهم ، وقرب الشقة بين بلادهم وبلاد العرب ، لمما يحملنا على الظن بأن الاسلام قد تسرب اليهم فى عصور مبكرة ، وإن كانت الأخبار التاريخية تشير الى أن الزيلع، المدينة السومالية التى يسميها ابن بطوطة مدينة البرابرة ، ويصف أهلها بسواد اللون، كانوا مسلمين فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى .

فإذا تجاوزنا ساحل السومال إلى الشمال نلتقى بمستعمرة أريتريا . والسواد الأعظم من أهلها من الجنس الحامى ، بعضهم بدو رعاة مثل قبائل الهدندوة وبنى عامر ؛ وبعضها يسكن المدن

---

(١) Arnold, pp. 349 - 350.

ويحترف الزراعة كمسيحي أريتريا وقبائل الباريه والكونامه الوثنية ، وبعضها يعيش بين البداوة والاستقرار . وقيل إن أول من سكن أريتريا ثماني قبائل، وعلماؤهم اليوم يجعلون عددهم عشرة أو خمسة عشرة. ومن الممكن أن نميز بين خمس طوائف من مسلمي أريتريا : فالطائفة الأولى مسلمو مصوع ، تلك المدينة التي تعد من أهم موانيء البحر الأحمر في الوقت الحاضر ، وفيها فريق من العرب ، يسكنون هذه الميناء ، ويتوفرون على الدراسات الدينية ، ويذهبون إلى القاهرة لتلقي الدرس في الجامع الأزهر . الطائفة الثانية قبائل الساهو، وتسكن في جنوب سمهر ، وفي الجنوب الغربي من أريتريا . وقد اعتقد جانب منهم الاسلام في القرن الرابع عشر . والطائفة الثالثة مسلمو ساهل وأنسبه الوسطى ، ودخلوا في الاسلام في عصر حديث . ويؤلف مسلمو برقة طائفة رابعة، وهم من قبائل البجة (التي تعيش بين النيل والبحر الأحمر وتحتل جزءاً من أريتريا) وعناصر حبشية أخرى، دخلوا في الاسلام منذ زمن بعيد ، ودعوا إليه قبائل الغيدن والبارية[1]. وقد كانت الأخيرة تدين بالوثنية منذ أكثر من نصف قرن ، ولكنهم الآن يعتقدون الإسلام جميعا ويتكلمون لغات تختلف

---

(١) بارية معناها بالامحرية العبيد ، وسموا بذلك لاستخدامهم عبيدا في أنحاء بلاد الحبشة .

تماما عن اللغات الكوشية والسامية . والطائفة الأخيرة تتألف من مسلمي التيجرى الذين يحتلون جزءاً كبيراً فى شمال أريتريا . وهم يتكلمون ، بصفة عامة ، لغة التيجرى (وهى لغة سامية رئيسة فى الوقت الحاضر).وكانت قبائل هذا الجزء تدين بالمسيحية إلى مستهل القرن التاسع عشر ، ثم دخل الإسلام فى بنى عامر ، إحدى قبائل هذه المنطقة، وهم خليط من عدة عناصر ، يشتغلون بالرعى، ويسكنون بين الجبال والبحر الأحمر ، ويتكلمون لغة البجة (البضاوية) . وأسلمت قبيلة الحباب التى تعيش بين بنى عامر والبحر ، وهى عبارة عن ثلاث قبائل ، كانوا يقطنون بين خطى عرض١٦° ، ١٧٣٠° فى الشمال الغربى من مصوع ، وكانوا مسيحيين ، ثم غيروا ديانتهم لما كان لدعاة المسلمين من أثر فعال ، ولأن زعماء هذه القبائل كانوا يغادرون البلاد تدريجا ، لفرط انشغالهم مع جيرانهم فى حروب لا تنقطع[١] .

كذلك أسلمت قبائل مسيحية مثل تيماريام (أى عطية مريم)، وهبتيه (أى عطيه يسوع) وتاكايه (أى نبات يسوع) ، كما اعتنق السواد الأعظم من قبيلتى المنساع الإسلام فى مستهل القرن العشرين ، وكانتا تدينان بالمسيحية حول منتصف القرن التاسع عشر .[٢]

---

(١) Arnold, p. 349.

(٢) Id, pp. 120 - 121.

وتنتشر قبائل عفر (أو الدناكل) فى الشرق بحذاء الساحل، وتمتد مساكنهم جنوباً حتى تصل إلى بلاد السومال، وتحتل جزءاً منها، وشمالا حتى اريتريا، وتقيم فى منطقة فيها. وهم مسلمون يشتغلون بالرعى. وسواء أكانوا من أصل عربى أم كانوا خليطا من الأغريق والمصريين، كما يقال، فإن السواد الأعظم منهم بدو يتكلمون لغة كوشيه. وكذلك أسلم جانب من قبائل البوجو (وتسمى البلين كذلك) وهم من أصل أجاوى، على حين ظل الجانب الآخر يدين بالمسيحية.

وبالجملة، قيل إن عدد مسلمى أريتريا يقرب من مائتى ألف مسلم فى الوقت الحاضر، وإنهم يؤلفون ثلثى عدد السكان [١].

فاذا انتقلنا إلى الحدود الشمالية الغربية والغربية من بلاد الحبشة، نجد أن من القبائل التى اعتقدت الاسلام قبائل البجة، وورد اسم البجة فى نقوش عيزانا فى القرن الرابع الميلادى، ويطلق جغرافيو العرب لفظ بجة على ما يعرف الآن بقبائل البضاوية أو البجاوية، ومنه سميت لغتهم باسم البضاوية. وطالما خلط المؤرخون بين قبائل البجة والبليميين، ولكن من المؤكد أن الأخيرين ليسوا من مجموعة تلك القبائل، فالاسم القديم Blemmyes لم يتحور إلى بجة، إنما تحور الى البليين [٢].

---

(١) Encyc. of Islam, Guidi - Abyssinia

(٢) دائرة المعارف الاسلامية — بجة

ولم تكن مساكن البجة تقع فى أريتريا وحدها، بل كانت تمتد بين النيل والبحر الأحمر متجاوزة حدود الحبشة إلى بلاد النوبة والسودان ومصر . بل يروى التاريخ أن نفوذها قد امتد يوما ما من القاهرة حتى حدود الحبشة . ويبدو أن العرب كانوا ينظرون أول الأمر الى هذه القبائل نظرة الاحتقار ، ويرون أنهم قبائل همجية تعبد الأوثان ، لا يليق أن يختلطوا بهم أو يحالفوهم . ثم قويت شوكة هذه القبائل ، وأغاروا على مصر أكثر من مرة ، حتى اضطر عبدالله بن الحبحب أن يعقد معها اتفاقا فى أيام المأمون (القرن الثانى للهجرة) . أضف إلى ذلك أن العرب كان قد انتهى إليهم ما تحويه أراضى هـذه القبائل من الذهب والعلاقى وسائر الأحجار الكريمة . فربما كان ذلك كله قد حـدا بالعرب إلى الاتصال بهذه القبائل والنزوح اليها .

ومنذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بدأت قبائل من ربيعة تفد عليهم وتعيش بين ظهرانيهم . ثم اختلطوا تدريجا بالسكان الأصليين . وكذلك نزحت إليهم قبائل من جهينة واندمجت فيهم . وبذلك كثرت بطون البجة وعشائرها ، وتناثرت مساكنها فى بقاع شتى . فكما وجدنا فريقا منهم فى أريتريا (مثل بنى عامر والهدندوة) ، فكذلك نجد فريقا منهم يسكنون الأراضى التى تجاور القصير على البحر الأحمر، وآخرين يقيمون قريبا من

أسوان ، وكثير منهم ينتشرون جنوبا إلى مايلى عطبرة (وهؤلاء يقال لهم البشارية) .وتؤلف قبائل بنى عامر والهدندوة والبشارية والعبابدة وحدة متجانسة من الناحيتين الفسيولوجية واللغوية، ويشملهم جميعا اسم البجة الذى أطلقه العرب عليهم،إلا أن هناك اختلافا بينهم إلى حد ما ، من الناحية الاجتماعية . ولا ندرى إلى أى حد تعتبر البشارية من أصل عربى . وهم يرجعون نسبهم -كما قلنا- إلى رجل يقال له بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة، قدم فى القرن الرابع الهجرى إلى هذا الموضع ، ومعه ثلاثون ألف رجل من الحدارب - وهم فرع آخر من البجة يتألف منهم زعماء البجة وحكامها - وكانوا وثنيين ثم اعتقدوا الاسلام فى عهد مبكر .

وكل ما ذكرنا من القبائل التى اعتقدت الاسلام ، سواء فى السومال أو فى أريتريا أو فى الشمال إنما يرجع إلى أصل حامى (أى كوشى) أو سامى (كالعرب) . على أن هناك طائفة أخرى من القبائل تسكن فى الجزء الشمالى الغربى والغربى من بلاد الحبشة ويرجعون إلى عنصر إفريقى ؛ واعتقدوا الاسلام فى عصور متأخرة ، ويطلق عليهم قبائل الشنجله أوالشنقله. وكان هذا الاسم يطلق فى الأصل على قبيلة منهم ، ثم شملت التسمية جميع القبائل التى لاتنحدر من أصل سامى ولا حامى من سكان هذه البلاد .

فاذا انتقلنا إلى جنوب الحبشة نجد قبائل الجلا (أو الفالة) التى أشرنا إليها فيما سبق . وقبائل الجلا كثيرة قد تبلغ سبعا أو ثمانيا، رحلوا إلى الحبشة وانبثوا فيها، ولا سيما فى الجنوب حيث نجد جموعا غفيرة منهم . وكانوا جميعا ، فى الغالب ، عبدة أوثان زمن نزوحهم إلى هذه البلاد ، وظل فريق كبير منهم على وثنيتهم حتى ذلك اليوم . وكانوا يتخذون فى كثير من الأحيان ، بعد أن يستقروا فى الحبشة لغة أهالى البلاد وعاداتهم وطبائعهم . وقد قيل ان الساكنين منهم فى الجنوب كان أكثرهم مسلمين فى القرن الثامن عشر، على حين كان الذين سكنوا منهم فى الجهات الشرقية والغربية لايزالون على وثنيتهم [١] . ولا شك أن الاسلام تسرب اليهم شيئا فشيئا ، حتى إن أحد علماء أوربا من الذين رحلوا الى بلاد الحبشة تنبأ بأن كل قبائل الجلا سيدخلون فى الاسلام فى مدى وقت وجيز [٢] . وقد كان لتجار العرب أثر كبير فى نشر الاسلام بين هذه القبائل، ولاسيما بين رؤسائهم الذين كانوا يرحبون بتجار المسلمين لما أوجدوه لهم من سوق لبيع حاصلاتهم التجارية فى البلاد . [٣] والجلا معروفون بالوحشية وشراسة الطباع ، وفيهم همجية قديمة ، وطالما أوجس المسافرن إلى بلاد الحبشة منهم

---

(١) Arnold, p. 346.

(٢) Id. passim.

(٣) Id. p. 348

خيفة ،لتعرضهم لهم ، وقطعهم الطريق عليهم. وكان ملوك الحبشة يستعينون بهم فى القتال ، ويؤلفون منهم فرقا عسكرية . وقد أرغم الملك تيودور فريقا منهم على الدخول فى المسيحية ، حتى يضمن ولاءهم ويكسبهم إلى جانبه ، ولكن القوة والعنف لم يجديا كثيرا فى هذه السبيل .

وكان من الجلا كثيرون من العبيد ينقلون إلى مختلف البلاد لبيعهم فى الأسواق . ومنهم عدد كبير فى بلاد العرب فى الوقت الحاضر ، وتسميهم العرب الحبوش [١] . ومنهم فى بلاد العرب قوم تحرروا من العبودية وشغلوا بعض المناصب [٢]. وقد ظهرت شدة الطبع التى يتميزون بها فى إخلاصهم لعقيدتهم وتحمسهم لها. ونستدل على ذلك مما أورده داوتى فى حديث جرى بينه وبين أحد أفراد الجلا الذى أعتقوا وعاشوا فى خيبر ، فقد أظهر حماسة بالغة لدينه الاسلامى . وكان قد نزح هذا الرجل عن وطنه وهو طفل ، وبيع بيع الرقيق فى جدة ؛ ولما سأله داوتى عما إذا كان يضمر شيئا من السخط على هؤلاء الذى سرقوه وأسلموه لحياة الرق والعبودية ، فى بلاد نائية ، أجاب بأن شيئا واحدا قد عوضه هذه الكوارث ، وهو أنه لم يعد ، كما كان من قبل ، غارقا فى

---

(١) Doughty, vol ii p. 582.

(٢) Id. vol. I. p. 201

الجهل وعبادة الأوثان ، ثم قال : « آه ! إنها عناية الله الرائعة ! تلك التى جئت بفضلها إلى بلاد الرسول ، وعرفت بعونها دين الاسلام ! » . « آه ! أية حلاوة أجدها فى الإيمان ! صدقنى أيها الأخ العزيز إنها لتفوق كل وصف ، وإن لسانى ليعجز عن أن يبوح عما فى قلبى » . هداك الله الى تلك المعرفة الربانية ! لاشك أن الله لو أراد بك خيراً ، لتداركك بالاسلام قبل أن يقبضك إليه . كم يكون جميلا حقا أن أراك مسلما ، وأن تصبح واحدا منا . ولكنى أعلم أن المقدر فى يد الله ؛ يصنع الله ما يشاء » (١).

فلعلك تدرك من ذلك كيف أحاطت القبائل الإسلامية بقلب بلاد الحبشة من كل جانب . وكان طبعيا أن يتسرب الاسلام إلى داخل الحبشة من طريق اتصال هذه القبائل بمن يليهم من أهالى المناطق الداخلية ، ثم من طريق الدعاة والتجار وغزوات المسلمين التى عرضنا لذكرها فى الصفحات السابقة . ولعل من أهم المراكز الداخلية التى كان لها فضل يذكر فى نشر الاسلام مدينة هرر ، التى لم تكن بعيدة عن ساحل البحر ، والتى كانت ذات مركز جغرافى متميز ، مما جعلها مدينة تجارية هامة ، اتصلت بأهالى السومال ، كما هاجر إليها كثير منهم ، وامتزجوا بها ،

---

(١) Doughty, vol. ii. p. 168.

واتصلت ببلاد العرب، وكانت تصدر إليها أنواع الرقيق والحاصلات التجارية التى كانت ترد إليها من المناطق الغنية الآهلة بقبائل الجلا وسائر الشعوب الجنوبية. لهذا كانت أسبق من غيرها، وأقدر على نشر الإسلام بين قبائل الجلا، بإرسال الدعاة إليهم، ونشره بين الآتين منهم إلى هذه المدينة. كذلك كان بينها وبين مصر صلات تجارية وثيقة. فلا عجب إذا رأينا الإسلام يتسرب إلى هذه المدينة فى عهد مبكر، ولعل أسبق الدعاة إلى الدخول فى هذه المدينة، وبث الدعوة الإسلامية فيها، رجل لا يزال أهالى هذه المدينة ينظرون إليه بعين الرعاية والتقديس، اسمه الشيخ أبادير، له فيها مسجد عظيم يسمى باسمه، ويعدونه ولياً من أولياء الله، كما يعدونه حامى مدينة هرر(١). ويقال إنه أدخل الاسلام فى هرر قبل أن يعرف الإسلام سبيله إلى قلب بلاد الحبشة (حول سنة ١٠٠٠ م)، وإنه دعا القبائل الوثنية الى هذا الدين. وما زال نفوذ المسلمين يعظم فى هذه المدينة حتى استولى ملوك عدل عليها رسميا سنة ١٥٢١ م. وفى القرن التاسع عشر استولى عليها المصريون، ولكنها لم تلبث أن وقعت فى يد الأحباش فى عهد منيلك الثانى سنة ١٨٨٦

---

(١) فكرة نجدها فى مصر، حيث يعتقد المصريون مثلا أن السيد البدوى حامى مدينة طنطا، وعبد الرحيم القنائى حامى مدينة قنا ونحو ذلك.

الباب الرابع

الحبشة والثقافة العربية

١

يتكلم السواد الأعظم من القبائل الشمالية التى تقيم فى أريتريا وسمهر وغيرها ، لغة التيجرى السامية ؛ وليس لهذه اللغة أدب يذكر ، اللهم إلا إذا استثنينا قطعا مترجمة من الكتاب المقدس وكتبا دينية أخرى . وفى منطقة دولة أكسوم القديمة ، يتكلم السكان لغة التيجرينيا ، وهى لغة سامية ذاعت فى القرن الخامس عشر ؛ ولا نعرف لها أدبا كذلك ، إلا ما دون بها من بعض الرسائل والوثائق والمجلات [١] . أما اللغة الأمحرية ، فهى أشهر اللغات السامية التى يتكلم بها أهالى الحبشة فى هذه الفترة من تاريخ هذه البلاد . وقد أخذت فى الانتشار منذ قيام الأسرة السليمانية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهى الآن لغة البلاد الرسمية . وتكتب هذه اللغة ، كالجعز ، من الشمال إلى اليمين . وقد حاول أهالى هرر ، فى بعض الأحيان ، كتابة الأمحرية بحروف عربية ، كما حاولوا أن يكتبوا بهذه الحروف لغتهم الوطنية .

والكتابة العربية شائعة الاستعمال من قديم بين القبائل

---

(١) Budge, vol. ii. p.577

الكوشية ، كالأجاو والجلا والبجة والساهو . ولكنها رديئة جدا. ويكتب السوماليون لهجاتهم بالحروف العربية، ولكنهم يكتبون خطهم العربى من أعلى إلى أسفل ، ويتميز الخط العربى السواحلى عن غيره من الخطوط العربية بشكله الخاص وصعوبة قراءته[١].

أما اللغة العربية فهى التجارة السائدة فى كافة أنحاء البلاد . ويتكلمها كثير من سكان الساحل الشرقى ، كما تتكلمها القبائل الشمالية إلى جانب لغاتهم الأصلية . وهى فى نظر مسلمى الحبشة لغة مقدسة، مثل الجعز فى نظر نصارى الحبشة ، ومثل التيجرينيا لغة المسيحيين الحديثة التى يسمونها زريفا خشتان أى لغة المسيحيين.

* * *

كان طبعيا أن يلجأ الأحباش المسيحيون إلى القبط ، يستمدونهم الثقافة الدينية التى يحتاجون إليها لإقامة شعائرهم الدينية . وفى الوقت الذى نجد الأسرة السليمانية فيه تتولى عرش الحبشة فى القرن الثالث عشر ، وتتخذ اللغة الأمحرية لغة رسمية لها ، كانت اللغة القبطية فى مصر فى طريقها إلى الضعف والانحلال . وكان للقبط أدب مدون باللغة القبطية ، ولكنه أدب دينى يكاد يكون

---

(١) إبراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ، عدد ٥٣ من سلسلة إقرأ ، ص٤٤ . يطلق لفظ (سواحلى) الان على مجموعة السكان من العناصر الوطنية، والعبيد ، والعرب الذين يقيمون فى معظم المدن الواقعة على الساحل، وفى جزيرة زنجبار الواقعة على الساحل الشرقى لافريقية .

مقصورا على الكتب الدينية ، وترجمات الكتاب المقدس، وحياة القديسين . ومعظم هذه الكتب منقول عن اليونانية . فلما دلفت اللغة القبطية إلى الضعف[١] ، وأصبح القبط أنفسهم لا يفهمونها، كان لا بد أن يلتفتوا إلى اللغة المفهومة إذ ذاك ، أعنى اللغة العربية التى كان القبط قد تعلموها ، وكتبوا بها مؤلفاتهم فى كثير من العلوم. لهذا عنوا بنقل كثير من كتبهم الدينية إلى العربية .

ضاعت اللغة القبطية بين عامة القبط فى الوقت الذى زالت فيه اللغة الحبشية القديمة (الجعز) بين السواد الأعظم من الشعب الحبشى . بيد أن القبط اتخذوا العربية لغة للدين والكنيسة ، على

---

(١) منذ القرن الحادى عشر ، بدأ تخوف علماء القبط من ضياع لغتهم ، فقاموا بحركة ترمي إلى تدوين قواعد اللغة القبطية وجمع ألفاظها . وبعد قرنين تقريبا، قام أفراد من أسرة العسال، وهى أسرة قبطية معروفة، كان منها وزير تولى الوزارة فى مصر والموصل ، وعملوا على استخدام اللغة العربية ، وادخالها فى الكنيسة القبطية . واشتهر منهم ثلاثة علماء : أبو الفضائل أسعد جامع القوانين التى ترجمها الأحباش كما سنرى ، وأبو الفرج ، وقد الف كتابا باللغة العربية فى نحو اللغة القبطية سماه المقدمة ، والثالث أبو إسحاق مؤلف كتاب السلم للقبى والذهب المصفى ، وهو معجم للغة القبطية رتب فيه الكلمات حسب أواخرها متأثرا طريقة المعاجم العربية . وبفضل هذه الأسرة ترجم الانجيل إلى العربية كما كتبوا بها كثيرا من الطقوس الدينية والرسائل المختلفة التى تبحث فى العقيدة والمذهب الأرثوذكسى وغيره . وقد عملت هذه الأسرة ، بما كان لها من مكانة فى الدولة الاسلامية ، ونفوذ فى المجتمع القبطى ، على ادخال العربية فى الكنيسة القبطية ، وبدأت الكنيسة منذ ذلك الحين تستخدمها بدلا من القبطية.

حين احتفظ الأحباش بالجعز لكتابة أكثر من كتبهم الدينية، برغم استغلاق فهمها على معظم الشعب .

وإن أول ماوصل إلينا من الأدب الحبشى ، إنما يرجع إلى عهد دخول المسيحية فى القرن الرابع الميلادى . والأدب الحبشى ذو صبغة مسيحية واضحة . وهناك فترتان واضحتان فى تاريخ الأدب الحبشى : تقع الأولى منهما فيما عرضنا لذكره فى الشطر الأول من هذا الكتاب . وفيها نقل الأحباش ما نقلوه من اليونانية أو السريانية إلى الجعز ، وكل ما نقلوه لايتعدى ترجمات من الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) . والفترة الثانية تبدأ بحكم يكونو نو أملاك رأس الأسرة السليمانية وتمتد حتى الوقت الحاضر . وفيها نقل الأحباش ما نقلوه من العربية (و القبطية أحيانا) إلى الجعز . والمعروف لدى الباحثين أن أكثر هذا الأدب لايعدو أن يكون ترديدا لأفكار أجنبية أو ترجمات منقولة من مؤلفات غريبة عنهم، وأنه ليس فى مجموع ماوصل إلينا من آدابهم طابع قومى بالمعنى الصحيح . وهذا الرأى ، وإن كان صحيحا فى جملته ، إلا أننا يجب أن نذكر أن هذا الأدب قد يمثل الشخصية الحبشية من جهتين : فهى واضحة ، نوعا ما ، فى تلك الكتب اليسيرة التى أرخ الأحباش فيها لبلادهم وملوكهم، وفى تلك اللفائف والكتب التى تناولوا فيها الكلام عن السحر والأدعية السحرية ، وصيغ الرقى والتعاويذ ونحو ذلك، كما تظهر شخصيتهم ، من جهة أخرى ،

فى هذا الميل الذى أوحى إليهم اختيار الكتب التى ترجموها ، والأفكار التى نقلوها .

فالحبشى الذى رأيناه قد أشرب الميل إلى الخوارق والأساطير فى حياته الأولى ، نراه ينتقى من الكتب التى ينقلها فى دور حياته الجديد ما يلائم طبيعته ويتمشى مع ميوله ، فيعنى عناية خاصة بترجمة الكتب الدينية غير القانونية [١] . وينقل الأحباش من العربية قصصا تروى أعمال الرسل ، وآدم وحواء ، وكتبا فى معجزات السيد المسيح وعجائب مريم العذراء ، وحياة القديسين والشهداء وعجائبهم [٢] . وهذه القصص مكتظة بالعجائب التى لا تصدقها العقول. وعنوا بكتب العذراء عناية خاصة (وكثير منهم يعبدون العذراء كما سنرى فى الصفحات التالية). فنقلوا فى مدائحها وتاريخها وعجائبها ومزاميرها كتبا كثيرة .

---

(١) الكتب الدينية عند المسيحيين نوعان : كتب قانونية ، وهى عبارة عن العهدين القديم والجديد (التوراة والانجيل ، بوضعهما الحالى ، وكتب غير قانونية ، لم يجمع علماؤهم على صحتها أو صلاحيتها ، ومنها الأبوكريفا (أى الاسفار المستورة) والابوكالبسس (أى أسفار الرؤية).

(٢) كان القبط قد انتخبوا مجموعة كبيرة من حياة القديسين باللغة العربية لاستخدامها فى كنائسهم .وقد نقل الاحباش هذه المجموعة من العربية إلى الجعز فى القرن الخامس عشر ويسمونها (مصحف سنكسار) . وهناك مجموعة أصغر من السابقة تتناول حياة القديسين والشهداء ، بعضها نقل من العربية وبعضها من القبطية . وهناك كتب مخصوصة بحياة فرد بعينه من القديسين والشهداء : من ذلك حياة القديس جرجس التى نقلت من العربية .

كذلك ظهر ميل هؤلاء القوم إلى الرقص والغناء فى تلك الأناشيد والمزامير الكثيرة التى حفل بها أدبهم، والتى نجد منها المنقول من العربية وغيرها، ومنها المحاكى الذى نسجوا فيه على منوال أناشيد أجنبية، ومنها الشعبي الأصيل [١] .ولديهم مجموعة من الاناشيد والترانيم (يسمونها المعراف) مدونة مع النوتة الموسيقية الخاصة بها . [٢]

ومن الطبعى أن ينقل الأحباش كذلك إلى لغتهم كل مايجدون أنفسهم فى حاجة إليه من الكتب الدينية الخاصة بالكنيسة والتعاليم المسيحية . فقام الأحباش منذ القرن الرابع عشر بمقابلة الكتاب المقدس الذى كان قد ترجم من اليونانية فى أوائل الفترة الأولى، على النص العربى من هذا الكتاب، كما ترجموا كتباً خاصة بخدمة القداس وطقوس العماد والدفن والصلوات المختلفة والعظات وغير ذلك، مما لا تستطيع أن تقوم كنيسة بدونه ،ولا يستغنى عنه المسيحى فى إقامة شعائره الدينية. ونقل الأحباش إلى الجعز كتبا فى اللاهوت كانت قد دونت باللغة العربية، أهمها رسائل الشيخ الروحانى (يوحنا سابا) ، وشرحه رسالة بولس

---

(١) Littmann, p. 214,230

(٢) Id·p,214.Budge·vol, ii, p. 570.

إلى العبرانيين ، وشرح رسالة أخرى تنسب إلى ديونيسيوس أسقف المشرق (١) . وترجمت كتب عربية إلى الجعز للدفاع عن المذهب اليعقوبي ، بعد أن قدم اليسوعيون ونادوا بمذهبهم فى البلاد ، وذلك فى مستهل القرن السابع عشر . ومن هذه الكتب كتاب الدر الثمين فى إيضاح الدين لساويرس بن المقفع ، وفيه يثبت مؤلفه أن الله ذو ثلاثة أقانيم وذو طبيعة واحدة . وهذه هى الفكرة التى قام على أساسها مذهب الكنيسة اليعقوبية ؛ ويسميه الأحباش (فكارى ملكوت) أى (تفسير الألوهية). ومن ذلك أيضا كتاب اعتراف الآباء لبولس بن رجاء ترجمه الأحباش من العربية وسموه (هيمانوت أبو) أى إيمان الآباء . وفيه يناقش المؤلف شتى المسائل التى تتعلق بمذهب الطبيعة الواحدة. كما يتناول بعض رسائل محفلية ، ومقالات وردود على لهراطقة (٢) . زد على ذلك أنه كان هنالك ظاهرة تنافس أدبى فى سنة ١٥٦١ ، فترجم بعض رهبان الحبشة فى مصر بعض كتابات خاصة بالطقوس الدينية . من ذلك كتاب التوبة (مصحف نسحا)، وصلاة القنديل (مصحف قنديل) . وفى عهد سرصا دنجل (١٥٦٣-

---

(١) Murad Kamil (1), p. 64.

(٢) Id. passim.

١٥٩٧) قام عنبا قوم اليمنى بترجمة كتاب برلعام ويوشافاط من العربية إلى الجعز [١] . وفى سنة ١٥٨٢ نقل أحد رؤساء الأديار فى الحبشة كتاب مختصر البيان فى تحقيق الإيمان وهو الجزء الأول من الكتاب المسمى الحاوى المستفاد ، إلى الجعز . وهو كتاب يتحدث عن حياة الكنائس والأديار ، والفضائل المسيحية والصلوات وما شاكل ذلك (٢) .

وكان الأحباش يرجعون فى قوانينهم المدنية والدينية ، حتى عهد قريب ، إلى كتاب ألفه بالعربية أحد علماء القبط فى القرن الثالث عشر ، وهو أبو الفضائل أسعد بن العسال ، الذى أشرنا إليه فيما سبق ، لجمع شرائع الرسل، والدسقلية التى كانت تسير عليها الكنيسة القبطية ، ورسالة بطرس إلى قليمنطوس ، وقوانين المجامع الكبرى السابقة ، وبعض قوانين المدن، فى مؤلف واحد سماه المجموع الصفوى (أو الصفى) (٣) . ثم نقله الأحباش إلى لغتهم ، ربما فى منتصف القرن السادس عشر ، حين تغيرت الأوضاع السياسية فجأة ، وأحسوا إحساسا عميقا بضرورة تنظيم حقوقهم الدينية والمدنية (٤) . وسموه (فتح نجست) .

---

(١) Murad Kamil p. 65.

(٢) Id. p. 65.

(٣) Budge, vol.ii. p.568-9.

(٤) Murad Kamil (1), p. 65.

ومنذ القرن الثانى عشر ، ربما فى نهاية عهد ملوك زاجوا ، أخذ كتبة الأحباش فى تدوين تاريخ بلادهم . ويظن أن أحد مؤرخى العرب من المسيحيين قد أفاد من هذه التواريخ ، فصنف منها كتابا بالعربية، ثم نقله الأحباش فيما بعد ، وسموه كبر نجست أى (عظمة الملوك) . وهو كتاب يريد المؤلف أن يثبت فيه أن ملوك الحبشة من سلالة البطارقة العبرانيين ، وأن مؤسس دولة أكسوم هو منيلك الأول بن سليمان من ملكة سبأ (١) . وهناك كتاب فى تاريخ اليهود ألفه يوسف بن جوريون ونقله الأحباش من العربية إلى الجعز نقلا أكثر تحريا للدقة . وذلك فى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادى (٢) .

وقد نقل الأحباش كتباً تاريخية هامة تعد مرجعا فى تاريخ العرب والدول الإسلامية بوجه عام . من ذلك تاريخ يوحنا أسقف نقيا الذى لخص فيه التاريخ العام من بدء الخليقة حتى سنة ٦٤٠ م . ويقرر رايت أنه نقل من الأصل العربى فى عهد يعقوب ملك سجد سنة ١٦٠٢ ، وأن الذى نقله أحد أساقفة

---

(١) Budge, vol. ii. p. 566-7 وقارن هذا بمخطوطة عربية فى المكتبة الاهلية بباريس كتبها أحد القبط ، عنوانها « شرح سبب انتقال مملكة داود من ولده سليمان ملك إسرائيل إلى البلاد النجاشية وهى الحبشة » . (Murad(1), p. 67.)

(٢) Murad Kamil (1), p. 67-8.

قليوب . وقيل إن الذى نقله هو غبريال المصرى بأمر والدة الملك سرصادنجل (١٥٦٣ - ١٥٩٧) . وللنسخة الحبشية قيمة عظمى بين المؤلفات التاريخية، إذ أن الأصل العربى من هذا الكتاب لم يعثر عليه للآن (١) .

ومن مصادر التاريخ الإسلامى الهامة تاريخ أبى شاكر بطرس ابن الراهب ، الذى كتبه فى نهاية القرن الثالث عشر ، وهو يؤرخ فيه من بدء الخليقة حتى سنة ٦٥٧ هـ . وقد ترجمه عنباقوم اليمنى فى عهد الملك سرصادنجل . كذلك نقل الأحباش كتاب تاريخ المسلمين للمكين بن العميد الذى يسميه الأحباش (ولد عميد) وذلك فى أثناء حكم الملك لبنادنجل (٢) .

ولما كان الأحباش قد ظلوا قرونا عديدة ينقلون آدابهم من اللغة العربية ، إلى لغتهم ، كان طبيعياً أن تؤثر العربية فى لغة المترجمين إلى حد بعيد . ويحدث فى هذه الفترة من تاريخ اللغة الحبشية نقيض ما حدث فى الفترة الأولى . فقد أخذت العربية

(١) نشر زوتنبرج النص الحبشى وترجمته بالفرنسيه فى باريس ١٨٧٦، ونقله شارل إلى الانجليزية فى كتاب ظهر سنه ١٩١٦ .

(٢) Murad Kamil (1), p. 68. وكان المكين موظفا فى بلاط بيبرس الأول، وكان أجداده فى خدمة بنى ايوب ، وقد أكمل المفضل بن أبى الفضائل كتاب ابن العميد سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩) وسمى تكملته النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .

من الحبشية في الفترة الأولى كثيرا من الألفاظ والعبارات ، والآن نجد فى الكتب المترجمة الى الحبشية أثرا عربيا واضحا فى كثير من العبارات والصيغ والألفاظ ، كما تظهر فى النصوص الحبشية عبارات أخذها الأحباش المترجمون بنصها من العربية، إما لأنهم كانوا لايفهمون معانيها ، أو لأنهم لم يهتدوا إلى مايقابلها فى لغتهم . ومن ذلك قولهم : (وأخزوا فنوت لاعل سبأ) أى «أخذوا الطرق على الناس » وهو تعبير عربى معروف، وكقولهم (وديب رأس) ترجمة للعبارة العربية « على الرأس » أى عن طيب خاطر . ومن الألفاظ العربية التى أخذها الأحباش منها الحبس والحكيم والمنار والقارورة والوباء والخف واللواحق (أيام النسىء) والورد والجنين وضابط الكل والدر الخ(١) ..

وإنما يرجع بسوء فهم المترجمين من الأحباش لكثير من ألفاظ النصوص العربية وعباراتها إلى إلمامهم الضعيف بالعربية من ناحية ، وإلى قلة ضبط الألفاظ وتشكيلها فى المخطوطات العربية التى نقلوا منها من ناحية أخرى . لهذا كان من الصعب على القارىء أن يفهم كثيراً من الترجمات بدون الاستعانة بالنص العربى .ومن أمثلة ما وقعوا فيه من تصحيف للألفاظ قولهم:

---

(١) Murad Kamil (1) p. 68-69.

Id .(2) p. xxiv, xxv, xxvi.

النسور بدلا من السنور. وقيصر بدلا من بمصر. وبأخبار اليهود بدلا من يا جبار اليهود. وحضروا فيها بدلا من حضر وقتها الخ. ومما أساءوا فهمه قولهم ما معناه (ليس فى النافذة بشر) ترجمة للعبارة العربية المعروفة ليس فى طاقة بشر (١) .

ومهما يكن من أمر، فإننا نستطيع أن نتبين بوضوح مما سبق مدى تأثر الأحباش المسيحيين بالثقافة القبطية العربية .

٢

وإذا انتقلنا إلى مسلمى الحبشة لننظر فى ثقافتهم الدينية ، نجد أن أكثرهم لا يسيرون على التعاليم التى رسمها الإسلام . وقد لاحظ الأستاذ جويدى أن الإسلام الذى تدين به الشعوب الكوشية فى بلاد الحبشة ، كالجلا والساهو والبجة وغيرها، ليس بالقوة التى نجدها فى عقيدة سائر الشعوب الإسلامية . ذلك أنه لا توجد فى الغالب مدارس إلى جانب المساجد، ولا تتجلى مظاهر الأخوة الإسلامية بين مسلمى الحبشة ، وأن مسلمى أريتريا مستهترون(١)، قليلو الإلمام بشعائر الإسلام . حتى لقد شوهدوا يحضرون الأعياد المسيحية الدينية ، ويتمسكون بعادات تتنافى

---

(١) Murad Kamil (1), p. 70.

مع تعاليم الإسلام (١) . ونظم الحسن بن أحمد الخيمى قصيدة عربية ، ذكر فيها مشاهداته أثناء تنقله فى بلاد الحبشة ، وعاب المسيحيين والمسلمين على سواء : فمن قوله يذم مسلمى الحبشة :

ورأينا فرقة ظالمة تركب الفحش وتأتى بالقذع
تدعى الإسلام ، لكن مادرت شارع الاسلام ماكان شرع
تنظر المنكر فى ساحتهم وعليه الناس جمعى وجمع(٢)

وللقبائل الحبشية فى السومال عادات قديمة جروا عليها وثنية عاشوا فيها فترة طويلة ، ولهذا كان من العسير أن يقتلعها الإسلام من نفوسهم ، فتمثلت عقيدتهم الجديدة كثيرا منها . نذكر من بقايا الوثنية فى السومال، على سبيل المثال، عادة يسميها أهالى هذه البلاد (السار) ، وهى نوع قديم من الرقص المقدس : يزدحم الأهالى على هيئة دائرة، ويأخذ المنشدون فى الغناء على نغمة خاصة، وفجأة يسقط أحدهم على الأرض مغشيا عليه . ويعزف الآخرون (السار) مع الغناء والتصفيق وضرب الأرجل أو دق الطبول والنقارات . وفى هذه الأثناء ، ينهض الملقى على الأرض نهوض المتثاقل ، ثم يتناول خنجراً بيده ، ويرقص فى الحلقة مشهراً هذا

---

(١) Encyc. of Islam - Abyssinia .

(٢) الخيمى ص ٧٠ — ٧١

الخنجر . ثم يفعل فعلته الأولى ، فيسقط على الأرض مغشيا عليه ، ولكنه سرعان ماينهض فى هذه المرة نشطاً متحفزاً ،وإذا به ينبرى من الحلقة مسرعاإلى مكان قريب ، حيث يختفى لحظة ، ثم يعود وخنجره يقطر دما ، والناس تشاهده . وهم يزعمون أن هذه الدماء دماء الجن الذى قتله هذا الرجل بخنجره فى ذلك المكان .

ومن عقائد أهالى السومال القديمة المتوارثة، بعث المرء بجسده وروحه بعد موته (١). لهذا يقومون بتقديم الطعام والملبس للموتى فى قبورهم،وذبح الأضاحى عليها(٢)،وتوزيع اللحوم على الفقراء، ويزعم أهالى السومال أن الطعام يصل إلى الموتى بوساطة هؤلاء الفقراء .

ولما كان لشيوخ القبائل ، فى الحياة الفطرية ، سلطان قوى على أفراد قبائلهم ، أصبح هؤلاء ينظرون إلى شيوخهم من خلال

---

(١) قارن هذا باعتقاد العرب فى الجاهلية البعث والحياة بعد الموت(عبد المعيد خان ص١٤٩ وما يليها) .

(٢) ومن عادات العرب فى الجاهلية ، أنهم كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره ، ويعكسون رأسها إلى ذنبها ، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليركبها صاحبها فى المعاد ليحشر عليها ، فلا يحتاج أن يمشى ! (النويرى : نهاية الأدب ، طبعة دار الكتب حـ ٣ ص ١٢١) .

عقولهم البسيطة على أنهم قوم أوتوا قدرة سحرية خاصة، فكانوا يعتقدون أن لشيخ القبيلة الوراثى عينا سحرية نفاذة، تجلب الخير إلى من تحب، وتنتزع الخير عمن تكره، وتسبب القحط وتزيله، وتشفى من الداء وتسببه. وتلاحظ هذه الظاهرة فى القبائل الإسلامية السومالية. وتحولت سلطة السحرة الوثنيين القدامى إلى علماء المسلمين فى السومال. وتلقب هؤلاء بلقب السحرة القديم (وداد)، ويقومون أحيانا ببعض أعمال السحر، كما كان يفعل السحرة من قبل. ولا يبيح أهالى السومال من المسلمين والمسيحيين على سواء أكل بطن الحيوان المذبوح ورأسه وأطراف أرجله، إذ يعدونها نجسة، وما ذلك إلا أثر قديم من آثار العقائد الكوشية الوثنية(١).

ومن بقايا الوثنية الواضحة فى عبادة الأحباش، ولا سيما قبائل الشمال، فكرة العالم السفلى (وتسميه قبائل التيجرى سب تحت)، حيث تعيش أشباح الموتى إلى يوم الدين. وقد يتجلى هذا العالم للانسان فى رؤاه وأحلامه. وتقف أشباح هذا العالم بالمرصاد لكل رجل قتل أحد أقربائه وقصر فى أداء واجبه نحوه، كأن أهمل فى أن يثأر له، أو بخل فى أن يقدم إليه التضحية اللازمة فاذا قصر فى شىء من ذلك، استحالت روح قتيله نوعا

---

(١) Encyc. of Islam-Somaliland.

من البوم ، يسمونه فى التيجرى (جان) ، يظل ينعق على قبره حتى يؤخذ بثأره أو يظفر برغباته (١) .

ويشترك المسلمون والمسيحيون فى الحبشة فى عبادة مريم العذراء . وهى فى بعض صورها ، صدى عبادة إلاهة وثنية معروفة : فمريم تعيش فى جبال شاهقة ، وتظهر فى أيام الربيع وفى شجرة الجميز التى تثمر ثمرا كثيرا ، وكانت هذه الشجرة تمثل الإله هاتور فى عبادة المصريين القدماء . وربما كانت هذه الشجرة هى صورة اللات التى عبدها العرب فى الجاهلية(٢)، أوهى إلاهة الأرض (عستر) التى ذكرت فى النقوش الحبشية القديمة .

ويعتقد المسيحيون والمسلمون على سواء تأثير الأرواح الشريرة، كما يعتقده عبدة الأوثان من قديم . هذه الأرواح تعيش فى الظلام،

---

(١) Encyc. of Religion and Ethics-Abyssinia.
قارن هذا باعتقاد العرب الجاهليين أن النفس طائر يصدح على قبر صاحبها الميت ، وأنهم كانوا يقولون ليس من ميت يموت ، أو قتيل يقتل ، إلا خرج من رأسه هامة ، فاذا كان قتل ولم يؤخذ بثأره ، نادت الهامة على قبره : أسقوني ، أسقوني ، فاني صدية (بلوغ الارب حـ ٢ ص ٣١٣ ، عبد المعيد خان ص ٤٦) .

(٢) قارن هذه الفكرة بما كان يعتقده العرب من أن هناك بين النخل والناس قرابة وشبها ، وربما كان ذلك قد جاء من أن النخلة تشبه الانسان من حيث امتياز ذكرها عن أنثاها ، ومميزاتها المخصوصة باللقاح (عبد المعيدخان ص ٥١ وما يليها) .

أو قريبا من المقابر ، وتجتمع حول الأبواب ، وتسكن البقاع المجدبة الجرداء . وقد تحل فى الحيوان ، كالضباع والذئاب والثعابين (١) . ومن هذه الأرواح ما يصيب المرء بالجنون ، ويسمونه (وادجنى) أى ابن الشيطان ، ومنها ما ينقض على الأطفال فيقتلهم ، واسمه ليليث (كلمة عبرية معناها الليلية) . ويزعمون أن الأرواح تنصرف باحراق جذع من شجرة الشيطان أو فرع منها . وقد تنصرف بالرقى والتعاويذ التى يكتبونها ويقلدونها أيديهم وأعناقهم . ويزعمون أن هذه الرقى والتعاويذ تفيد فى درء الأخطار والشفاء من الأمراض الجسمانية ، ونهس الحيات ، وخدش الثمار والضباع ، ونزول القحط ، وإغارة الجراد ونحو ذلك . وفى العالم الإسلامى كثير من هذه العادات والعقائد ، ينتشر فى صور مخففة بين الجهلة وبسطاء العقول . وتروى قبائل التيجرى حكايات عن تأثير النجوم والكواكب فى الإنسان ، وربما كانت صورة من عبادة النجوم القديمة (٢) .

والأحباش يعتقدون إصابة العين اعتقادا عظيما ، فيأكلون الطعام تحت الحجب والأستار خوفا من إصابتها . ويسمون

---

(١) قارن هذا بفكرة الجن وعلاقته بالحيوان عند العرب (عبد المعيد خان ص ٧٢ وما يليها) .

(٢) Encyc. of Religion and Ethics-Abyssinia.

من تصيب الناس عينه (بودا). وكان عقاب بودا قلع إحدى عينيه . والآن يكتفون بضربه أو توبيخه. ويقال إن هناك فى القسطنطينية حالة تشبه بودا الحبشة عند الجوارى السودانيات . وقد سرت هذه العادة إلى سيدات هذه المدينة ، فانهن حين يردن إظهار العطف على الأولاد يبصقن عليهم بصقا خفيفا قائلات : (تفو تفو عينى لا تصيبك) . ولعل هذه العادة انتقلت من جوارى الحبشة (١). ومن عادة كهنة الوثنية ، حين يريدون مباركة المذنبين والتكفير عن ذنوبهم أن يبصقوا عليهم . ولا تزال هذه العادة جارية بين قبائل التيجرى من المسلمين والمسيحيين (٢). ويبحث الأحباش عن السارق بنوع من طرق التنويم ، الذى يطلق عليه فى أوربا Hypnotism أو Spiritism ، ويسمونه المندل فى بعض الجهات من الأقطار العربية(٣).

هذه أمثلة من عقائد الأحباش القديمة التى تسربت إلى الإسلام فى بلادهم . وقد رأينا من هذه العقائد ما يقابله فى سائر بلاد العالم الإسلامى .

---

(١) رحلة صادق باشا ص ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) Encyc. of Religion and Ethics-Abyssinia.

(٣) رحلة صادق باشا ص ١٧٢ — ١٧٣

٣

على أن هناك طائفة مثقفة من مسلمى الحبشة ، تفهموا الدين على وجهه الصحيح ، وتلقوا تعاليمه فى مدارس خاصة أو على أشياخ ثقات . ومنهم كثير ينتقلون إلى بلاد العالم الإسلامى ، لتلقى العلم من مناهله ، ولايزال فى الجامع الأزهر رواق لمسلمى الحبشة يسمى رواق الجبرت (١) ، كما كان لهم رواق بالمدينة المنورة ورواق بمكة (٢) .

والسواد الأعظم من مسلمى الحبشة شافعى المذهب ، وكثر فيهم الحنفية منذ القرن السادس عشر . ولا يخفى أن بلاد الحبشة محاطة من قديم بجهات كانت تعد مراكز للتشيع والتصوف . فكان التشيع منتشرا فى اليمن منذ القرن الثالث الهجرى ؛ ومن اليمن انتقلت آثار من الزيدية إلى بلاد السومال مع العرب الذين حديثا لمليها ، ممن يشتغلون فى الجندية أو غيرها من الحرف . وكانت سواحل السومال منذ العصر العباسى الثانى ملجأ للهاربين من أصحاب الفرق والنظرات التصوفية المختلفة ، الذين كانوا يلاقون من الدولة الإسلامية عنتا واضطهادا . وكانت

---

(١) راجع معنى (جبرت) فى ص ١٥٦ من كتابنا هذا . وقد أصبحت جبرت الان علما على مسلمى الحبشة جميعا .

(٢) الجبرتى حـ ١ ص ٣٨٩

الحبشة معبرا لدعاة الشيعة وغلاتهم منذ القرن الثالث الهجرى إلى إفريقيـــة ؛ فقد كان دعاة الإسماعيلية يرسلون إلى بلاد اليمن أفواجا من أتباعهم لتلقينهم أساليب الدعوة ، ثم يشخصونهم إلى إفريقية لبث المذهب الإسماعيلى . كل ذلك جعل الشعوب الافريقية بوجه عام هدفا للمذاهب الدينية والصوفية المختلفة .

وللطرق الصوفية فى بلاد الحبشة مكانة خاصة فى نفوس المسلمين. وأكثر أهالى السومال ينتمون إلى الطريقة القادرية[1]، وهى أكثر الطرق ثقافة وتمدنا فى هذه البلاد . وأفرادها لا يميلون إلى احتراف الزراعة أو الصناعة ، وإنما يقومون بمهنة التعليم . وإلى جانب هذه الطريقة ، تعيش ثلاث طرق أخرى فى السومال: الأحمدية أتباع الزعيم المتصوف أحمد بن إدريس الذى توفى بالعسير فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . والصالحية وهم فرع متأخر من الأحمدية . أسسها محمد صالح ، وكان مقامه بمكة . وقد استطاع أحد تلاميذ محمد صالح من علماء السومال ، وهو محمد بن عبد الله حسان، الذى لقب أخيرا بالمهدى، أن يبوىء الصالحية مركزا قويا بين قبائل السومال ، فأسسوا على ضفاف الأنهار

---

(١) نسبة إلى عبد القادر الجيلانى (٥٦١ هـ) . وقد قيل إنها أقدم الطرق الصوفية المنظمه .

جماعات زراعية منظمة . وانبثوا فى القبائل ، واستغلوا النزاعات السياسية بينها ، واتخذوا من نشر الدعوة الصالحية ذريعة إلى تمكين سلطانهم وتعزيز نفوذهم . حتى استطاعوا ، فى وقت قصير ، أن يضعوا أيديهم على المناطق الزراعية فى تلك البقاع . ثم الطريقة الرفاعية التى تسير على نهج السيد أحمد الرفاعى .

وكان بين القادرية والصالحية جدال وتنافس . وقد أدى ذلك فى بعض الاحيان إلى صراع دموى عنيف . على أن هذا التنافس قد أدى ، من ناحية أخرى ، إلى قيام حركة علميـــة فى منطقة السومال الساحلية . فألف علماؤها باللغة العربية كتبا ورسائل ، ونظموا قصائد . وأكثرها فى المسائل الصوفية . ومن أهم مادونوه من رسائل التصوف تلك المجموعة التى جمعها الشيخ عبد الله بن يوسف أحد أهالى شيخال ، وطبعها فى القاهرة . وهى تتألف من خمس رسائل . منها رسالة عنوانها « السكين الذابحة على الكلاب النابحه » وأخرى عنوانها « نصر المؤمنين على المردة الملحدين » ، وكلتا هما تتناولان الرد على الصالحية .

أما ما نظموه من القصائد العربية ، فأهمها ذلك الديوان الذى جمعه الشيخ قاسم بن محى الدين أحد أهالى براوة ، لعدة من شعراء السومال . وفى هذا الديوان قصيدتان من نظم الشيخ إدريس محمد البراوى (الذى قتل سنة ١٩٠٩ على أثر النزاع الذى

شجر بين القادرية والصالحية . وكان قادريا متحمسا) [١] .

ونظم الشيخ عبد الرحمن الزيلعي قصائد صوفية يتوسل فيها بشيخه الأكبر عبد القادر الجيلاني ، وسماها « سراج العقول والسرائر في التوسل بالشيخ عبد القادر » . وقد عثر على مخطوطة في براوة تشتمل على همزية البوصيري مترجمة إلى الشعر السواحلي .

على أن هناك طرقا صوفية أخرى منتشرة في غير بلاد السومال أهمها الختمية والشاذلية . واليوم ينتشر دعاة الطائفة السنوسية في بلاد الحبشة .

ولم يكن يجد الدعاة إلى أي مذهب ديني عناء كبيرا في التأثير في عقول تلك القبائل الإسلامية البسيطة . بل كثيرا ما استغلوا سذاجتهم وبساطة عقولهم . ولعل فكرة « التمهدى » التي شاعت في إفريقية في القرن الماضي ، كانت وسيلة تذرع بها المستنيرون من أفراد القبائل ، ليفرضوا على قومهم السذج مبادئهم وآراءهم . فقد رأينا كيف ظهر محمد أحمد متمهدى السودان ، واستطاع أن يبسط سلطانه الروحي والسياسي في بلاده . وفي ذلك الوقت قام في السومال محمد بن عبد الله حسان ، وكان مثقفا ، فصيح اللسان

---

(١) نظم الشيخ إدريس أيضا خمس قصائد باللغة السومالية ، وهو المؤلف الوحيد الذي كتب باللغة السومالية والحروف العربية . ويرد في إحداها على أتباع محمد بن عبدالله حسان .

ماهرا فى قرض الشعر العربى ، وتخلى عن الصالحية التى كان متحمسا لها بادىء الأمر ، وأعلن فى سنة ١٨٩٩ أنه المهدى المنتظر ، واجتمع إليه خلق كثير : وأخذ فى حث أتباعه على إذكاء حرب مقدسة على الأوربيين الذين كانوا قد احتلوا بلاده. ووقعت الحرب بين الفريقين، وأخذ الإنجليز يدبرون الحيل للقضاء على حركته، فأوعزوا إلى محمد صالح . شيخ الصالحية أن يكتب رسالة إلى علماء المسلمين وذوى الرأى من أهالى السومال ، يعلن فيها عداءه لمحمد بن عبد الله حسان . وكان لهذه الرسالة ، ولظروف أخرى [1]، أثر كبير فى إضعاف شوكته ووقف نشاطه .

والواقع أن محمد بن عبد الله كان ذا دعوة وطنية دينية مخلصة، فكان يرمى إلى توحيد القبائل تحت لواء الإسلام ، وطرد العدو الأجنبى من بلاده . ولكنه وجد آخر المطاف ، أن من العسير أن يمضى فى دعوته فأسلم إلى الهدوء .

على أن هناك بعض حركات هدامة ، قامت فى بلاد الحبشة، لا تريد الإصلاح ، ولا ترمى إلى هدف واضح ، ولكنها أشبه شىء بحركات القرامطة التى ظهرت فى القرن التاسع الميلادى؛ من ذلك ما حكاه صادق باشا فى رحلته من أنه ظهر فى القرن الماضى

---

(١) راجع ص ٢١٦ من هذا الكتاب

رجل فى شوقوله ، قرب غندار ، يسمى زكريا ، يدعى النبوة ، ويفسر القرآن كما يشاء ، ويغير قواعد الدين على النحو الذى يميل إليه الجهلة الذين اتبعوه . فجعل الصيام إلى الظهر ، وأباح المسكرات والفسق والفجور بالنساء ، وبلغ عدد أتباعه أربعة آلاف [١] .

وهناك طائفة من علماء الحبشة المسلمين ، ظهرت آثارهم فى العالم الإسلامى بعيدا عن أوطانهم . من ذلك فريق من جبرت ، نزحوا إلى مصر والحجاز لتلقى العلم ، فطاب لهم العيش فى هذه البلاد ، وأنتجوا فيها ثمار أفكارهم ، ورحب بهم أصحاب هذه البلاد ، ولقوا الحظوة لدى ملوكها وعظمائها .

وتعد أسرة الجبرتى المؤرخ من أشهر علماء جبرت . روى الجبرتى نفسه أن أول من ارتحل من بلاده من هذه الأسرة ، فى أوائل القرن العاشر ، الشيخ عبد الرحمن ، وهو الجد السابع للجبرتى المؤرخ . قيل إنه قدم من طريق البحر إلى جدة وانتقل إلى مكة ، فجاورها ، وحج مرارا ، وذهب أيضا إلى المدينة المنورة ، فجاور بها سنتين ، ولقى من لقى بالحرمين من الأشياخ وحضر إلى مصر فدخل إلى الأزهر ، وجاور بالرواق ، وتولى

---

(١) ص ١٦٧

شيخا على الرواق . وتكلم على طائفته وتزوج وولد له(١) .ونشأ ابنه شمس الدين على نهج أبيه ، وتولى مشيخة الرواق كوالده وله كرامات ذكرها الجبرتى (٢). وفى القرن الثانى عشر ، عاش الشيخ حسن الجبرتى وكان شيخا على الرواق ، وولد عبد الرحمن سنة ١١٦٨ (١٧٥٤ م) الذى اشتهر فيما بعد بكتابه فى التاريخ؛ ويقال إنه قتل فى شبرا أثناء عودته إلى القاهرة سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢٢) .

ومن أهل جبرت الشيخ إسماعيل بن سودكين الجبرتى ، تلميذ ابن عربى المتصوف المعروف ، وكان يعتقده الملك الظاهر برقوق ، وأوصى عند موته بأن يدفن تحت قدمه بالصحراء (٣). ومنهم الشيخ على الجبرتى الذى كان يعتقده السلطان الأشرف قايتباى . وارتحل إلى بحيرة إدكو ، فيما بين رشيد والإسكندرية، وبنى هناك مسجدا عظيما، ووقف عليه عدة أماكن، وقيعان وأنوال حياكة وبساتين ونخيل كثيرة . وبنى مسجدا شرقى عمارة السلطان قايتباى ودفن به وقد خرب وانطمست معالمه . قال الجبرتى : ومن كراماته التى أكرمه الله بها ، أنه يرى على قبره فى بعض الليالى

---

(١) الجبرتى حـ ١ ص ٣٩٢
(٢) نفس المرجع والصفحة
(٣) نفس المرجع ص ٣٨٩

المظلمة نور مثل القنديل المستنير ، يراه سكان العمارة وغيرهم. وهو أمر مشهور (١).

ومنهم الفقيه الأصولى الجدلى ، فخر الدين أبو عمرو عثمان ابن على بن محجن البارعى الزيلعى ، قدم القاهرة فى القرن الرابع عشر ، ودرس ، وأفتى ، ونشر الفقه ، ومات بها . وقد شرح كنز الدقائق فى كتاب سماه « تبيين الحقائق ، شرح كنز الدقائق »(٢) .

٤

ولم يكن مستوى الأحباش الاجتماعى على جانب من الرقى حتى عهد قريب . ومن بين سكان الحبشة كثير من القبائل يعيشون على الرعى ويكثرون من الترحال، وقد يقطعون مسافات بعيدة ، وفيافى شاسعة فى سبيل الحصول على أقواتهم . وكثيرا مايلجئون إلى النهب وقطع الطريق ؛ ولقد اتسعت غارات البجة يوما ما حتى وصلت إلى القاهرة ؛ ويروى أنه فى سنة ٢٥٢ هـ هربت عصابة من الحبشة ، وعلى رأسها شريح الحبشى ، إلى

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٣٩٠ . قارن هذا بما ذكره البغوى فى تفسيره عن عائشة أنها قالت : لما مات النجاشى ، كنا نحدث أنه لا يزال على قبره نور ؛ وبما ذكرنا فى هذا الكتاب ص ١٣٣ من أن أم أيمن عطشت يوما ، فأدلى عليها السماء دلو من ماء برشاء أبيض وعندى أن استخدام النور والبياض فى أمثال هذه الكرامات المنسوبة الى الأحباش صدى للارتكاس اللونى إن صح التعبير.

(٢) السيوطى حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٢٢ (طبعة القاهرة سنة ١٣٢١هـ)

العراق ، وقطعوا الطريق فيما بين واسط وناحية الجبل والأهواز، ونزلوا قرية من قرى أم المتوكل يقال لها ديرى ، فنزلوا فى خانها حيث قبض عليهم [١]. ولا أدل على ما كان عليه هؤلاء القوم من وحشية فى القرن الخامس عشر، مما يذكره المقريزى عن الحطى داود بن سيف أرعد من أنه رؤى يأكل كرش بقرة نيئاً ،وما فيه من بقايا الفرث، يسيل على حنكه ،كما شوهد رجل منهم يأكل دجاجة وهى تصيح . وهم عراة الأبدان لا يكادون يعرفون لبس المخيط بل يرتدون ، ويتزرون فى أوساطهم [٢] .

ولكن مصر عملت كثيرا فى سبيل تحضير هؤلاء القوم . فأدخلت إليهم بعض النظم الإدارية والسياسية والدينية. كما أفادوا كثيرا من اتصالهم ببلاد العالم الإسلامى ، إما اتصالا مباشرا أو عن طريق التجار واللاجئين [٣] .

---

(١) طبرى حـ ٣ ص ١٦٥٧ — ١٦٥٨
وقبل ذلك بأكثر من قرن ونصف قرن ، أغار الأحباش على جدة ميناء مكة ونهبوها ، وألقوا الرعب فى قلوب العرب ، وأذاعوا بين الناس أنهم سيستولون على مكة ويخربون الكعبة (Iones and Monroe, p.45.)

(٢) إلمام ص ٥

(٣) أنظر بعض آثار المصريين فى الحبشه فى ص ١٤٩ ، ١٨١ من كتابنا هذا . يضاف الى ذلك تأثر الفن الحبشى بالفن المعمارى المصرى (أنظر تاريخ الامه القبطيه حـ ٢ ص ١٦٥ تأليف بتشر وترجم إلى العربيه ، طبعة الفجالة ١٩٠٦ . وانظر : Iones and Monroe p. 49.

ومن جهة أخرى، لم تمكن المؤثرات الحبشية ، فى هذه الفترة من تاريخ الحبشة ،قوية فعالة فى البلاد الإسلامية (١) ، اللهم إلا إذا استثنينا آثار التبادل التجارى . فقد أدى ازدهار التجارة بين الحبشة والبلاد الإسلامية فى هـــذه العهود إلى نقل كثير من حاصلات الحبشة وعبيدها إلى هذه البلاد. فكانت مناطق الحبشة الساحليـة تستورد القماش الحرير والـكتـان من مصر واليمن والعراق (٢). ومن أهم ما كانت تصـدره الحبشة إلى بلاد اليمن ، البن الذى كان الأحباش يصدرونه إليها منذ القرن الرابـع عشر الميلادى ، حيث انتقلت كلمة قهوة من معناها العربى القديم (وهو الخمر) إلى معنى شراب البن (٣). وكان لهـذا الشراب أثر كبير فى

---

(١) مما لا مانع من ذكره هنا ، أنه وجد على جدران قصر (قصير عمرة) فى شرق الاردن الذى يرجح انه بنى بين سنتى ٧١١ ، ٧٥٠ م وربما كان مؤسسه هو الوليد بن عبد الملك ،صورة للملوك الذين دانوا له بالطاعة ، ومن بينهم صورة النجـاشى . ولا نستطيع أن نستدل من ذلك على ان الحبشة كانت تابعة للوليد ، إذ أن الوليد فى الغالب كان يقصد بهذه الصورة مجرد التباهى وإظهار عظمة الملوك .

(٢) صبح الاعشى حـ ٥ ص٣٣٢

(٣) القهوة فى اللغة الخمر ثم تطور معناها فى القرن الرابع عشر، فأصبح يدل على شراب البن . والكلمة الافرنجيه Coffee مأخوذة من كافا اسم المنطقة الحبشيه التى اشتهرت بتصدير البن الى الخارج . ولا نعرف على وجه التحقيق الصلة اللفظية بين القهوة والكلمة الافرنجيه Coffee . ولا كيف تطور المعنى من القهوة التى بمعنى الخمر الى القهوة بمعنى شراب البن .

حلقات الصوفيـة في اليمن . وفى القرن السادس عشر ، أدخل هؤلاء الصوفية هذا الشراب إلى مصر فى حلقات الذكر التى كانوا يعقدونها مع إخوانهم من أهل مكة والمدينة، ثم انتشر الشراب فى الشام وفارس وتركيا .

وكثر الرقيق المجلوب من الحبشة إلى البلاد الإسلامية كثرة عظيمة ، حتى رأينا منهم من يصبح له صولة ونفوذ فى بعض هـذه البلاد . فقد تمـكن أحـدهم ، كافور الإخشيدى ، أن يجلس على عرش مصر فى القرن العاشر الميلادى . وكان لعبيد الحبشة وإمائها مزايا عظيمة ، حببت الناس فى اقتنائهم ، والحرص عليهم. أضف إلى ذلك ما عرفت به الأمة الحبشية من صباحة وجمال . ويقال إن كثيرا من الحبشيات قـد هاجرن إلى السودان ، ولقين حظوة لدى أهالى هذه البلاد ، ومنهن يتألف أكثر بغايا السودان (١) .

على أنه كان لهؤلاء العبيد أثر فى الشعر العربى . فقد استرعت مزاياهم انتبـاه الشعراء ، فنظموا فيهم الأشعار (٢) . والخـبراء بهؤلاء العبيد يجعلونهم أجناسا ، ويضعون السحرتى والأمحرى على

---

(١) عبد الله حسين حـ ١ ص ٢٨١

(٢) تجد طائفة منها فى الجبرتى حـ ١ ص ٣٩١ ، وفى الطراز المنقوش ورقه ٤٢ وما يليها

رأس هذه الأجناس. لا تصافهما بالجمال ودماثة الخلق وفصاحة اللسان ونعومة الخد ورشاقة القد.. ويفرقون بين الجنسين فى أن السحرتى أكثر شجاعة وأمانة والسحرتية أكثر شدة وعنفا، على حين تفوق الأمحرية على السحرتية باللطف والظرف . ويقولون إن من أجناسهم كذلك جنس الداموت وبلين وقموقتر وزيلع وإزاره . وفى بنات زيلع وإزاره يقول الشيخ شهاب الدين البزاعى من أبيات :

وخذ ما حلا من بنات الحبوش من جلب زيلع أو إزاره

وقال غيره فى شعر رقيق :

ياسائلى عن زيلع وعن طريق الحبشة
صحبتها وصيفة بحسنها مشربشه (١)
تذكر أن أصلها من فتيات الأنجشه
وعمها الخال فيا طوبى لمن قد خمشه
وخدها لو مر فيه الوهم يوما خدشه

ويقول الشيخ عبد البر بن الشحنة فى أمة أمحرية :

حبشية ساءلتها عن جنسها فتبسمت عن درثغر جوهرى
فطفقت أسأل عن نعومة ماخفى قالت فما تبغيه : جنسى أمحرى

---

(١) مشربشة أى واضعة على رأسها غطاء يشبه الشربوش .

ثبت بالمراجع العربية

نذكر فيما يلى المراجع العربية التى أشرنا إليها أكثر من مرة فى هذا الكتاب :

ابن إسحاق (+ ١٥١ ﻫ) :

« سيرة ابن هشام » ثلاثة أجزاء ، نشر فستنفلد ، طبعة جوتنجن ١٨٥٩م

ابن بطوطة (+ ٧٧٨ ﻫ) :

« تحفة النظار من غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » المعروفة برحلة ابن بطوطة . مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٢ ﻫ فى جزءين .

ابن سعد (+ ٢٣٠ ﻫ) :

« الطبقات الكبير » ٩ مجلدات نشره سخاو من ١٩٠٥-١٩٢١

ابن قتيبة (+ ٢٧٦ ﻫ) :

« الشعر والشعراء » مطبعة ليدن ١٨٧٥ م

أبو الفرج الأصفهانى (٣٦٥ ﻫ) :

« الأغانى » ٢١ جزءاً طبعة الساسى ١٣٢٣ ﻫ

الإلمام : أنظر المقريزى

برجشتراسر :

« التطور النحوى للغة العربية » محاضرات ألقاها فى الجامعة ونشرها حمدى البكرى فى مصر ١٩٢٩

البغدادى (+ ١٠٩٣ ه) :

« خزانة الأدب » ٤ أجزاء طبعة بولاق ١٢٩٩ ه

الجبرتى (+ ١٢٤٠ ه) :

« عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » المعروف بتاريخ الجبرتى ٤ أجزاء مطبعة الشرفية بالقاهرة ١٣٢٢ ه

جويدى :

انظر : Encyc. of Islam – Abyssinia فى المراجع الافرنجية.

« علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية » نسخة خطية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول .

الحبشانى : أنظر محمد الحفنى القنائى .

الخازن (+ ٧٤١ ه) :

« تفسير الخازن » مطبعة بولاق ١٢٩٨ ، ١٣٠٠

الحيمى (الحسن بن أحمد) :

Der Gesandtschaftsbericht des Hasan ben Ahmed El-Haimi.

نشرها بيزر فى جزءين : الأول النص العربى نشره ١٨٩٤ ؛ وفى الثانى الترجمة الألمانية نشرها ١٨٩٨ .

دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) :
المواد : بجة ، البشارية ، تكرور الخ ...
رفيق العظم بك :
« رحلة صادق باشا المؤيد إلى الحبشة » ترجمة رفيق العظم بك مطبعة الجريدة بمصر ١٩٠٨
السخاوى (شمس الدين) (+ ٩٠٢ ﻫ) .
« التبر المسبوك فى ذيل السلوك » مطبعة بولاق ١٨٩٦
الطراز المنقوش : أنظر محمد بن عبد الباقى البخارى
عباس العقاد :
« داعى السماء : بلال بن رباح مؤذن الرسول » مصر ١٩٤٥
عبد الله حسين :
« السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية » مطبعة الرحمانية ١٩٣٥ .
عبد المعيد خان :
« الأساطير العربية قبل الإسلام » مطبعة لجنة الترجمة والنشر والتأليف ١٩٣٧ .
عرب فقيه (+ ٩٥٠ ﻫ) :
« فتوح الحبشة » الجزء الأول نشر رينيه باسيه ١٩٠٩
القلقشندى (+ ٨٢١ ﻫ) :

« صبح الأعشى فى كتابة الإنشا » الجزء الخامس طبعة دار الكتب ١٩١٥

لويس شيخو :

(ا) « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » جزآن طبعة بيروت ١٩١٢ ، ١٩١٩

(ب) شعراء النصرانية . الجزء الأول طبعة بيروت ١٨٩٠

محمد بن عبد الباقى البخارى (+ ٩٩١ هـ) :

« الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش » نسخة خطية بدار الكتب المصريه رقم ٢٢٨٣

محمد الحفنى القنائى :

« الجواهر الحسان بما جاء عن الله والرسول وعلماء التاريخ فى الحبشان » المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٠ هـ

المفضل بن أبى الفضائل (+ ٦٧٢ هـ) :

« النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » نشره بلوشيه مع ترجمة فرنسية فى (Patr. Or. T. XIV, Paris 1920)

المقريزى (+ ٨٤٥ هـ)

« الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام » طبعة بتافيا ١٨٩٠ م

ياقوت :

« معجم البلدان » ثمانية أجزاء مطبعة السعادة ١٩٠٦

ثبت بالمراجع الافرنجية

نذكر فيما يلى المراجع الإفرنجية التى أشرنا إليها أكثر من مرة فى هذا الكتاب :

Arnold (T. W.) :

The Preaching of Islam, London 1935,

Axel Moberg :

The Book of the Himyarites, Lund 1924.

Brockelmann :

1) Gesch. d. Arab. Litter. B. I, II. Weimar 1898, Berlin 1902.

2) Id. (Suppl.) B. I, II. Leiden 1937, 1938.

Budge :

A History of Ethiopia, 2 vols. London 1938.

Cederquist :

Islam and Christianity in Abyssinia (Moslem World, vol. ii. 1912).

CIH, (see Corpus)

Conti Rossini :

Expeditions et possessions des Habasat en Arabie (Journal Asiatique, Juill. Sept, 1921)

Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars Quarta, 4 fasc. Parisiis 1889 — 1908,

Doughty :

Travels in Arabia Deserta, 2 vols, London 1927.

Encyc. of Islam, arts : Abyssinia, Lukman, India, Kanem, Somaliland, Kahwa etc .

Encyc. of Religion and Ethics, art. Abyssinia.

Fell :
Z D M G, B. 35, Leipzig 1881 : Die Christenverfolg-ung in Sudarabien.
Glaser :
Die Abessinier in Arabien und Africa, Wuenchen 1895.
Hartmann :
Die Arabische Frage, Leipzig 1909.
Jones and Monroe :
A History of Abyssinia, London 1935.
Kammerer :
Essai sur l'histoire Antique d' Abyssinie, Paris 1926,
Littmann :
Gesch. d' Aethiopischen Litteratur, s. 187 - 269.
(Gesch. d. Christl. Litt. des Or. Leipzig 1907.)
Loth :
ZDMG, B. 35, Leipzig 1881 : Die Leute der Grube.
Murad Kamil .
(1) Translations from Arabic in Ethiopic Literature, Le Caire 1942. (Extrait du Bulletin de la Société D'Archeologie Copte, T. VII (1941) .
(2) Gesch. d. Juden, Strassburg, 1937.
Noeldeke :Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissen-schaft, s. 31 — 65, Strassburg. 1910.
R. Bell :
Origin of Islam in its Christian environment. London, 1928.

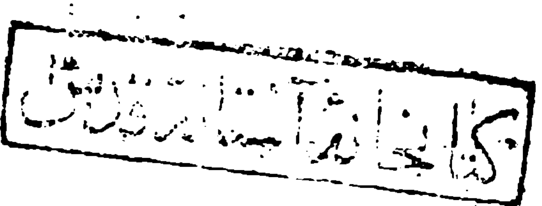
فهرس عام

يكونو أملاك : مؤسس الأسرة السليمانية ١٤٨ اضطهاد المسلمين فى عهده ١٧١ بينه وبين سلطان مصر ١٧١ – ١٧٤

اليمن: طريق هامة إلى الهند ٥ حملات الحبشة إلى اليمن (انظر حمير) علاقة الحبشة باليمن فى عصور متأخرة ١٥٩ – ١٦٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ – ٢٥٦

يوحنس الأول : ٢٠٤ ، ٢٠٥

يوحنس الرابع : ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٢



مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

تصويب

ص	س	خطــأ	صــواب
٣	١٩	سبئة	سبئية
٤	٣	كانوا أقرب	كان أقرب
٥	١٤	أشارت	أشار
٥	فى الهامش	Glascr	Glaser
٧	١٢	لم تكن تطلق	لم يكن يطلق
٧	١٢	وإنما أطلقها	وإنما أطلقه
٧	١٨	عرق	أعرق
٩	١٥	موضوع هذا البحث	موضوع الكتاب الاول من هذا البحث
١٠	١٢	الجيشية	الحبشية
١٢	٣	قد ورد	وقد ورد
١٢	٥	من خليج	بين خليج
١٥	٤	٢٧٥ قبل الميلاد	٢٧٥ ميلادية
١٥	٧	له	إله

ص	س	خطأ	صواب
١٥	١٤	الخمسين عاما	الخمسين عاما بقليل
١٦	١	الحضارة السامية	الحضارة السامية العربية
١٦	٤	كانت	كان
١٧	١٤	كان	كانت
١٩	١١	الجاليات الإفريقية	الجاليات الإغريقية
٢١	١١	أول أسقف	أول مطران
٣٤	١٢	ويحه	وبجة
٣٧	٩	تميزا	تمييزا
٣٩	١٢	فى لهذه	فى هذه
٤٤	٥	٥٢٠ - ٥٣٠ م	٥٢٠ - ٥٢٥ م
٤٤	١٧	مسروق	مسروقا
٥٩	١٩	وهو بلغةالأحباش	وهو لغة حبشية فى
٦٠	١٩	Kopenagen	Kopenhagen
٦٣	٨	هذا السبيل	هذه السبيل
٧٤	٦	سيلقون منهم	سيلقون منهم ترحيبا
٨٥	١٣	٦٣٤ م	٦٣٢م
٨٨	١٦	الطرز المنقوش	الطراز المنقوش

ص	س	خطأ	صواب
٨٨	١٧	بفل	بغـل
٩٥	٥	ومع هذا فلم تـكن	ومع هذا لم تـكن
٩٧	١٣	الأباء	الآباء
٩٧	١٧	وغيرهما	وغيرها
٩٧	٢٠	شيخون	شيخو
٩٨	١٩	Zur	zur
٩٩	١٩	١٢٩٩ م	١٩٢٩ م
١٠٨	٩	والذى	وما
١٠٩	١٣	وكانت توكل	وكان يوكل
١٠٩	١٨	لافكاريو	لافكاديو
١١٣	١٩	٣٥٨	٢٥٨
١١٥	١١	طاهرة	ظاهرة
١٢٧	١-٢	كانت امرأة يحبها	امرأة كان يحبها
١٤٥	١١	ثم غزا	والذى غزا
١٤٧	٢	كان لفتوح	كان من أثر فتوح
١٥٧	٦	أسبقهم	أسبق الأقاليم
١٥٩	٦	الدراسة	لدراسة

ص	س	خطأ	صواب
١٥٩	١٨	كان طبيعا	كان طبعيا
١٦٠	٢٠	السومالية	الساحلية
١٦١	١	مع اليمن	مع أهالى جنوب بلاد العرب
١٧١	١٠	٣	٢
١٧٧	٩	عن طريق البر	أو عن طريق البر
١٨٣	١٩	التبرك المسبو	التبر المسبوك
٢٠٦	١٤	يوحنس	يوحنس الرابع
٢٢٣	١٧	المسافرن	المسافرون
٢٢٤	١٢	الذى	الذين
٢٢٤	١٥	الذى سرقوة	الذين سرقوه

الأدب المقارن: تأليف ڤان تيجم أستاذ الأدب بالسوربون باكورة سلسلة الآداب العالمية التى تصدرها دار الفكر العربى من تأليف كبار الأساتذة وترجمة خير الكتاب العرب، نقطة حاسمة فى تاريخ الدراسات الأدبية باللغة العربية. وثمنه ٢٠ قرشا

قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام:
للدكتور توفيق الطويل

سيرة الاضطهاد الدامى الذى أنزله الرومان بالمسيحة وشهدائها، والكنيسة الكاثوليكية على خصومها والبروتستانت وغيرهم، وتاريخ ما وقع فى الاسلام من مآسى الاضطهاد المرير، وثمنه ١٨ قرشا

سر الحاكم بأمر الله: للاستاذ على أحمد باكثير

أقوى مسرحية ظهرت باللغة العربية، تجلو شخصية الحاكم وتكشف سرها الذى حير المؤرخين. وقد فازت بالجائزة الممتازة فى مباراة وزارة الشئون الاجتماعية وثمنه ١٥ قرشا

أطفال بلا أسر: تأليف أنافرويد ودوروثى برلنجهام
تعريب الأستاذين محمد بدران ورمزى يسى

يبحث مشاكل الأطفال الذين يربون بالملاجىء ودور الحضانة، كما يبحث فى العلاقة بين الأطفال وأنفسهم، وبينهم وبين مربياتهم، وبين أثر المعاهد فى نفوسهم كما يكشف عن الآثار التى تنجم عن حرمان الطفل من أسرته وثمنه ٢٠ قرشا

